سلسلة المنوعات (٣٥)
إصداراتنا الرقمية (٢٣٤)

الفواح العطر

في تزكية التفكر والذكر

للأستاذ الدكتور
صلاح محمد أبو الحاج
عميد كلية الفقه الحنفي
بجامعة العلوم الإسلامية العالمية
عمان - الأردن

أنوار العلماء
مركز أنوار العلماء للدراسات

الفواح العطر في ....

....في تزكية التفكر والذكر

الفواح العطر

في تزكية التفكر والذكر

للأستاذ الدكتور صلاح محمد أبو الحاج

عميد كلية الفقه الحنفي

جامعة العلوم الإسلامية العالمية

مركز أنوار العلماء للدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على فضله ورحمته، وجزيل الشُّكر على مننه ومغفرته، والصّلاة والسّلام على سيد الخلق، نبينا وحبيبنا ورسولنا محمّد، عليه أفضل الصلاة وأتمّ التّسليم، وعلى آله وصحبه الكرام، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

إن بحثنا في هذا الكتاب يدور على وسائل التزكية وتطهير النفس، ونحاول عرضها بقدر الاستطاعة وإن كانت معالجة أمراض القلوب وآفات اللسان من وسائل التزكية إلا أنها كانت ألصق بالكلام عن القلب واللسان، فكان ذكرها أنسب في الكتب المتعلقة بها.

ومدار وسائل التزكية يرجع لمحورين رئيسيين، وهما الذكرُ والتفكر، قال سعيد حوى[1]: «والذكر والفكر توأمان في تفتيح قلب الإنسان على آيات الله، ولذلك كان التفكر وسيلة من وسائل التزكية: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا

---

(١) في المستخلص ص٣٠.

خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[آل عمران: ١٩١ – ١٩٣]، فما استخرج هذه المعاني من القلب إلا اجتماع الذكر والفكر».

وغيرها من طرق التزكية تدور في فلكهما، فكان هذا الكتاب مشتمل على فصلين يتضمنان أبحاث يذكر فيها الوسائل الأخرى.

«والمراد بوسائل التزكية: هي الأعمال التي تؤثر تأثيراً مباشراً على النفس بأن تشفيها من مرض أو تخرجها من أسر أو تحققها بخلق، وقد يجتمع هذا كله في عمل، فأداء الصلاة مثلاً يخرج الإنسان من التكبر على الله رب العالمين، وفي الوقت نفسه تنوِّر الصلاةُ القلبَ فينعكس ذلك على النفس أن تترك الفحشاء والمنكر.

هذه الوسائل تترك أثرها في النفس، فتتخلّص النفس بذلك من مرض أو تتحقق بمقام إيماني أو خلق إسلامي.

ومع أن أعمال الإسلام كلها يمكن أن تدخل في مثل هذا، لكننا نقتصر على بعض الأعمال التي هي أوضح من غيرها تأثيراً في النفس، ومع أن التوبة محلّها هاهنا»[١]، إلا أنها تذكر عند الكلام على القلب، لتعلقها بمقامات القلوب

فنعرض في فصل الذكر لمباحث متعلق بالذكر كالصلاة والزكاة والصوم والحج والأذكار والدعاء والأسماء الحسنى والأوراد وغيرها.

---

(١) ينظر: المستخلص ص٢٩.

«فالصلاة وسيلة من وسائل التزكية، وهي المظهر الأرقى للعبودية والشكر، وبقدر ما تؤدى الصلاة على كمالها تكون علامة على أنّ النفس مُزكّاة والقلب مُطهَّر، فإقامتها على الكمال والتمام وسيلة وغاية وأثر.

فالصلاة بسجودها وركوعها وأذكارها تطهّر النفس من التكبر على الله، وتذكّر النفس بالاستقامة على أمره: {إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ} [العنكبوت: ٤٥].

وكامل العبادات له آثر بالغ في التزكية، فالزكاة والإنفاق يطهران النفس من البخل والشحّ، ويعرفان الإنسان أنَّ المالك الحقيقي للأشياء هو الله، ولذلك كانا وسيلتين من وسائل التزكية: {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}[الليل:١٨].

والصوم تعويد للنفس على ضبط شهوتيِّ البطن والفرج، فهو وسيلة من وسائل التزكية: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون}[البقرة:١٨٣].

والحج تعويد للنفس على الترفُّع عن الرفث وعلى ترك الفسوق والجدال وغير ذلك فهو وسيلة من وسائل تزكية النفس: { فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِ} [البقرة: ١٩٧].

وتلاوة القرآن تذكر النفس بكل الكمالات، فهي وسيلة من وسائل تزكية النفس: { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا } [الأنفال: ٢].

والأذكار هي التي تعمّق الإيمان والتوحيد في القلب: {أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب}[الرعد:٢٨]، وبذلك تصل النفس إلى أعلى درجات التزكية : {يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّة}[الفجر:٢٨]»[١].

ونعرض في فصل التفكر لما يتعلق بالتفكر من أمور، مع العزلة وتذكر الموت وقصر الأمل وغيرها.

«فهذه أمهات في وسائل التزكية العامة، وهناك أنواع من التزكية الخاصّة لأمراض خاصّة، وبقدر ما تقام الوسيلة الكاملة يكون لها أثرها الكامل وبقدر النقص فيها تنقص آثارها»[٢].

وسميت هذا الكتاب بـ:

«العطر الفواح في تزكية التفكر والذكر»

وهو في عامة مادته معتمد على «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي الذي يعدّ الكتاب الأم فيما يتعلق بباب التزكية والتربية، واستفيد من كتب أُخرى مثل مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح للإمام ابن عطاء السكندري، سعيت فيها للتهذيب للترتيب والتدليل.

وهو يشتمل على فصلين:

الفصل الأول في الذكر وتبعاته، ويشتمل على مباحث:

---

(١) ينظر: المستخلص ص٢٩، باختصار وتصرف.

(٢) ينظر: المستخلص ص ٣٠.

المبحث الأول في معنى الذكر وفضله وثمرته.

والمبحث الثاني في أسرار الصلاة.

والمبحث الثالث في أسرار الزكاة والصيام والحج.

والمبحث الرابع في تلاوة القرآن.

والمبحث الرابع في الأذكار والدعوات.

والفصل الثاني في التفكر وتوابعه، ويشتمل على مبحثين:

والمبحث الأول في التفكر والعزلة.

والمبحث الثاني في ذكر الموت وطول الأمل.

وفي الختام أسال الله ﷻ أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به البلاد والعباد، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يغفر لي ولوالدي وأشياخي وللمسلمين والمسلمات، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

الأستاذ الدكتور صلاح محمد أبو الحاج

عميد كلية الفقه الحنفي

في مدينة صويلح من عمان المحروسة

بتاريخ ١٥/ ٣/ ٢٠٢٢م

الفصل الأول
الذكر وتوابعه

نتكلم في هذا الفصل عن مجموعة من الوسائل في تطهير النفس والتزكية لها، فيمكن اعتبار الذكر بمثابة الأب لطرق التربية، والتفكر بمثابة الأم لها، ويندرج تحت كلٍّ منهما وسائل متعدِّدة مردُها لكلٍّ منهما، قال الغَزاليُّ[1]: «الفكر والذكر أعلى مقامات السالكين».

المبحث الأول
معنى الذكر وفضله وثمرته

نعرض في هذا المبحث لمقدمات عامة في الذكر فيها بيان معنى الذكر، والارتباط الوثيق بين الذكر والإخلاص، وذكر فضل الذكر وثمرته في القرآن والسنة في المطالب الآتية:

---

(١) في الإحياء٣: ٢٣٦.

المطلب الأول: معنى الذكر:

أولاً: المعنى اللغوي:

الذِّكر: ضدُّ النسيان ذكرتُ الشَّيء أذكره ذِكراً وذُكراً(١)، والذكر: الصيت والثناء، قال تعالىٰ: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ}[ص:١]: أي ذي الشرف، وذكره بعد النسيان وذكره بلسانه وبقلبه يذكره ذكراً(٢).

فمدارُ الذِّكر في اللغة علىٰ عدم النسيان؛ لذلك ما شاع صيته لم يكن منسياً، فكان ذكر الشيء باللسان أو الذهن خلاف النسيان، قال الكفويُّ(٣): «الذِّكر له معنيان: أحدهما: التلفظ بالشيء، والثاني: إحضاره في الذهن بحيث لا يغيب عنه، وهو ضد النسيان».

ثانياً: الاستعمال القرآني:

فما يكون محفوظاً يُعَدُّ ذكرٌ؛ لعدم النسيان فيه، كما أن ما يُتذكَّر بلسان أو القلب يُعَدُّ من الذِّكر، قال الراغبُ الأصفهانيُّ(٤):

«الذكر: تارةً يُقال ويُراد به: هيئةٌ للنَّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذكر يُقال اعتباراً باستحضاره.

---

(١) ينظر: جهرة اللغة٢: ٦٩٤.

(٢) ينظر: مختار الصحاح ص١١٢.

(٣) في الكليات ص ٤٥٦.

(٤) في مفردات القرآن١: ٢٣٨ـ ٢٣٩.

وتارة يقال: لحضور الشيء القلب أو القول، ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان، بل عن إدامة الحفظ.

فمن الذكر باللسان قوله تعالى: {لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُون}[الأنبياء:١٠]، وقوله تعالى: {وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُون}[الأنبياء:٥٠].

ومن الذكر عن النِّسيان قوله: {فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ}[الكهف:٦٣].

ومن الذكر بالقلب واللسان معاً قوله تعالى: { فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا}[البقرة:٢٠٠]، وقوله: {فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَام وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ} [البقرة: ١٩٨]، وقوله: { وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} [العنكبوت:٤٥]، أي: ذكر الله لعبده أكبر من ذكر العبد له، وذلك حَث على الإكثار من ذكره.

والذكرى: كثرة الذكر، وهو أبلغ من الذكر، قال تعالى: {رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَاب}[ص:٤٣]}[ص: ٤٣]، وقوله: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِين}[الذاريات:٥٥]، في آي كثيرة».

ثالثاً: المعنى الاصطلاحي:

كان بحثنا في المعنى اللغوي عن الذكر مطلقاً بحيث يبقى متذكر له ولا ينساه، وفي الاصطلاحي كلامنا في ذكر مخصوص، وهو للخالق سبحانه،

بحيث يبقى ذاكراً له تعالى في كل أحواله وأفعاله وأوقاته؛ لتكون هذه الأعمال خالصة لوجه الكريم؛ لذلك كان تعريف الذكر:

التَّخلص من الغفلة والنسيان بدوام حضور القلب مع الحقّ(١).

فلا يكون الذكر مقتصراً على ترداد فحسب، وإنما شامل لكل أفعال المسلم إن كان فيها مستحضراً للحق سبحانه، بحيث يقصد وجهه الكريم، وبالتالي نحن أمام معنى خاص في الذكر وهو استحضار المولى في جميع أحوالنا وتصرفاتنا؛ لتكون أقوالنا وأفعالنا خالصة لوجهه الكريم، وهو أمر يحتاج دربة واجتهاداً ومجاهدة حتى يتحقق من كل واحد، وسيكون الناس فيها متفاوتون في تحصيله وتحقيقه.

وبقدر تحقيقها في حياتنا يكون نجاحنا في دُنيانا؛ لأنا لم نُخلق إلا لتحقيق الإخلاص لله تعالى، فيصبح جميع ما يَصدر عنا عبادةً له سبحانه، ويتحقَّق فينا معنى قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون} [الذاريات:٥٦]، فنكون بذلك في جميع لحظاتنا في عبادة.

لذلك توسعوا في تعريف الذكر ليشمل جميع التّصرفات، فقالوا:

ترديد اسم المذكور بالقلب واللسان، وسواء في ذلك ذكر الله تعالى، أو صفةٌ من صفاته، أو حكمٌ من أحكامه، أو فعلٌ من أفعاله، أو استدلالٌ على شيءٍ من ذلك، أو دعاءٌ أو ذكرُ رسله أو أنبيائه أو أوليائه، أو مَن انتسب إليه،

---

(١) ينظر: مفتاح الفلاح ص٣.

أو تقرب إليه بوجهٍ من الوجوهِ، أو سببٍ من الأسباب، أو فعلٍ من الأفعال بنحو قراءةٍ أو ذكرٍ أو شعرٍ أو غناءٍ أو محاضرةٍ أو حكايةٍ[1].

وعلى هذا يكون المسلم ذاكراً لله تعالى في جميع أَوقاته إن كان ذاكراً له سبحانه فيها ومريداً وجهه، قال ابنُ عطاء[2]: «المتكلمُ ذاكرٌ، والمتفقهُ ذاكرٌ، والمدرسُ ذاكرٌ، والمفتي ذاكرٌ، والواعظُ ذاكرٌ، والمتفكِّرُ في عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته وآياته في أرضه وسمواته ذاكرٌ، والممتثلُ ما أَمر الله تعالى به والمنتهي عن ما نهي عنه ذاكرٌ».

فلا يقتصر الذكر على عضو دون عضو، ولا يكون خاصاً باللسان لا غير، بل «الذكر قد يكون باللسان، وقد يكون بالجنان، وقد يكون بأعضاء الإنسان، وقد يكون بالإعلان والإجهار، والجامع لذلك كلُّه ذاكر كامـــل»[3].

فالذكر الكامل المقصود تحقيقه في الشرع شامل للكلّ، بحيث لا يخرج فعل ولا قول عنه، وعلى المسلمين التسابق في تحقيقه للفوز برضى الله تعالى، و{وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُون}[المطففين:٢٦].

ولذلك أن الله تعالى أطلق الله تعالى على العلماء الكاملين الذي بلغوا أعلى درجات العلم بحيث يقدرون على الاجتهاد والفتوى للناس بأهل

---

(١) ينظر: مفتاح الفلاح ص٣.

(٢) في مفتاح الفلاح ص٣.

(٣) ينظر: مفتاح الفلاح ص٣.

الذكر، قال تعالى: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُون}[النحل:٤٣]؛ لكون العلم من الذكر، ولأنه لا يكون علماً نافعاً إن لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى، فيكون ذاكراً في تعلمه وتعليمه وفتواه لله تعالى، فما لم يكن في علمه من الذاكرين فلا خير في هذا العلم ولا في صاحبه.

وكان القرآن كتاب ذكر، قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون}[الحجر:٩]؛ لأنه نزل لهداية الناس، وأعظم هداية لهم أن يكونوا ذاكرين لله تعالى في كلّ حياتهم، فيكون القرآن محققاً بآياته لهذا المعنى، ومرشد له بأساليبه المتنوِّعة.

وكانت جميع عباداتنا من صور الذكر لله تعالى، بل هي من أبرزها وأكثرها تحقيقاً للذكر، فكان سعينا في تحقيقها سعي؛ لتحقيق ذكر الله تعالى كما في خطبة وصلاة الجمعة، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}[الجمعة:٩].

ونكون من الذاكرين لله تعالى والذاكرات بقدر تحقيق الذكر في حياتنا؛ لندخل تحت قوله تعالى: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[الأحزاب:٣٥].

وسئل الشيخ ابن الصلاح عن القدر الذي يصير به من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات فقال: إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحاً ومساء

في الأوقات والأحوال المختلفة ليلا ونهاراً، وهي مبينة في كتاب عمل اليوم والليلة كان الذاكرين الله كثيراً والذاكرات[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: المراد يذكرون الله في أدبار الصلوات وعشياً، وفي المضاجع، وكلما استيقظ من نومه، وكلّما غدا أو راح من منزله ذكر الله تعالى[2].

وقال مجاهد: لا يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجياً[3].

فكانت الآية محمولةً على المعنى الخاص للذكر في أقوال هؤلاء الأكابر، وهو ذكر اللسان، وهو أبرز الوسائل؛ لتحقيق الذكر العام الشامل لكل التصرفات والأحوال والأزمان، والذكر اللساني له صورٌ متعددةٌ من مقيد ومطلق، فيَشمل ألفاظ الثناء على الله تعالى والدعاء وغيرهما.

قال ابن عطاء[4]: «فذكر اللسان: هو ذكر الحروف بلا حضور، وهو الذكرُ الظَّاهر، وله فضلٌ عظيم شهدت به الآيات والأخبار والآثار، فمنه المقيَّد بالزَّمان أو بالمكان، ومنه المطلق.

---

(١) ينظر: الذكر والذاكرون ص١٥.

(٢) ينظر: الذكر والذاكرون ص١٥.

(٣) ينظر: الذكر والذاكرون ص١٦.

(٤) في مفتاح الفلاح ص١٣.

فالمقيدُ كالذِّكر في الصلاة وعقبها والحج، وقبل النوم وبعد اليقظة، وقبل الأكل وعند ركوب الدابة وطرفي النهار وغير ذلك.

والمطلقُ ما لا يتقيد بزمان ولا مكان، ولا وقت ولا حال، فمنه ما هو ثناء على الله كما في كل واحدة من هذه الكلمات، وهي سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومنه ما هو ذكر فيه دعاء، مثل: { رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِين} [البقرة:٢٨٦]، أو مناجاة، وكذلك اللهم صل على سيدنا محمد، وهو أشد تأثيراً في قلب المبتدئ من الذكر الذي لا يتضمن المناجاة؛ لأن المناجي يشعر بقرب من يناجيه، وهو مما يؤثر في قلبه، ويليسه الخشية.

ومنه ما هو ذكر فيه رعاية أو طلب دنيوي أو أخروي، والرعاية مثل قولك: الله معي، الله ناظر إلي، الله يراني، فإنه فيه رعاية المصلحة القلب، فإنه ذكر يستعمل لتقوية الحضور مع الله تعالى، وحفظ الأدب معه، والتحرز من الغفلة والاعتصام من الشيطان الرجيم وحضور القلب مع العبادات».

المطلب الثاني: الذكر والإخلاص:

تبيَّن مما سبق مدى الارتباط الوثيق بين الذكر والإخلاص؛ لأنّ ذكر لله تعالى في أقوالك وأفعالك معناه أن تكون مُستحضراً له تعالى فيها، فتكون مريداً وجهه الكريم، مخلصاً فيها له سبحانه.

وبالتالي يتحقَّق الذكر بقدر الإخلاص، فإن اختلط الإخلاص لله تعالىٰ بغيره من حظوض الدنيا، اختلط الذكر بغيره من هذه النوازع، ودخل صاحبه في غفلة، وهذا يقتضي أن نقف علىٰ شيء من الإخلاص وأقسامه؛ لأنها متحققة في الذكر.

«وإن كل شيء يتصور أن يشوبه شيء، فإذا صف عن شوبه سمُي خالصاً، ويُسمىٰ الفعل المصفىٰ إخلاصاً، وكل مَن أتىٰ بفعل اختياري خالصاً فلا بد له في ذلك الفعل من عرض، فمتىٰ كان في الفعل واحدا سمي ذلك الفعل إخلاصاً إلا أن العادة جرت بتخصيص الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلىٰ الله تعالىٰ عن جميع الشوائب، كما أن الإلحاد هو الميل، وخصَّصه العرف الميل عن الحق.

والباعث علىٰ الفعل إما روحاني فقط، وهو الإخلاص أو شيطاني فقط، وهو الرياء أو مركب منهم، والمركب اما أن يتساوا فيه الطرفان أو يكون الرَّوحاني أقوىٰ أو النَّفساني أقوىٰ، فتكون الأقسام الآتية:

١. إن كان الباعث روحانياً فقط، ولا يتصور إلا من محبِّ الله تعالىٰ مستغرق الهم به، بحيث لم يبق لحبّ الدنيا في قلبه مقرّ، فحينئذ تكشف جميع أفعاله وحركاته هذه الصفة فلا يقضي حاجته ولا يَنام ولا يحبّ الأكل والشرب مثلاً إلا لكونه إزالة ضرورة أو تقوية علىٰ الطاعة.

فمثل هـذا لو أكل أو شرب أو قضىٰ حاجته، فهدا خالص العمل في جميع حركاته وسكناته.

٢.إن كان الباعث نفسانياً، ولا يتصور إلا من محب للنفس والدنيا، مستغرق الهم بها حيث لم يبق لحبِّ الله تعالى في نفسه مقرّ، فاكتسبت جميع أفعاله هذه الصفة، فلا يَسلم له شيء من عباداته.

٣.أن يستوي فيه الباعثان، قال فخر الدين الرازي: الأظهر أنه ما يتعارضان ويتساقطان، فيصير العمل لا له ولا عليه.

٤.أن يكون أحد الطرفين فيه أغلب فيحبط منه ما يساوي الطرف الآخر، وتبقى الزيادة موجبة لأثرها اللائق، وهو المراد بقوله: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه}[الزلزلة:٨].

وتمام التحقيق فيه أنّ الأعمال لها تأثيرات في القلب، فإن خلا المؤثر عن المعارض خلا الأثر عن الضعف، وإن كان المؤثر مقروناً بالمعارض، فإن تساويا تساقطا، وإن كان أحدُهما أَغلب فلا بُدّ أن يحصل في الزائد بمقدار الناقص، فيحصل التّساوي بينهما أو يحصل التساقط، ويبقى القدر الزائد خالياً عن المعارض فيؤثر لا محالة أثراً ما.

وكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والدواء عن أثر في الجسد، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر عن أثر في التقرب من باب الله تعالى والتبعيد منه، وإذا جاء بما يقرِّبه شبراً مع ما يبعده شبراً، فقد

عاد إلى ما كان عليه لا له ولا عليه، وإن كان أحد الفعلين ما يقربه شبرين والفعل الثاني ما يبعده شبراً واحداً حصل لا محالة شبره»(١).

فهذا التفصيل متحقق في الذكر كما هو الحال في الإخلاص، والأصل أن لا يختلف في كل هذا.

المطلب الثالث: فضل الذكر وثمرته في القرآن والسنة:

لا يُمكن حصر الفضل الكبير والمكانة العالية للذكر، ولكن نشير في هذه الأسطر على شيء منها للتنبيه على غيرها، فمنها:

١. **حثّ الله تعالى عليه**، وترغيب الناس بفعله، والأمر بالإكثار منه، والاهتمام بدوامه صباحاً ومساءً، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً}[الأحزاب:٤٢].

٢. **نهي الله تعالى عن ضدِّ الذكر**، وهو الغفلة والنسيان من الإنسان في حياته، قال تعالى : {وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِين}[الأعراف:٢٠٥].

٣.تعليق الله سبحانه الفلاح في الدنيا والآخرة بقدر تحقق الذكر للمسلم؛ لأن الفلاح بالذكر، قال تعالى : {وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُون} [الأنفال:٤٥].

(١) ينظر: مفتاح الفلاح ص١٦ـ١٧.

٤. **وعد الله تعالى للمكثرين من الذكر بالمغفرة والأجر العظيم**، قال تعالى: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب:٣٥].

٥. **الغفلة عن ذكره هي الخسارة الحقيقة**، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[المنافقون:٩].

٦. **ذكر الله تعالى للذاكرين**، حيث علق سبحانه ذكر للإنسان بقدر ذكره لبربه، ولا شَكَّ أن ذكر الله تعالى لعبده منزلة عظيمة، فهنيئاً لمن بقي مذكوراً عند الله تعالى، قال تعالى : {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}[البقرة:١٥٢]، فلا يكون الذاكر ممن نسيه الله تعالى؛ لأنه نسيه، قال تعالى: { نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ}[التوبة:٦٧].

٧. **الذكر أعظم الأشياء وأكبرها**؛ لأنه السبيل للنجاة في الدنيا، فلا يتقدم عليه غيره، ولا يقارن به بالاهتمام والعناية غيره، قال تعالى : {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}[العنكبوت:٤٥].

٨. **الذكر شامل لكل حياة المسلم**، وليس خاصاً بالعبادات، وعلينا بعد الانتهاء من العبادة أن نبقى متذكرين لله تعالى بألسنتا وأفعالنا، قال تعالى: {وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة:١٨٥].

وقال تعالى : {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا}[البقرة:٢٠٠].

وقال تعالى : {{فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ}[النساء:١٠٣].

وقال تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[الجمعة:١٠].

٩. **التدبر والتفكر في آيات الله تعالى**، وفهم حكمة الوجود والخلق، بحيث يصبح كل ما حوله دالاً على الله تعالى، قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَاب. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار}[آل عمران:١٩١].

١٠. **المقصود من العبادات تحقيق الذكر**، فهي دورات قصيرة للتدرب على الذكر الدائم لله تعالى في حياة المسلم، قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}[طه:١٤].

١١. **الذكر أفضل الأعمال وخيرها وأزكاها وأرفعها عند الله تعالى**، حتى فاق درجته درجة الجهاد في سبيل الله، وهذا لأنه بلا ذكر لله تعالى لا نجاة للمسلم في الدار الدنيا، فعن أبي الدرداء قال ﷺ:«ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من

إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ، قالوا وما ذاك يا رسول الله قال : ذكر الله عز وجل»[١].

قال معاذ بن جبل ﷺ: «ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله»[٢].

وقال العز بن عبد السلام: «وإنما فضل الذكر على سائر الأعمال؛ لأنه مقصود في نفسه، ووسيلة إلى حصول الأحوال الناشئة عنه التي تنشأ عنها الاستقامة في الأقوال والأعمال ـ إلى أن قال ـ وذكر الجنان ـ أي القلب ـ أفضل من ذكر اللسان؛ لأنه منشأ الأحوال، وقد يحضر ذكر الصفات الموجبة للأحوال من غير قصد ولا تكلف استحضار، وذلك غالب من الأنبياء والأولياء وغلبته على الأنبياء أكثر منها على الأولياء»[٣].

١٢ .**الذاكرون هم أهل السبق،** فعن أبي هريرة ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة ، فمر على جبل يقال له: جمندان[١] فقال: سيروا هذا جمدان، سبق المفردون، قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

---

(١) في سنن الترمذي٥: ٤٥٩، ومسند أحمد٢: ١٢٤٥، ومسند أحمد٣٦: ٣٣، والمستدرك١: ٦٧٣، وصححه.

(٢) في سنن الترمذي٥: ٤٥٩،

(٣) ينظر: الذكر والذاكرون ص٢٧.

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: المستهترون في ذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافاً»(١).

وانفرد الرجل في رأيه: أي استقل وتحلى بتدبيره، والمراد به الذين تفردوا بذكر الله تعالى، والمستهتر بالشيء المولع به المواظب عليه عن حب ورغبة فيه(٢).

١٣. الذاكر يَنال شرف من يظلهم الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله، فيكون من السبعة الذين وعدوا بذلك، فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «ورجل ذكر الله خالياً، ففاضت عيناه»(٣).

١٤.الذكر يقوي الإيمان ويعالج ضعفه، الذي يكون سبباً لأمراض القلوب على اختلافها، فع أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «جَدِّدُوا إِيمانكم، قيل: يا رسول الله، وكيف نجدد إيماننا؟ قال: أكثروا من قول: لا إلهَ إلا الله»(٤).

---

(١) في سنن الترمذي ٥: ٥٧٧، وحسنه.

(٢) ينظر: مفتاح الفلاح ص٩.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٦٢٩ ومسلم رقم ١٠٣١.

(٤) حديث حسن، أخرجه أحمد رقم ٨٦٩٥ والحاكم رقم ٧٦٥٧ وصححه، عن أبي هريرة ﵁.

١٥. لا حياة إلا بالذكر، ومَن لم يعش الذكر ليس من الأحياء حكماً، فعن أبي موسىٰ رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه، مثل الحي والميت»[1].

١٦. تحقق الطمأنينة بالذكر لله تعالى، وبها يحقق السعادة والراحة، فكان الذكر سبيلاً لذلك، قال تعالىٰ: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب}[الرعد:٢٨].

١٧. فتح أبواب السموات والرحمة والخير للذاكرين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «ما قال عبد: لا إله إلا الله، مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتىٰ تفضي إلىٰ العرش ما اجتنبت الكبائر»[2].

١٨. كتابة الأجر العظيم لمن يخالف أماكن الفسق بذكر الله تعالى، فعادة يكثر الفسق والمعاصي في الأسواق، فإن أعرض عنها بذكر الله تعالىٰ نال الثواب الكبير، فعن عمر رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «من دخل السوق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو علىٰ كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة»[3].

---

(١) في صحيح مسلم١: ٥٣٩.

(٢) في سنن النسائي الكبرىٰ٩: ٣٠٧،

(٣) في سنن الترمذي٥: ٤٩١، ومسند أحمد١: ٤١٠.

١٩. **الذكر أفضل غنيمةً وأيسرها**، وهو مقدَّمٌ على غنيمةِ المال؛ لأنّ به الانتفاع الحقيقي لصاحبه، فعن عمر رضي الله عنه: «أنّ النبي ﷺ بعث بعثاً قبل نجد فغنموا غنائم كثيرة وأسرعوا الرجعة، فقال رجل ممن لم يخرج: ما رأينا بعثاً أسرع رجعة ولا أفضل غنيمةً من هذا البعث، فقال ﷺ: ألا أدلكم على قوم أفضل غنيمة وأسرع رجعة؟ قوم شهدوا صلاة الصبح ثم جلسوا يذكرون الله حتى طلعت الشمس فأولئك أسرع رجعة وأفضل غنيمة»(١).

٢٠.**الذكر جامع لشرئع الإسلام**، وفيه غنى لمن يلتزمه؛ لأن العبادات شرعت من أجل تحقيقه، فعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه: إن رجلاً قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»(٢).

٢١. **الذاكر تنكشف له الغيبات ويطلع على حقائق الكون**؛ لما وصل إليه من الصفاء والنقاء، فعن حنظلة الأسد رضي الله عنه، قال ﷺ: «لو تدومون على ما أنتم عليه عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي الطرقات»(٣).

٢٢. **تيسير الحياة وتفريج الكرب وإزالة الغم وبسط الرزق** وغيرها من الخيرات هي نصيب الذاكرين؛ لوعد الله تعالى لهم بالغنى عن المسألة، وفي

---

(١) في سنن الترمذي٥: ٥٥٩.

(٢) في سنن الترمذي٥: ٤٥٧، وحسنه، وصحيح ابن حبان٣: ٩٦.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٧٥٠.

المسألة يكون السؤال بهذه الخيرات، فعن أبي سعيد ﷺ، قال ﷺ: «مَن شغله قراءة القرآن وذكري عن مسألتي؛ أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[1].

٢٣. الذكر يحقق الوجل والخشية للقلب؛ لتعلقه بخالقه وخوفه ورجائه منه سبحانه، قال تعالىٰ: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} [الحج:٣٥].

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٩٢٦ عن أبي سعيد وقال: حسن غريب. وتتمته: «وفضل كلام الله علىٰ سائر الكلام كفضل الله علىٰ خلقه».

المبحث الثاني
أسرار الصَّلاة

ليس بحثنا في الصلاة متعلق بالجانب الفقهي من الأحكام؛ لأنها له علمه الخاص به، وإنما نشير هاهنا لمعاني تربوية وتزكوية في الصلاة، ولا شكّ أنها هذا هو المقصد الأسمى من إقامة الصلاة.

فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «أَرأَيْتُم لو أَنَّ نَهْراً بِباب أحدِكم يغْتَسِلُ منه كل يوم خمس مرَّاتٍ، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلكَ مثل الصَّلَواتِ الخمس، يمْحُو الله بهِنَّ الخطَايا»(١).

فانظر كيف أنها تطهر وتزكي صاحبه من شوائب الحياة وآثامها، بل إن صلاح الأعمال كلها متوقفٌ على صلاح الصلاة؛ لأن تحقيقها على أكمل ما يكون يكون له أثر الوضح في إصلاح سلوك الإنسان.

فعن عبد الله بن قرط ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاةُ، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله»(١).

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٠٥، ومسلم رقم ٦٦٧.

فالصلاة مطهر للنفوس ومكفرة للذنوي متىٰ أديت بحقها، فعن عثمان بن عفان ﷺ، قال ﷺ: «ما من امْرِيءٍ مسلم تحضُرُه صلاةٌ مكتُوبةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا، وخُشوعَها، ورُكُوعَها، إلاَّ كانت كفَّارةً لما قبلها من الذنُوبِ ما لم تُؤْتَ كبيرةٌ، وذلك الدَّهْرَ كلَّهُ»(٢).

ومتىٰ تطهر المسلم نال المغفرة والرضوان وسكن الجنان، فعن ربيعة بن كعب الأسلمي ﷺ قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوَضوئه وحاجته، فقال لي: سل، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: أوَ غيرَ ذلك؟ قلت: هو ذاك، قال: فأَعِنِّي علىٰ **نفسك** بكثرة السجود»(٣).

وفي هذا المبحث نعرض لمطالب في طهارة الظاهر والباطن والخشوع وحضور القلب والمعاني الباطنة للصلاة والدواء النافع في حضور القلب وكيفية حضور القلب وأثر الصلاة علىٰ الحياة والنوافل من الصلوات علىٰ النحو الآتي:

المطلب الأول: طهارة الظاهر والباطن:

أَمرنا الله تعالىٰ بطهارة الظاهر في الوضوء والغُسل وإزالة النجاسة؛ ليكون الاستعداد لأداء العبادات من صلاة وغيرها؛ ليتحقق حقيقة الذكر المقصود فيها، حتىٰ إن فقدنا الماء أَمكننا التطهر بالتيمم، فلم تجز الصلاة بغير

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم ١٨٥٩.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٢٨، عن عثمانَ بنِ عفان ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٤٨٩.

طهارة إلا لضرورة، فدلّ على أن أمر الطهارة ذات أهمية بالغة عند الشارع الحكيم، حتى جعلها نصف الإيمان، فعن أبي مالك الأشعري ﵁، قال ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»[١]، لما لها من الأثر في الإيمان من الاستعداد والتهيؤ له.

وهذا كلُّه متعلِّق بالطهارة الحقيقة ومحلُّ بحثها في الفقه.

وأما الطهارة الحكمية، فلها ثلاث مراتب:

١. تطهير الجوارح عن الآثام، فعن أبي أمامة الحمصي ﵁، قال ﷺ: «إن الوضوء يكفر ما قبله، ثم تصير الصلاة نافلة»[٢].

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب»[٣].

وعن عثمان بن عفان ﵁، قال: «لا يتوضأ رجل مسلم فيحسن الوضوء، فيصلي صلاة؛ إلا غفر الله له ما بينه وبين الصلاة التي تليها»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٢٣.

(٢) في مسند أحمد٣٦: ٥٩٠، ومسند أبي داود٢: ٤٥١.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٤٤.

(٤) أخرجه مسلم رقم ٢٢٧.

٢. تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرَّذائل الممقُوتة، فالغاية القصوىٰ عمارته بالأخلاق المحمودة والعقائد المشروعة ولن يتصف بها ما لم ينظف عن نقائضها من العقائد الفاسدة والرذائل الممقوتة.

فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات، قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء علىٰ المكاره، وكثرة الخطا إلىٰ المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فذلكم الرباط»(١).

٣. تطهير السِّرِّ عَمَّا سوىٰ الله تعالىٰ، وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصديقين، فإن الغاية القصوىٰ في عمل السرّ أن ينكشف له جلال الله تعالىٰ وعظمته ولن تحلّ معرفة الله تعالىٰ بالحقيقة في السرّ ما لم يرتحل ما سوىٰ الله تعالىٰ عنه، ولذلك قال تعالىٰ: {قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ}[الأنعام:٩١]؛ لأنهما لا يجتمعان في قلب، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه(٢).

وأمرنا بالطهارة الحقيقة؛ لأنها تنفذ للطهارة الحكمية، ومما يُساعد علىٰ ذلك أداؤها بفرائضها وسننها وآدابها كما هو مفصلٌ في الفقه، فهذا يُحقِّقُ الذكر الدائم لله تعالىٰ.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥١.

(٢) ينظر: الإحياء١: ١٢٦.

وهذا الذكر يحتاج إلى طهارة مستمرة؛ ليبقى الاستعداد النفسي للذكر، وقد استحبَّ الفقهاء أن يبقى المسلم على طهارة دائماً، بل استحبوا الوضوء على الوضوء؛ لأنها نور على نور[1]؛ لما فيه من التهيؤ للذكر، فعن ثوبان ﵁، قال ﷺ: «ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[2].

بل رغبوا بالوضوء عند الخلود للنوم، حتى تبقى لحظات المسلم على طهارة واستعداد للمناجاة الخالق، فعن أبي أمامة الباهلي ﵁، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أوى إلى فراشه طاهراً يذكر الله حتى يدركه النعاس لم ينقلب ساعة من الليل يسأل الله شيئاً من خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه»[3].

وعن ابن عمر ﵄، قال ﷺ: «مَن باتَ طاهِرًا باتَ فِي شِعاره أي غطائه ـ مَلَكٌ، فلم يستيقظْ إلا قال المَلَكُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لعبدك فلان، فإنَّه باتَ طاهِرًا»[4].

---

(١) اشتهر بأنه حديث، وقد ذكره في الإحياء وقال مخرجه العراقي: لم أقف عليه، وسبقه لذلك المنذري، وقال الحافظ ابن حجر: حديث ضعيف، ورواه رزين في مسنده، كما في كشف الخفاء ر٢٨٩٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢٢٤٣٢ وابن حبان ١٠٣٧والحاكم رقم ٤٤٨ ومالك رقم ٦٦، وابن ماجه ٢٧٧-٢٧٩.

(٣) في سنن الترمذي٥: ٥٤٠، وحسنه.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم ١٠٥١، الطبراني في المعجم الأوسط ٥٠٨٧.

وأداء الأذكار للوضوء معينٌ على تحقيق هذا المقصود من تعليق القلب بالله تعالى بعد أن يؤدِّي الوضوء بكماله، فعن عمر رضي الله عنه، قال ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»[1].

وعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه، «إن رسول الله ﷺ قال فذكر مثله غير أنه قال: مَن توضّأ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً عبدُه ورسولُه»[2].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَن توضأ فقال: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله الا أنت أستغفرك وأتوب إليك، كتب في رقّ، ثمّ طُبِع بطابع فلم يُكسر إلى يوم القيامة»[3].

فهذه الأحاديث تشتمل على حثٍّ شديدة وترغيب عظيم في فضل ذكر الأذكار بعد الوضوء، وقد فهم منها السلف ومن غيرها من أدلة الذكر استحباب أداء أذكار في أثناء الوضوء؛ لما فيها من النفع بتحقق الذكر الدائم لدى المسلم.

---

(١) في صحيح مسلم ١: ٢٠٩، وسنن أبي داود ١: ٩١، وغيرها.

(٢) في صحيح مسلم ١: ٢١٠.

(٣) في سنن النسائي ٦: ٢٥، والمستدرك ١: ٧٥٢، وصححه، وشعب الإيمان ٣: ٢١.

قال النووي(١): «وأما الدعاء على أعضاء الوضوء فلم يجيء عن النبي ﷺ(٢)»، وقد قال الفقهاء: يستحب دعوات جاءت عن السلف، وزادوا ونقصوا فيها... ثم ذكر شيئاً من هذه الأدعية، ومما يقال:

وعند المضمضة: اللهم أعني على تلاوة القرآن وذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

وعند الاستنشاق: اللهم أرحني رائحة الجنة، ولا ترحني رائحة النار.

وعند غسل وجهه: اللهم بيِّض وجهي يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

وعند غسل يده اليمنى: اللهم أعطني كتابي بيميني، وحاسبني حساباً يسيراً.

وعند غسل اليسرى: اللهم لا تعطني كتابي بشمالي، ولا من وراء ظهري.

---

(١) في الأذكار ص١١٧ – ١١٨.

(٢) قال ابنُ أمير حاج: سئل شيخنا حافظ عصره شهاب الدين ابن حجر العسقلاني عن الأحاديث التي ذكرت في مقدمة أبي الليث في أدعية الأعضاء، فأجاب: بأنها ضعيفة والعلماء يتساهلون في ذكر الحديث الضعيف والعمل به في الفضائل، ولم يثبت منها شيء عن رسول الله ﷺ لا من قوله ولا من فعله، اهـ، وطرقُها كلُّها لا تخلو عن متهم بوضع، ونسبة هذه الأدعية إلى السلف الصالح أولى من نسبتها إلى رسول الله ﷺ حذراً من الوقوع في مصداق: «مَن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، قال الهندي وغيره: ولم يثبت منه إلا الشهادتان بعد الفراغ منه، كما في الطحطاوي ١: ١١٧.

وعند مسح رأسه: اللهم أظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظل عرشك.

وعند مسح أذنيه: اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وعند مسح عنقه: اللهم أعتق رقبتي من النار.

وعند غسل قدمه اليمنىٰ: اللهم ثبت قدمي علىٰ الصراط يوم تزل الأقدام.

وعند غسل رجله اليسرىٰ: اللهم اجعل ذنبي مغفوراً وسعيي مشكوراً وتجارتي لن تبور».

المطلب الثاني: الخشوع وحضور القلب:

أولاً: معنى الخشوع:

الخشوع لغة: من خَشَع يَخْشَعُ خُشوعاً، واخْتَشَع وتَخَشَّعَ: رَمَىٰ بِبَصَرِهِ نحو الأَرض وغَضَّه وخفَضَ صَوْتَهُ، واخْتشعَ إِذا طَأْطأَ صَدْرَه وتواضَعَ، وقيل: الخُشوع قَرِيبٌ من الخُضوع إِلا أَنّ الخُضوع في البَدَن، والخُشوعَ في البدَن والصوْت والبَصرِ: كقوله تعالىٰ: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُم} [القلم: ٤٣](١)، والخشوعُ: السُّكون والتَّذلُّل(٢).

(١) ينظر: اللسان٨: ٧١.

(٢) ينظر: القاموس١: ٧١٣.

واصطلاحاً: كثُرت العبارات في بيان أوصافه، ومنها:

قال ابن رجب: «وأصل الخشوع: هو لين القلب ورقته، وسكونه، وخضوعه، وانكسارُه، وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنَّها تابعة له، كما قال النبي ﷺ: «... ألاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ»[1].

والخشوع: خمودُ نيران الشَّهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم في القلب، واستحضار عظمة الله وهيبته وجلاله.

قال الجنيد: الخشوع: تذلُّل القلوب لعلام الغيوب.

والقلبُ أمير البدن، فإذا خَشَعَ القلب، خشع السَّمع والبصر والوجه وسائر الأعضاء وما ينشأ عنها، حتى الكلام.

والخشوع يقظةٌ دائمةٌ لخلَجَات القلب وخفقاته ولفتاته حتى لا يتبلَّد، وحذَرٌ من هواجسه ووساوسه، واحتياط من سهواته وغفلاته ودفعاته، خشية أن يزيغ وتعتريه القسوة[2].

---

(١) في صحيح البخاري١: ٢٠، وصحيح مسلم٣: ١٢١٩، وغيرهما.

(٢) ينظر: الخشوع للقحطاني ص١٢، وكيف تخشعين في الصلاة ص٣، والخشوع للصباغ ص١٦، وفصل الخطاب ص٨: ٤٢٠.

ويُلاحظ أنَّ الخشوع على صورتين: في الصلاة وخارجها، وما يكون منه في الصلاة طريق لتحقيقه في خارجها، والعكس بالعكس.

ويمكن تعريف خشوع الصلاة: **هو سكون القلب لله تعالى وتعلُّقه به دون سواه.**

وخشوع خارج الصلاة: **خضوع الجوارح لأوامر الله في أقوالها وأفعالها مع الإخلاص والتَّذلُّل له دون سواه.**

ثانياً: استحباب الخشوع في الصلاة:

إن أدلة الخشوع كثيرة، فمن ذلك قوله تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي}[طه:١٤]، وظاهر الأمر الوجوب، والغفلة تضادُّ الذكر فمَن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيماً للصلاة لذكره، لكن ذكر الفقهاء استحباب الخشوع؛ لعدم القدرة عليه من عامة المسلمين إلا بعد مجاهدة مديدة.

وقوله تعالى: {وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ}[الأعراف:٢٠٥] نهي وظاهره التحريم.

وقوله تعالى: {حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ}[النساء:٤٣] تعليل لنهي السكران، وهو مطرد في الغافل المستغرق الهم بالوسواس وأفكار الدنيا.

فعن أنس ﵁، قال ﷺ: «المصلي يناجي ربه»(١)، فلا يكون مناجياً بلا خشوع وخضوع.

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «ربَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر»(٢)، وهذا بسبب عدم حقّ صلاته بخشوعها.

وعن عمار بن ياسر ﵁، قال ﷺ: «إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها»(٣)، فلم ينل إلا جزءاً يسيراً من الصلاة بسبب تفويت الخشوع، فلا يكون لها من الصلاة إلا ما خشع به.

أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود، فأما الذكر فإنه مجاورة ومناجاة مع الله عز وجل.

ولا شك أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء، والمخاطب هو الله عز وجل، وقلبه بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده، بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة، فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيل القلب،

---

(١) متفق عليه، كما في المغني ١: ١٥٩.

(٢) أخرجه النسائي، ولأحمد: «رب قائم حظه من صلاته السهر»، وإسناده حسن، كما في المغني ١: ١٥٩.

(٣) أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان، كما في المغني ١: ١٥٩.

وتجديد ذكر الله عز وجل ورسوخ عقد الإيمان به هذا حكم القراءة والذكر(١).

المطلب الثالث: المعاني الباطنة للصلاة:

إن هذه المعاني تكثر العبارات عنها، ولكن يجمعها ست جمل:

١. **حضور القلب**: وهو أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به، فيكون العلم بالفعل والقول مقروناً بهما، ولا يكون الفكر جائلاً في غيرهما، ومهما انصرف في الفكر عن غير ما هو فيه، وكان في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء، فقد حصل حضور القلب.

وإن حضور القلب سببه الهمة، فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهمك، ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى، فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلاً، بل جائلاً فيما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها، وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى، وأن الصلاة وسيلة إليها.

فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهماتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة، وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا

---

(١) ينظر: الإحياء١: ١٩٠.

حضرت بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على مضرتك ومنفعتك، فإذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت والنفع والضر، فلا تظنن أنّ له سبباً سوى ضعف الإيمان فاجتهد الآن في تقوية الإيمان وطريقه يستقصى في غير هذا الموضع.

٢.**التفهم**: وهو معنى الكلام أمر وراء حضور القلب، فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع معنى اللفظ، فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردناه بالتفهم.

وهذا مقام يتفاوت الناس فيه إذ ليس يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتسبيحات، وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله، ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإنها تفهم أموراً تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا محالة.

وسبب التفهم بعد حضور القلب إدمان الفكر، وصرف الذهن إلى إدراك المعنى، وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر، والتشمر لدفع الخواطر، وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها، وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر، فمن أحب شيئاً أكثر ذكره، فذكر المحبوب يهجم على القلب بضرورة؛ لذلك ترى أن من أحب غير الله لا تصفو له صلاة عن الخواطر.

٣.**التعظيم**: وهو أمر وراء حضور القلب والفهم إذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه، ولا يكون معظماً له، فالتعظيم زائد عليهما.

والتعظيم حالة للقلب تتولد من معرفتين:

أ. معرفة جلال الله تعالىٰ وعظمته، وهو من أصول الإيمان، فإن مَن لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه.

ب. معرفة حقارة النفس وخستها وكونها عبداً مسخراً مربوباً.

فتتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه، فيعبر عنه بالتعظيم وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع، فإن المستغني عن غيره الآمن علىٰ نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة، ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله؛ لأنّ القرينة الأخرىٰ، وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه.

٤.**الهيبة**: وهي زائدة علىٰ التعظيم بل هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم؛ لأن من لا يخاف لا يُسمىٰ هائباً، والمخافة من العقرب وسوء خلق العبد وما يجري مجراه من الأسباب الخسيسة لا تسمىٰ مهابة، بل الخوف من السلطان المعظم يسمىٰ مهابة والهيبة خوف مصدرها الإجلال.

والهيبة والخوف حالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة، هذا مع مطالعة ما يجري علىٰ الأنبياء والأولياء من

المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف ما يشاهد من ملوك الأرض، وبالجملة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة.

٥. **الرجاء**: وهو لا شك أنه زائد، فكم من معظم ملكاً من الملوك يهابه أو يخاف سطوته، ولكن لا يرجو مثوبته، والعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله عز وجل، كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عز وجل.

والرجاء سببه معرفة لطف الله تعالى وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة، فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لا محالة.

٦. **الحياء**: وهو زائد على الجملة؛ لأن مستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ويتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب.

وسبب الحياء استشعاره التقصير في العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عز وجل، ويقوي ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها، وقلة إخلاصها وخبث دخلتها وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله تعالى، والعلم بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت، وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعث منها بالضرورة حالة تُسمّى الحياء.

ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان واليقين، ومعنى كونها يقيناً انتفاء الشك واستيلاؤها على القلب، وبقدر اليقين يخشع القلب(١).

المطلب الرابع: الدواء النافع في حضور القلب:

إن المؤمن لا بُدّ أن يكون معظماً لله عز وجل وخائفاً منه وراجياً له ومستحيياً من تقصيره، فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه وإن كانت قوتها بقدر قوة يقينه، فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفرق الفكر وتقسيم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة.

ولا يلهي عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة، فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه، وسبب موارد الخواطر، إما أن يكون أمراً خارجاً أو أمراً في ذاته باطناً.

أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر، فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه، ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل ويكون الإبصار سبباً للافتكار ثم تصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض، ومن قويت نيته وعلَّت همته لم يلهه ما جرى على حواسه، ولكن الضعيف لا بُدّ وأن يتفرق به فكره.

وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره أو يصلي في بيت مظلم أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه، ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا

---

(١) ينظر: الإحياء١: ١٦٠ـ ١٦٣.

تتسع مسافة بصره ويحترز من الصلاة على الشوارع، وفي المواضع المنقوشة المصنوعة، وعلى الفرش المصبوغة.

وأما الأسباب الباطنة فهي أشدُّ، فإن من تشعبت به الهموم في أودية الدنيا لا ينحصر فكره في فنٍّ واحد بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب وغض البصر لا يغنيه، فإن ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل، فهذا طريقه أن يرد النفس قهراً إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة ويشغلها به عن غيره ويعينه على ذلك أن يستعدّ له قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدي الله سبحانه، وهو المطلع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه، فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره.

فإن كان لا يسكن هوائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه إلا المسهل الذي يقمع مادة الداء من أعماق العروق، وهو أن ينظر في الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب، ولا شك أنها تعود إلى مهماته، وأنها إنما صارت مهمات لشهواته، فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق، فكل ما يُشغله عن صلاته، فهو ضد دينه وجند إبليس عدوه، فإمساكه أضر عليه من إخراجه، فيتخلص منه بإخراجه.

فعن أبي النضر رضي الله عنه: «أمره ﷺ بنزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق؛ إذ نظر إليه في صلاته»[1].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد مرسلاً بإسناد صحيح، كما في المغني ١: ١٦٤.

وعن ابن عباس ﵄: «رمي ﷺ بالخاتم من يده، وقال: شغلني هذا، نظرة إليه ونظرة إليكم»(١).

فكانوا يفعلون ذلك قطعاً لمادة الفكر وكفارة؛ لما جرى من نقصان الصلاة، وهذا هو الدواء القاطع لمادة العلة ولا يغني غيره.

وأما التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر، فذلك ينفع في الشهوات الضعيفة والهمم التي لا تشغل إلا حواشي القلب، فأما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين، بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك وتنقضي جميع صلاتك في شغل المجاذبة.

فكذلك الخواطر، وهذه الشهوات كثيرة، وقلما يخلو العبد عنها، ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان، ومنبع كل فساد، ومن انطوى باطنه على حب الدنيا، حتى مال إلى شيء منها لا ليتزود منها ولا ليستعين بها على الآخرة، فلا يطمعن في أن تصفو له لذة المناجاة في الصلاة.

فإن من فرح بالدنيا لا يفرح بالله سبحانه وبمناجاته، وهمة الرجل مع قرة عينه فإن كانت قرة عينه في الدنيا انصرف لا محالة إليها همه، ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة، فهذا هو الدواء المرّ، ولمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة، وصار الداء عضالاً حتى إن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا

---

(١) أخرجه النسائي بإسناد صحيح، كما في المغني ١: ١٦٤.

يحدثوا أنفسهم فيها بأمور الدنيا، فعجزوا عن ذلك، فإذن لا مطمع فيه لأمثالنا، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس؛ لنكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح مملوء بخل، فبقدر ما ندخل فيه من الماء يخرج منه من الخل لا محالة، ولا يجتمعان(١).

المطلب الخامس: كيفية حضور القلب:

من أجل حضور القلب عند أفعال الصلاة يحتاج المسلم إلى المجاهدة والاستحضار لمعاني معيَّنة يكون لها الأثر البالغ في تحقيق المقصود، وهي كما أفادها الغزالي على النحو الآتي

١. **الأذان**: فإذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة وتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة، فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر، فاعرض قلبك على هذا النداء، فإن وجدته مملوءاً بالفرح والاستبشار مشحوناً بالرغبة إلى الابتدار فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء.

فعن بلال ﵁: قال ﷺ: أرحنا بها يا بلال»(٢): أي أرحنا بها وبالنداء إليها؛ إذ كان قرة عينه فيها ﷺ.

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين ١: ٧٨.

(٢) أخرجه الدارقطني في العلل، ولأبي داود نحوه بإسناد صحيح، كما في المغني ١: ١٦٥.

٢. **الطهارة**؛ فلا تغفل عن لبك الذي هو ذاتك، وهو قلبك، فاجتهد له تطهيراً بالتوبة والندم على ما فرطت وتصميم العزم على الترك في المستقبل، فطهر بها باطنك، فإنه موضع نظر معبودك.

٣. **ستر العورة**؛ فمعناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق، فإن ظاهر بدنك مرتع لنظر الخلق، فما بالك في عورات باطنك وفضائح سرائرك التي لا يطلع عليها إلا ربك تعالى، فأحضر تلك الفضائح ببالك وطالب نفسك بسترها، وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه ساتر، وإنما يغفرها الندم والحياء والخوف، فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكامنهما، فتذل بها بنفسك ويستكين تحت الخجلة قلبك، وتقوم بين يدي الله تعالى قيام العبد المجرم المسيء الآبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف.

٤. **الاستقبال**؛ فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى، أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله تعالى ليس مطلوباً منك، هيهات فلا مطلوب سواه، وإنما هذه الظواهر تحريكات للبواطن، وضبط للجوارح وتسكين لها بالإثبات في جهة واحدة، حتى لا تبغي على القلب، فإنها إذا بغت وظلمت في حركاتها والتفاتها إلى جهاتها استتبعت القلب وانقلبت به عن وجه الله تعالى، فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك.

ولا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها، فلا ينصرف القلب إلى الله تعالى إلا بالتفرغ عما سواه.

٥. **الاعتدال قائماً**؛ وهو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله تعالى، فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقاً مطأطئاً متنكساً، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهاً على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبري عن الترؤس والتكبر، وليكن على ذكرك ههنا خطر القيام بين يدي الله تعالى في هول المطلع عند العرض للسؤال.

واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله تعالى، وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله، بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع، وإذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين، فعاتب نفسك وقل لها: إنك تدعين معرفة الله وحبه أفلا تستحين من استجرائك عليه مع توقيرك عبداً من عباده أو تخشين الناس ولا تخشينه، وهو أحق أن يخشى.

٦. **النية**؛ فاعزم على إجابة الله تعالى في امتثال أمره بالصلاة وإتمامها والكف عن نواقضها ومفسداتها، وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه رجاء لثوابه، وخوفاً من عقابه، وطلباً للقربة منه متقلداً للمنة منه بإذنه إياك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك، وعظم في نفسك قدر مناجاته، وانظر مَن تناجي وكيف تناجي، وبماذا تناجي، وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة، ويصفر وجهك من الخوف.

٧. **التكبير**؛ فإذا نطق به لسانك، فينبغي أن لا يكذبه قلبك، فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه، فالله يشهد إنك لكاذب، وإن كان الكلام صدقاً كما شهد على المنافقين في قولهم: أنه ﷺ رسول الله، فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله تعالى، فأنت أطوع له منك لله تعالى، فقد اتخذته إلهك وكبرته، فيوشك أن يكون قولك: الله أكبر كلاماً باللسان المجرد، وقد تخلف القلب عن مساعدته، وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه.

٨. **دعاء الاستفتاح**؛ فعند قولك: سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعال جدك ولا إله غيرك، فعليك أن تستحضر معانيها من التنزيه الكامل لله والحمد التام له سبحانه، والتعالي الرفيع الذي يليق بالمولى تعالى، فحقٌّ علينا أن من كان هذا حاله لا ننشغل عنه في صلاتنا؛ لمخالفته حمده وتنزيه، وهذا ما يوصلنا أنه لا معبود بحقّ سواه.

٩.**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**؛ فاعلم أنه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله تعالى حسداً لك على مناجاتك مع الله تعالى، وسجودك له مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها، وأن استعاذتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه، وتبديله بما يحب الله تعالى لا بمجرد قولك، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله تعالى عن شر الشيطان، وحصنه لا إله إلا الله.

والمتحصن به لا معبود له سوى الله سبحانه، فأما من اتخذ إلهه هواه، فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله تعالى.

ومكايده أن يشغلك في صلاتك بذكر الآخرة، وتدبير فعل الخيرات؛ ليمنعك عن فهم ما تقرأ، فكل ما يشغلك عن فهم معاني قراءتك، فهو وسواس، فإن حركة اللسان غير مقصودة، بل المقصود معانيها.

١٠. **القراءة**؛ فالناس فيها ثلاثة:

أ. رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل.

ب. رجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان، فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره، وهي درجات أصحاب اليمين.

ج. رجل يسبق قلبه إلى المعاني أولاً، ثم يخدم اللسان القلب، فيترجمه، ففرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب، والمقربون لسانهم ترجمان يتبع القلب، ولا يتبعه القلب.

وتفصيل ترجمة المعاني أنك إذا قلت: بسم الله الرحمن الرحيم فانو به التبرك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه، وافهم أن الأمور كلها بالله سبحانه، وأن المراد بالاسم ههنا هو المسمى، وإذا كانت الأمور بالله سبحانه، فلا جرم كان الحمد لله، ومعناه أن الشكر لله؛ إذ النعم من الله، ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله عز وجل، ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله تعالى.

فإذا قلت: الرحمن الرحيم فأحضر في قلبك جميع أنواع لطفه؛ لتتضح لك رحمته، فينبعث بها رجاؤك، ثم استثر من قلبك التعظيم والخوف

بقولك: مالك يوم الدين، أما العظمة فلأنه لا ملك إلا له، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه، ثم جدد الإخلاص بقولك: إياك نعبد، وجدد العجز والاحتياج والتبري من الحول والقوة بقولك: وإياك نستعين، وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإعانته، وأن له المنة؛ إذ وفقك لطاعته واستخدمك لعبادته وجعلك أهلاً لمناجاته، ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين.

ثم إذا فرغت من التعوذ ،ومن قولك: بسم الله الرحمن الرحيم، ومن التحميد، ومن إظهار الحاجة إلىٰ الإعانة مطلقاً، فعين سؤالك ولا تطلب إلا أهم حاجاتك، وقل: اهدنا الصراط المستقيم الذي يسوقنا إلىٰ جوارك، ويفضي بنا إلىٰ مرضاتك وزده شرحاً وتفصيلاً وتأكيداً واستشهاداً بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارىٰ والصابئين.

ثم التمس الإجابة، وقل: آمين، فإذا تلوت الفاتحة كذلك، فيشبه ما ورد في حديث أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «قال تعالىٰ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»[1].

فلو لم يكن لك من صلاتك حظ سوىٰ ذكر الله لك في جلاله وعظمته، فناهيك بذلك غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله.

---

(١) أخرجه مسلم ١: ١٦٨.

وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرؤه من السور، فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده.

وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم، ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب، ودرجات ذلك لا تنحصر.

والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات، فهذا حق القراءة، وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضاً.

ثم يراعي الهيبة في القراءة، فيرتل ولا يسرد، فإن ذلك أيسر للتأمل، ويفرق بين نغماته في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم والتمجيد، فعن ابن عمر ﷺ، قال ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق»[1].

١١.دوام القيام؛ فإنه تنبيه على إقامة القلب مع الله تعالى على نعت واحد من الحضور، فعن أبي ذر ﷺ، قال ﷺ: «إن الله يقبل على المصلي ما لم يلتفت»[2].

وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات، فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة، فإذا التفت إلى غيره فذكره باطلاع الله عليه وبقبح التهاون بالمناجى عند غفلة المناجي ليعود إليه،

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن صحيح، كما في المغني١: ١٦٨.

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصحح إسناده، كما في المغني١: ١٦٨.

وألزم لخشوع القلب، فإن الخلاص عن الالتفات باطناً وظاهراً ثمرة الخشوع.

ومهما خشع الباطن خشع الظاهر، فعن سعيد بن المسيب: لو خشع قلبه لخشعت جوارحه.

١٢. **الركوع والسجود**؛ فينبغي أن تجدد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه، وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك، وتستشعر ذلك وعزّ مولاك واتضاعك وعلوّ ربك، وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك، فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة، وأنه أعظم من كلِّ عظيم، وتكرر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار، ثم ترتفع من ركوعك راجياً أنه راحم لك ومؤكداً للرجاء في نفسك بقولك: سمع الله لمن حمده: أي أجاب لمن شكره، ثم تردف ذلك الشكر المتقاضي للمزيد فتقول: ربنا لك الحمد، ثم تهوي إلى السجود، وهو أعلى درجات الاستكانة، فتمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء، وهو التراب وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلاً، فتسجد على الأرض فافعل، فإنه أجلب للخشوع وأدل على الذل.

وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله، فإنك من التراب خلقت وإليه تعود، فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله، وقل: سبحان ربي الأعلى وأكده بالتكرار، فإن الكرة الواحدة ضعيفة الأثر، فإذا رقَّ قلبك وظهر ذلك، فلتصدق رجاءك في رحمة الله، فإن رحمتَه تتسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر، فارفع رأسك مكبراً وسائلاً حاجتك وقائلاً: رب اغفر وارحم، وتجاوز عما

تعلم أو ما أردت من الدعاء، ثم أكد التواضع بالتكرار، فعد إلى السجود ثانياً كذلك.

١٣. **التَّشهد**؛ فإذا جلست له فاجلس متأدباً، وصرح بأن جميع ما تدلي به من الصَّلوات والطيبات: أي من الأخلاق الطاهرة لله تعالى.

وكذلك الملك لله تعالى، وهو معنى التحيات، وأحضر في قلبك النبي ﷺ وشخصه الكريم وقل: سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وليصدق أملك في أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوفى منه، ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين، ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاماً وافياً بعدد عباده الصالحين.

ثم تشهد له تعالى بالوحدانية، ولمحمد نبيه ﷺ بالرسالة مجدداً عهد الله سبحانه بإعادة كلمتي الشهادة، ومستأنفاً للتحصن بها، ثم ادع في آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالإجابة، وأشرك في دعائك أبويك وسائر المؤمنين، واقصد عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين وانو ختم الصلاة به، واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة، وتوهم أنك مودع لصلاتك هذه وأنك ربما لا تعيش لمثلها، ثم أشعر قلبك الوجل والحياء من التقصير في الصلاة، وخف أن لا تقبل صلاتك، وأن تكون ممقوتاً بذنب ظاهر أو باطن، فترد صلاتك في وجهك وترجو مع ذلك أن يقلبها بكرمه وفضله.

فهذا تفصيل صلاة الخاشعين الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون والذين هم على صلاتهم دائمون، والذين هم يناجون الله على قدر استطاعتهم في العبودية، فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلاة، فبالقدر الذي يسر له منه ينبغي أن يفرح، وعلى ما يفوته ينبغي أن يتحسر، وفي مداراة ذلك ينبغي أن يجتهد.

وأما صلاة الغافلين فهي مخطرة إلا أن يتغمده الله برحمته والرحمة واسعة والكرم فائض، فنسأل الله أن يتغمدنا برحمته ويغمرنا بمغفرته؛ إذ لا وسيلة لنا إلا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته.

وإن تخليص الصلاة عن الآفات وإخلاصها لوجه الله تعالى وأداءها بحقها من الخشوع والتعظيم والحياء سبب لحصول أنوار في القلب، تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة، فأولياء الله المكاشفون بملكوت السموات والأرض وأسرار الربوبية إنما يكاشفون في الصلاة لا سيما في السجود؛ إذ يتقرب العبد من ربه تعالى بالسجود، ولذلك قال تعالى: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب}[العلق:١٩].

وإنما تكون مكاشفة كل مصل على قدر صفائه عن كدورات الدنيا، ويختلف ذلك بالقوة والضعف والقلة والكثرة وبالجلاء والخفاء حتى ينكشف لبعضهم الشيء بعينه، وينكشف لبعضهم الشيء بمثاله كما كشف لبعضهم الدنيا في صورة جيفة، والشيطان في صورة كلب جاثم عليها يدعو إليها، ويختلف أيضا بما فيه المكاشفة، فبعضهم ينكشف له من صفات الله تعالى وجلاله، ولبعضهم من أفعاله، ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة.

ويكون لتعين تلك المعاني في كلِّ وقت أسباب خفية لا تحصىٰ، وأشدها مناسبة الهمّة، فإنها إذا كانت مصروفة إلىٰ شيء معيّن كان ذلك أولىٰ بالانكشاف، ولما كانت هذه الأمور لا تتراءىٰ إلا في المرائي الصقيلة، وكانت المرآة كلها صدئة فاحتجبت عنها الهداية لا لبخل من جهة المنعم بالهداية، بل لخبث متراكم الصدإ علىٰ مصب الهداية، تسارعت الألسنة إلىٰ إنكار مثل ذلك؛ إذ الطبع مجبول علىٰ إنكار غير الحاضر.

وإن الخشوع ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل، ومن رُزق ذلك فإنه يكون خاشعاً في الصلاة وفي غير الصلاة، بل في خلوته وفي بيت المال عند الحاجة، فإن موجب الخشوع معرفته اطلاع الله تعالىٰ علىٰ العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد، فمن هذه المعارف يتولد الخشوع وليست مختصة بالصلاة[1].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته... فإن انتقص من فرضه شيئاً، قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما نقص من الفريضة»[2].

المطلب السادس: أثر الصلاة على حياة المسلم:

الصلاة وسائر العبادات هي هدية من الله تعالىٰ لنا لنتحمل أعباء الحياة ونصبر عليها، ويكون لها أثر بالغ في سلوك المسلم، والتقوي بالله تعالىٰ علىٰ

(١) ينظر: الإحياء١: ١٦٥ـ ١٧١.

(٢) رواه أصحاب السنن والحاكم وصححه، كما في المغني١: ١٧٢.

شدائدها، والاستعانة به سبحانه على مصائبها، والحذر كل الحذر من نفسه الأمارة بالسوء، ومن هذه الآثار:

١ .ترك كافة الفواحش وجميع المنكرات:

وهذا صريحٌ في القرآنِ الكريم: {**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**} [العنكبوت: ٤٥]، والفحشاء: الفعلة القبيحة كالزنا مثلاً، والمنكر هو ما يُنكره الشَّرع والعقل(١).

فاشتغاله بها ابتداءً يمنعه من إتيان الفواحش والمنكرات، وهي سببٌ للانتهاءِ عنها؛ لأنَّها مناجاةٌ لله تعالى فلا بدَّ أنْ تكونَ مع إقبالٍ تامٍّ على طاعتِه وإعراضٌ كليٍّ عن معاصيه(٢)، فمَن كان مراعياً للصلاة جره ذلك إلى أن ينتهي عن السِّيئات يوماً ما(٣)، قال أبو العالية: «إنَّ الصَّلاةَ فيها ثلاث خلال، فكلُّ صلاةٍ لا يكون فيها شيءٌ من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاصُ والخشيةُ وذكرُ الله، فالإخلاصُ يأمره بالمعروف، والخشيةُ تنهاه عن المنكر، وذكرُ الله القرآن يأمره وينهاه»(٤).

---

(١) ينظر: تفسير النسفي٢: ٦٧٨.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود٧: ٤٢.

(٣) ينظر: تفسير النسفي٢: ٦٧٨.

(٤) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم٩: ٣٠٩٩.

وعلى كلٍّ حال إنَّ المراعي للصَّلاةِ لا بُدّ أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر ممَّن لا يراعيها، وأيضاً فكم من مصلّين لا تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر، واللفظ لا يقتضي أن لا يخرج واحد من المصلّين عن قضيتها(١).

وهذا بسبب أنَّه لم يقم بها على الهيئة المأمور بها، قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: «مَن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد من الله إلا بعداً»(٢)، وذلك أن أمر الصلاة له إقامته إياها بحدودها، وفي طاعته لها مزدجر عن الفحشاء والمنكر(٣).

فالحاصل أنَّ الصَّلاة أفضلُ وسيلةٍ للاستقامة بترك الفواحش والمنكرات لمن يؤدِّها بحقِّها ويُجاهد نفسَه في التزام أوامرها، لا مَن تكون وسيلةً له للرِّياء والنِّفاق في الدُّنيا، فستكون حجةً عليه لا له، وتزيده معصيةً ووزراً وإثماً وبعداً عن الله بأن جعلها وسيلة للدنيا لا للآخرة، فعن ابن

---

(١) ينظر: تفسير الزمخشري٣: ٤٥٦.

(٢) في المعجم الكبير٩: ١٠٣، والزهد لأبي داود ص١٣٥، وشعب الإيمان٤: ٤٥٦، وغيرها.

(٣) ينظر: تفسير الطبري٢٠: ٤٢.

عَبَّاس رضي الله عنهما قال ﷺ: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلا بعداً»[١].

وإنَّ مَن يفقد التربية من صلاته يصعب ملاحقة مفردات سلوكه وتعديل أخلاقه وتصرُّفاته؛ لأنَّه الصَّلاة تزرع في النَّفس القوَّة الموجهة للذَّات التي تقودها إلى المكرمات وتذودها عن السَّفاسف والدَّناءات[٢].

٢.الإعانة على تحمَّل أعباء الحياة:

إنَّ مبنى الحياة على الشِّدَّةِ والصُّعوبة والابتلاءِ والامتحان، ومبنى حال الإنسان على الضَّعف، فلا بُدَّ له من معين على عبء الدُّنيا، وإلاّ لهلك وسقط وفشل في حياته، ومن عظيم نعم الله علينا أن أمدنا بهذه الصَّلاة العظيمة المعينة على الحياة، قال تعالى: {**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**}البقرة: ٤٥.

وأصل الصبر: الإمساك، وهو ضربان: صبر عن المشتهى، وهو العفة، وصبر على المكروه وهو الشجاعة، والصلاةُ أرفع منزلة من الصَّبر؛ لأنها تجمع ضروباً من الصَّبر؛ إذ هي حبسُ الحواس على العبادة، وحبس الخواطر والإفكار على الطاعة، ولهذا قال: {**وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**} البقرة:

(١) في المعجم الكبير١١: ١٥٠، ومسند الشهاب١: ٣٠٥.
(٢) ينظر: الصلاة سر النجاح ص١٢.

٤٥، وخصها برد الضمير إليها دون الصبر[١]؛ بأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة، محتملين لمشاقها وما يجب فيها من إخلاص القلب، وحفظ النيات، ودفع الوساوس، ومراعاة الآداب، والاحتراس من المكاره مع الخشية والخشوع، واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدي جبار السموات؛ ليسأل فكّ الرقاب عن سخطه وعذابه، ومنه قوله تعالى: **{وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا}** طه: ١٣٢[٢].

فالمعنيان للآية ـ كما يقول الزمخشري:[٣]: «وَاسْتَعِينُوا على حوائجكم إلى الله بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ أي بالجمع بينهما، ... أو: واستعينوا على البلايا والنوائب بالصبر عليها والالتجاء إلى الصلاة عند وقوعها» ـ، مآلهما واحدٌ، فإن الطريق إلى الله تعالى بأداء واجباتكم وطلب حوائجكم موصلةٌ إلى القدرة على تحمّل المشاق والصِّعاب والبلايا.

قال أبو السُّعود:[٤]: «استعينوا على حوائجكم بانتظار النُّجْحِ والفرَج توكلاً على الله تعالى أو بالصَّوم الذي هو الصبرُ عن المفطِرات لما فيه من كسر الشهوةِ وتصفيةِ النفس والتوسُّل في الصَّلاة والالتجاء إليها، فإنها جامعةٌ

---

(١) ينظر: تفسير الراغب١: ١٧٧.

(٢) ينظر: تفسير الكشاف١: ١٣٣.

(٣) في تفسيره١: ١٣٣.

(٤) في تفسيره١: ٩٨.

لأنواع العبادات النفسانية والبدنية من الطَّهارة وسترِ العورة وصرفِ المال فيهما، والتَّوجهِ إلى الكعبة، والعكوفِ على العبادة، وإظهارِ الخشوعِ بالجوارحِ، وإخلاصِ النيّة بالقلب ومجاهدةِ الشيطان، ومناجاة الحقِّ، وقراءةِ القرآنِ، والتَّكلُّمِ بالشهادة، وكفِّ النفسِ عن الأطيبَيْنِ حتى تجابوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب».

وقال القشيريُّ[1]: «الصَّبرُ فطم النَّفس عن المألوفات، والصَّلاة التَّعرُّض لحصول المواصلات، فالصُّبرُ يشير إلى هجران الغير، والصَّلاة تشير إلى دوام الوقوف بحضرة الغيب، وإن الاستعانة بهما لخصلة شديدة إلاّ على مَن تجلّى الحقّ لسرّه».

فالله تعالى خلق الإنسان في عناءٍ وابتلاء، وجعل له سلاحاً وهو الصبر والصلاة، فكأنَّه في معركة، فليحذر أن ينسى ذلك ويضع سلاحه ويترك الجهاد فيهزم ويخسر[2] في دُنياه وعُقباه.

٣.الرَّاحة النَّفسية وعدم ضيق الصَّدر:

ومبنى هذه الرَّاحة على الفكر والقلب، فمَن كانت نظرته صحيحة للحياة نال هذه الراحة، ومَن أخطأ في فهمه لها عاش حياةً ضنكاً، والصلاة هي رأسُ المناجاة والذِّكر وحسن الفهم للدنيا؛ لما تشتمل عليه من تربية

---

(١) في تفسيره ١: ٨٧.

(٢) ينظر: الصلاة سر النجاح ص٥.

ومعاني لا تدرك في غيرها، فمَن حرم الصلاة والخشوع فيها لم يكن من حَزِرَ الحياة الدُّنيا وفهمها، ولا أحرزَ الصِّفات الأصيلة التي يسعد بها الإنسان في حياته، قال القشيري :[1]: «مَن أعرض عن استدامة ذكره سبحانه بالقلب توالت عليه من تفرقةِ القلب ما يسلب عنه كلّ روح، ومن أعرض عن الاستئناس بذكره انفتحت عليه وساوس الشَّيطان، وهواجس النّفس بما يوجب له وحشة الضَّمير، وانسداد أبواب الرَّاحة والبسط».

قال تعالى: **{فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا}** طه: ١٢٤، ومعنى ذلك: أن مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله، وعلى قسمته، فصاحبه يُنفق ما رزقِه بسماح وسهولةٍ، فيعيش عيشاً رافعًا كما قال تعالى: **{فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}** النحل: ٩٧، والمعرضُ عن الدين، مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلطٌ عليه الشحُّ الذي يقبض يده عن الإنفاق، فعيشُه ضنكٌ وحالُه مظلمةٌ، كما قال بعض المتصوّفة: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلاّ أظلم عليه وقته وتشوَّش عليه رزقه[2].

وذلك لأنَّ مجامعَ همتِه ومطامحَ نظرِه مقصورةٌ على أعراض الدُّنيا، وهو مُتهالكٌ على ازديادها وخائفٌ من انتقاصِها بخلاف المؤمنِ الطَّالبِ للآخرة مع أنّه قد يضيق اللهُ بشؤم الكفر ويوسع ببركة الإيمان، كما قال تعالى: **{وَلَوْ**

---

(١) في تفسيره٢: ٤٨٦.

(٢) ينظر: تفسير الكشاف٣: ٩٥، وتفسير النسفي٢: ٣٨٨.

أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف: ٩٦][١].

فمَن يعرض عن ذكر الله تعالى يكون له معيشةً ضيقةً، والضنكُ من المنازلِ والأماكن والمعايش: الشَّديد، يُقال: هذا منزلٌ ضنكٌ: إذا كان ضيقاً[٢]، فكلُّ مال أَعطيته عبداً من عبادي قلَّ أو كَثُر، لا يتقيني فيه، لا خير فيه، وهو الضَّنك في المعيشة...، فإذا كان العبدُ يكذّب بالله تعالى، ويُسيء الظنَّ به، اشتدّت عليه معيشتُه، فذلك الضَّنك[٣].

ويكون الضَّنكُ بالمعاصي بما أُعطوا من المال وأُنعموا فيه؛ لأنّ توسعَهم يكون في معصية، فنفى عنهم الانتفاع به كما نفى عنهم السَّمع والبصر واللِّسان باستعمالهم هذه الجوارح في المعصية على قيامها؛ لما ذهبت منافعها في الطَّاعة[٤].

فحاصل الأمر أنَّ هذا الضِّيقَ كان بالإعراض عن ذكر الله تعالى، الذي روحُه الصَّلاة، وبإساءة الظَّنِّ بالله تعالى، وفقدان أسبابِ الرَّاحةِ النَّفسيّةِ المتحقّقةِ في الصلاة الخاشعة.

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود٦: ٤٨.

(٢) ينظر: تفسير الطبري١٨: ٣٩.

(٣) ينظر: تفسير الطبري١٨: ٣٢٩.

(٤) ينظر: تفسير الماتريدي٧: ٣١٧.

٤ .وضوحُ الطَّريق ومعرفةُ الهدف من الحياة:

تؤثر الصَّلاة في بيانِ غايةِ الإنسانِ من الحياةِ، وهو رضاءُ الله والعيشُ له وحده، وتوضح له الطَّريق الذي يُسلك في تحقيقِها، بأن يلتزمَ أوامر الله تعالىٰ ونواهيه ويراعي حدوده، ففي كلِّ صلاةٍ تذكرةٌ لغايته من الحياةِ، وبكلِّ قراءةٍ وخشوعٍ يعرفُ الطَّريق الموصل له، قال تعالىٰ: **{أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى}** [الملك: ٢٢]: أي ما ظهرَ من سوءِ حالِهم وخرورِهم في مهاوِي الغرورِ وركوبِهم متنَ عشواءِ العتوِّ والنفورِ وعدمِ اهتدائِهم في مسلكِ المُحاجَّةِ إلىٰ جهةٍ يتوهمُ فيها رشدٌ في الجملة، **{أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا}** [الملك: ٢٢]: أي قائماً سالماً من الخبطِ والعثارِ **{عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** [الملك: ٢٢]: مستوِي الأجزاءِ لا عِوَجَ فيهِ ولا انحرافَ(١).

فالمهتدي المصلي هو العارفُ بما له وعليه، السَّائر في طريقِه بلا عوج وانحرافٍ، والمتبصِّرُ بالحياة وحالها، والمطبقُ لمرادها ومقصدها، بخلاف المعرض عن الصَّلاة، فهو المتخبطُ الضَّائع التَّائه في ضلالات الدُّنيا، وانحرافات الهوىٰ، الغارقُ في شهوات النفس ورغباتها.

٥ .تحقيق التَّوكل التّام:

والتوكل: هو تفويضُ المسلم أمره إليه تعالىٰ، طالباً عرفانه وقربه،

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود٩: ٩.

ورضاءه مُنقاداً لحكمِه من النَّفع والضَّرر والمحنةِ والضر، راضياً بقضائه وشاكراً لنعمائه، وصابراً لبلائه(١).

ومعلوم أنَّ الأمورَ كلَّها بيد الله من خير ورزق وعلم ونفع، ونحن مطالبون بالاعتماد عليه، والصَّلاة هي المعينُ الأكبر في تحقيق هذا، بحيث ترتفع بالمرء بعدم قبول إلا الحقّ، وهو أن لا ترضى ولا تقنع بشيء دون الحق؛ لأنَّه مَن رضي من الدُّنيا بالدُّنيا فهو ملعونٌ، ومَن رضي من الزُّهد بالثَّناء فهو محجوبٌ، ومَن رضي من الحقِّ بشيء مما دون الحقِّ كائناً ما كان فهو طاغ، فالحذر الحذر عمَّ سوىٰ الحق، قال تعالىٰ: {**إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**} [الأنعام: ١٦٢]، فالسَّالك لا يرغب إلىٰ شيء سوىٰ الله تعالىٰ، ويطهر قلبه عن كلِّ شيء غير الله تعالىٰ، ويزين جميع أركانه وجوارحه بحدود الله تعالىٰ بأن يكون صادقاً في طلب الله تعالىٰ(٢).

ويفيد التَّوكل الثقةُ بالله والاعتماد عليه بأن يرزقه ولو بسبب نحو الكسب بلا ثقة واعتماد علىٰ نَفس الكسب(٣)، قال تعالىٰ: {**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا**}[آل عمران: ٣٧]، فانظر كيف ربط سبحانه ما بين الرزق وبين التقرب له.

---

(١) ينظر: السراج ص٨٠.
(٢) ينظر: السراج ص٦٥.
(٣) ينظر: السراج ص٨١.

وعن عمر رضي الله عنه قال ﷺ: «لو أنكم تتوكَّلون على الله حَقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطَّير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[1]، وهذا تأكيد آخر لكفالة الرزق، أننا مطالبون بالتوكل لا به، قال تعالى: {**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى**} [طه: ١٣٢]: أي جاهد نفسك على فعلها وإتقانها وإحسانها وكثرتها ولا تضع وقتك وحياتك في البحث عن الرزق وتأمين المستقبل، فالله لم يخلقك لتتعب وتشقى في طلب رزقك فقد كفله لك حين تصطبر على الصلاة، فمتى رعيت هذه الصَّلاة وقمت بها كما يجب فإن رزقك مكفول[2].

فالمتوكل يستغني عن الاعتماد على غير الله تعالى من المخلوقات والدراهم والملك، قال تعالى: {**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ**} [الطلاق: ٣][3]، فكم هذه من نعمة هنيئاً لَمن رزقها، وتعساً لَمن سلبها، وشكراً لله على صلاة بخشوع توصل إليها.

٦. تربيةٌ متواصلة للنَّجاح في الحياة:

النجاح في الحياة بالقرب من الرَّحمن، والبُعد عن الشَّيطان، وترك هوى

---

(١) في مسند أحمد١: ٣٢٣، وسنن الترمذي٤: ٥٧٢، وقال: حسن صحيح، وسنن ابن ماجة٢: ١٣٩٤، وصحيح ابن حبان٢: ٥٠٩، ومسند أبي داود الطيالسي١: ٥٥.

(٢) ينظر: الصلاة سر النجاح ص١٠.

(٣) ينظر: أيها الولد ٦٣.

النَّفس ورغباتها، وبمقدار تعلُّقك بربِّك واستحضارُه في لحظاتِ حياتِك تحقِّق نجاحك وفلاحِك في دنياك وأُخراك، وبقدرِ بُعدك عن شيطانك وأوهام نفسك ونزواتها وشهواتها فشلُك وضلالُك وضياعُك وسقوطُك.

قال الخادميُّ[١]: «الرَّاحةُ هو الخلاص من أماني النفس»: أي هواها ورغباتها.

وقال أيضاً[٢]: «اللِّذةُ والرَّاحةُ ليس إلاّ بالعبادة والذِكر».

وما الصلاة إلا مناجاة للخالق فيها إعدادٌ مستمرٌ للنجاح في حياته والسعادة بها، فهي أشبه ما يكون بدوراتٍ متعاقبة، وتربيةٍ متواصلة على مدار اليوم من أجل استعدادٍ أكبر للمسلم للتفوُّق في حياته؛ لما تشتمل عليه من الأوصاف العديدة المهيئة للإنسان في النجاح.

فالفوز والنجاح والسعادة في الدنيا والآخرة للخاشعين في صلاتهم[٣]، قال الله تعالى: **{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}** [المؤمنون: ٢]، فالفلاح: الفوزُ بالمرام والنَّجاةُ من المكروه: أي فازوا بكلِّ

---

(١) في السراج ص٥٦.

(٢) في السراج ص٥٧.

(٣) ينظر: الخشوع للقحطاني ص٢٠.

خيرٍ ونجوا من كلِّ ضيرٍ حسبما كان ذلك مُتوقعاً من حالِهم فإنَّ إيمانَهم وما تفرَّعَ عليه من أعمالِهم الصَّالحةِ من دواعي الفّلاحِ بموجب الوعدِ الكريمِ(١).

٧.تقوية للمسلم على شيطانه:

للمؤمن عدوان، وهما: الشَّيطان والنَّفس، إن انتصر عليهما سَعِد ونَجَح، وإن انتصرا عليه خاب وخسر، ولا بُدّ له من معينٍ عظيم عليهما، ولا معين له عليهما إلا الله تعالىٰ، وأقوىٰ صلة له بربِّه سبحانه هي الصَّلاة، فهي المناجاةُ مع الله والالتجاء والتوكُّل عليه، قال سهل التستري: «من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان»(٢).

قال ابن الجوزي(٣): «اعلم أنَّ الآدميَّ لما خُلِق رُكِب فيه الهوىٰ والشهوة؛ ليجتلب بذلك مَا ينفعه، ووضع فيه الغضب ليدفع به مَا يؤذيه، وأُعطىٰ العقل كالمؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب، وخُلِق الشَّيْطَان محرضا لَهُ عَلَىٰ الإسراف فِي اجتلابه واجتنابه، فالواجب عَلَىٰ العاقل أن يأخذ حذره من هَذَا العدو الذي قد أبان عداوته من زمن آدم عليه السلام، وَقَدْ بذل عمره ونفسه فِي فساد أحوال بني آدم، وقد أمر اللهَّ تعالىٰ بالحذر منه فقال تعالىٰ:

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود٦: ١٢٣.

(٢) ذكره الثعالبي في تفسيره، ٣: ٦٤ وعزاه لسهل التستري أيضاً، ومثله الفيروزأبادي في بصائر ذوي التمييز، ١: ٧٢٢.

(٣) في تلبيس إبليس ص٢٣.

{وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: ١٦٨، وقال تعالى: **{الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ}** [البقرة: ٢٦٨]، وقال تعالى: **{وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا}** [النساء: ٦٠]، وفي القرآن من هَذَا كثير».

فحين طُرد الشَّيطانُ من الجنّةِ أقسم بعِزّةِ الله تعالى: **{فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ.إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}**[ص: ٨٣]، استثنى المخلصين؛ لأنَّه لا يقدر عليهم، وليس له عليهم سلطانٌ كما أَخبر الله تعالى بذلك:**{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}** [الحجر: ٤٢]، والصَّلاةُ القائمةُ تُحقِّقُ الإخلاصَ الذي يحفظُ ويُحصنُ العبدَ من الشَّيطان؛ لأنّها تُحقِّق إخلاص العبوديّة لله رَبّ العالمين، إذ الصَّلاة حرزٌ وسياجٌ قويٌّ يحفظ ويحمي العبد من كيدِ الشَّيطان، هذا هو التَّشخيص، وهذه هي المعادلةُ في هذه القضية[1].

وقد حذرنا الله تعالى من عدواة الشيطان، وأنَّه العدو الحقيقي لنا، فقال تعالى: **{إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا}** [فاطر: ٦]: قال الغزالي[2]: «المعاداة للشَّيطان لا للمسلم لأيٍّ غرض كان من رئاسةٍ وجاهٍ وغيرها»، فالتَّنبيه على عداوةِ الشَّيطانِ بيانٌ لخطرها وضرورةِ التَّركيز عليها، والإعراضُ عن غيرها من العدواةِ المصطنعة في الدُّنيا مع المسلمين.

---

(١) ينظر: الصلاة سر النجاح ص٨.

(٢) في أيها الولد ص٦٠.

٨.تقويةٌ للمسلم على نفسِهِ:

يجب أن يكون علمُ وعملُ المسلم لإرضاء الله تعالىٰ وتهذيب أخلاقِهِ وكسرِ النَّفسِ الأَمارة(١)، قال تعالىٰ: {**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيم**} [يوسف: ٥٣]: أي: ما عصم ربي؛ لأنَّ النَّفسَ جُبلَت وطُبِعَت علىٰ الميلِ إلىٰ الشَّهواتِ واللَّذاتِ والهوىٰ فيها، والرَّغبةُ والتَّوقي عن المكروهاتِ والشَّدائد؛ ألا ترىٰ أنَّه قال: {**فَأَمَّا مَنْ طَغَى. وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى. وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**} [النازعات: ٣٧ – ٤١]: أثبت للنَّفس الهوىٰ وإيثار الحياة الدُّنيا وشهواتها(٢).

فالكيسُ مَن دان نفسه، وعَمِل لما بعد الموت، والأحمقُ مَن أتبع نفسَه هواها، وتمنَّىٰ علىٰ الله المغفرة(٣).

قال العز بن عبد السلام(٤): «النُّفُوس مجبولة علىٰ طلب مَا يلائمها من شهواتها ولذاتها وَمن أعظم شهواتها التَّعْزِير والتَّوقير وَدفع مَا يؤلمها وجلب مَا يلذ لَهَا».

---

(١) ينظر: أيها الولد ص٢٤.

(٢) ينظر: تفسير الماتريدي٦: ٢٥٤.

(٣) ينظر: السراج ص٢٣.

(٤) في مقاصد الرعاية ١: ٥٦.

وقال الغزاليّ[١]: «اجعل الهمّة في الرُّوح، والهزيمة في النَّفس، والموت في البدن؛ لأن منزلك القبر»، وهذه الهمة للروح تحصل بكثرة القرب إلى الله تعالى، والصلاة أكبر القرب في تحقيق ذلك، فتنكسر النفس وتبعد عن الشَّهوات، «فمع كل انتقال في الصلاة تعلن أن الله أكبر، وحين تقولها وأنت مدرك لمعانيها فإن هذا التِّكرار لهذه الكلمة كفيلٌ بتعميق الإيمان في القلب وحفظه من كلِّ شرٍّ وطرد كل شيطان»[٢].

وقال الخادمي[٣]: «مخالفة النفس أساس الأمر بين العبد وبين الله تعالى، فلا تغفل عن الله تعالى بالاشتغال على حظّ النفس والاتباع على هواها»، والانشغال بالله بالإقبال على طاعته بالصلاة وغيرها، فكم يكون في الصلاة مخالفة للنفس من الاستيقاظ مبكراً، وحبسها في العبادة، وترك كسلها بتلبية أوامر الله تعالى؟.

فالصلاة عامل رئيس في الإعانة على مخالفة عادات النفس وكشف عوارها وترك هواها، وبمقدار تحقيق هذا في حياة المسلم يكون نجاحه، قال

---

(١) في أيها الولد ص٣٣.

(٢) ينظر: الصلاة سر النجاح ص٣٥.

(٣) في السراج ص٨٠.

القشيري: «أصل المجاهدة فطم النفس عن المؤلوفات وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات»(١).

٩. التفكُّر والتَّدبُّر في ملكوتِ السَّموات والأرض بقلوب صافية:

يحيى الإنسان في عوالم من الخيالات والأوهام اكتسبها من لغطِ النَّاس وجهالاتهم وعاداتهم، وبمقدار هدايته من الله تعالى ترتفع عنه هذه الظلمات بنور الله المبين، وتظهر له الأمور على حقيقتها، وتتكشف له أحوال الدنيا، وأقوى سبل هداية الله هو الصلاة بتمامها، قال الغزالي(٢): «والصَّلاةُ مفتاحُ القلوب فيها تنكشف أَسرار الكلمات، فهذا حقُّ القراءة، وهو حقُّ الأذكار والتَّسبيحات أيضاً».

فمثلاً يصل إلى حقيقة الوجود، وهي أن كلَّ ما بين يد النَّاس نافذ وما عند الله باقي فعلينا العمل له، قال تعالى: **{مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَد}** [النحل: ٩٦]، فيبذل كل محصول جهده وطاقته من الدنيا لوجه الله بإرضائه(٣)، وعلى ذلك فقس.

ومَن تأمَّل في هذا عَرَفَ سبب مطالبتنا بالخشوع في الصلاة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ركعتان مقتصدتان في تفكُّر، خير من قيام ليلة والقلب

---

(١) ينظر: السراج ص٨٠.

(٢) في إحياء علوم الدين١: ١٦٨.

(٣) ينظر: أيها الولد ص٥٧.

ساه»(١)، قال الغزاليّ(٢): «واعلم أنَّ تخليص الصلاة عن الآفات، وإخلاصها لوجه الله ﷻ، وأداءها بالشروط الباطنة التي ذكرناها من الخشوع والتعظيم والحياء سبب لحصول أنوار في القلب تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة.

فأولياءُ الله المكاشفون بملكوت السَّموات والأرض وأسرار الرُّبوبية، إنّما يُكاشفون في الصَّلاة لاسيما في السُّجود؛ إذ يتقرَّب العبدُ من ربِّه تعالى بالسُّجود.

ولذلك قال تعالى: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}[العلق: ١٩]، وإنَّما تكون مكاشفةُ كلِّ مصلٍّ على قدر صفائه عن كدورات الدُّنيا، ويختلف ذلك بالقوَّة والضَّعف والقلّة والكثرة وبالجلاء والخفاء، حتى ينكشف لبعضهم الشيء بعينه، وينكشف لبعضِهم الشَّيء بمثالِه، كما كُشِف لبعضهم الدُّنيا في صورة جيفة، والشيطان في صورةِ كلب جاثم عليها يدعو إليها.

ويختلف أيضاً بما فيه المكاشفة فبعضُهم ينكشف له من صفات الله تعالى وجلاله، ولبعضهم من أفعالِه، ولبعضهم من دقائقِ علوم المعاملة.

---

(١) في الزهد والرقائق لابن المبارك ص٩٧، والعظمة لأبي الشيخ ص٣٠١.

(٢) في إحياء علوم الدين١: ١٧٠.

ويكون لتعيّن تلك المعاني في كلِّ وقتٍ أَسباب خَفيّةٍ لا تُحصىٰ وأَشدُّها مناسبةً الهِمّة، فإنَّها إذا كانت مصروفةً إلىٰ شيءٍ مُعيَّن كان ذلك أَولىٰ بالانكشاف».

١٠.التخلص من الصفات الذميمة:

إنَّ الصَّلاةَ تهيئ المسلم للنَّجاح في الحياة، فتخلصه من الصَّفات القبيحة التي أساسها الكبر، حتىٰ جعل مبنىٰ الكراهات في الصلاة علىٰ ترك الكبر، قال السرخسي[١] والبرهاني[٢] والكاشغري[٣]: «ويكره للمصلي ما هو من أخلاق الجبابرة»، قال عبد الغني النابلسي[٤]: «أي كل ما كان من أفعال الجبابرة المتكبرين من الناس كرفع الثوب عند السجود؛ لئلا يتترب، ومن ذلك وضع المنديل للسجود عليه؛ لمجرد التكبر من غير عذر، والامتناع من السجود علىٰ الأرض بدون حائل»؛ لأنَّ الصلاة مقام التَّواضع والتذلل والخشوع فالتكبر والتجبر ينافيها[٥]، فعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ﭫ، قال ﷺ: «العزُّ إزاره، والكبرياءُ رداؤه، فمَن ينازعني عذبته»[٦].

---

(١) في المبسوط١: ٣٤.

(٢) في المحيط البرهاني١: ٣٧٧.

(٣) في منية المصلي ص١٤٩.

(٤) في الجوهر الكلي ق٢٣/ أ.

(٥) ينظر: حلبي صغير ص١٠٢.

(٦) في صحيح مسلم٤: ٢٠٢٤، ومسند أبي حنيفة ر٤.

ووصف الله المؤمنين بترك الكبر بينهم فقال تعالى: {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِين} [المائدة: ٥٤]: أي أرِقّاءَ رحماءَ متذللين ومتواضعين لهم، ووصف حالهم مع الكفار بقوله تعالى {أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٥٤]: أي أشداء متغلبين عليهم من عزَّه إذا غلبَه، كما في قوله تعالى: {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم} [الفتح: ٢٩](١).

والكبر أقبح صفة يصاب به المرء، وهي متأصلة في النفوس إلا التي تربت وتهذبت على تركه، وأعظم الوسائل في ذلك هي الصلاة، فكلها تذلل وتواضع وخشوع يكسر هذه النفس.

وحبُّ الظهور والبروز داء عظيم تصاب به المرأة، تعالجه الصلاة في كل حركاتها وسكناتها، بحيث ترسخ لدى المرأة التستر؛ إذ مبنى أحكام الصلاة على الستر للمرأة، وهذا ما يقرِّره الفقهاء(٢) لها، فعن يزيد بن أبي حبيب رضي الله عنه: «إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ على امرأتين تصليان، فقال: إذا سجدتما فضما بعض اللحم إلى الأرض، فإنّ المرأةَ ليست في ذلك كالرَّجل»(٣)، وعن عليٍّ رضي الله عنه قال:

(١) ينظر: تفسير أبي السعود٣: ٥١.

(٢) ينظر: المبسوط١: ١٩٨، والبحر الرائق١: ٣٣٩، وغيرها.

(٣) في مراسيل أبي داود ص١١٨، وقال الأرنؤوط: رجاله ثقات. وسنن البيهقي الكبير ٢: ٢٢٣، وغيرها.

«إذا سجدت المرأةُ فلتحتفر ولتضمّ فخذيها»(١)، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه سئل عن صلاة المرأة: فقال: «تجتمع وتحتفر»(٢)، وعن ابن عمر رضي الله عنهما: قال ﷺ: «إذا سجدت المرأةُ أَلْصَقَت بطنَها بفخذها، كأستر ما يكون لها»(٣).

فالصلاة أساس في كسب مكارم الأخلاق، حتى قيل: كل المشاكل الأخلاقية والسلوكية سببها إهمال الصلاة والتفريط فيها: {**أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ**}[مريم: ٥٩](٤)، وقيل: كيف يوجد فيهم الضعف، وتعصف بهم الكثير من المشاكل وعندهم هذه الصلاة، كيف تضعف أمة عندها هذا الكنز العظيم والسَّلاح المتين(٥).

١١. الطمأنية والترويح عن النفس:

الطمأنينة تكون بذكر الله(٦)، قال تعالى: {**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**} [الرعد: ٢٨]، دون غيرِه من الأمور التي تميل إليها النفوس من

---

(١) في مصنف ابن أبي شيبة ١: ٢٤١، وهو صحيح كما في صحيح صفة صلاة النبي ﷺ ص١٨٢.

(٢) في مصنف ابن أبي شيبة ١: ٢٤١، وغيره، ورجاله رجال البخاري ومسلم كما في صحيح صفة صلاة النبي ﷺ ص١٨٢.

(٣) في سنن البيهقي الكبير٢: ٢٢٢.

(٤) ينظر: الصلاة سر النجاح ص١٢.

(٥) ينظر: الصلاة سرح النجاح ص٣.

(٦) ينظر: السراج ص٧٢.

الدنياويات(١)، فالمعنى: أَلا بِذكر الله تسكن الْقُلُوب، وطمأنينة الْقلب بِزَوَال الشَّك منه واستقرار الْيَقِين فيه، فإِن قال قائل: أَلَيْسَ الله تعالى قال: {وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} [الأنفال: ٢]، فكيف توجل وتطمئن فِي حالة واحدة؟ والْجَوَاب: أَن الوجل بِذكر الْوَعيد والْعِقَاب، والطمأنينة بِذكر الْوَعْد وَالثَّوَاب، فَكَأَنَّهَا توجل إِذا ذكر عدل الله وَشدَّة حسابه، وتطمئن إِذا ذكر فضل الله وكَرمه.

وقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ} [الرعد: ٢٨]: أَي تسكن قُلُوبهم بِذكر الله، وقيل: تستأنس قُلُوبهم بِذكر الله، والسكون بِالْيَقِينِ، والاِضْطِرَاب بِالشَّكِّ، قال الله تعالى فِي شَأْن الْمُشْركين: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} [الزمر: ٤٥]: أَي اضْطَرَبَتْ، وَقَالَ فِي الْمُؤمنِينَ {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ} [الرعد: ٢٨](٢).

وأيّ ذكر أعظم من الصلاة، المشتملة على عامة الأذكار وقراءة القرآن والخشوع والإخلاص، فالصَّلاةُ في الإسلام واحةٌ روحيةٌ يفيء إليها المسلمُ ليتفيأ ظلالها الوارف، فيجد فيها علاجاً لمشكلاته النفسية، ويتخلى بها عن

(١) ينظر: تفسير أبي السعود٥: ٢٠.

(٢) ينظر: تفسير السمعاني٣: ٩٢.

هموم الحياة، وقد كان النبيّ ﷺ يعتبر الصّلاة قرّة للعين[١]، فعن أنس ﷺ قال ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ من الدُّنْيا النِّساءُ والطِّيبُ، وجعل قُرَّةُ عَيْنِي في الصَّلَاة»[٢].

وكان ﷺ يعتبر الصلاة راحة للنفس، قال ﷺ : «يا بِلَالُ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ»[٣]: أي روحنا إليها ونعمنا بها من الرُّوح والرَّاحة إليها، ويُقال: أرحنا بالشَّيء: أي روحنا وأرحنا منه: أي أسقطه عنا وخَفِّف عنّا منه، ولم يقل: أرحنا منها، كيف وقُرَّة عينه فيها[٤].

وتعالج الصلاة الفراغ النفسي: فمما لا شّكّ فيه ولا ريب أنَّ الصلاة هي العلاج الجذري والمنهجي لما يشكو منه كثير من المربين والمصلحين مما وقع في صفوف الشباب والفتيات وهو ما يعرف بالعشق أو التعلُّق[٥]؛ لما فيها من كفاية حاجة القلب من المحبّة لله تعالى والتعلّق به، وتحقّق الراحة بذلك، وإيراثِ المخافة والخشية المانعة عن المحرم، فالصلاة تخرج المسلم عن غفلة

---

(١) ينظر: آثار الخشوع في الصلاة .

(٢) في سنن النسائي الكبرى٨: ١٤٩، وسنن النسائي٧: ٦١، ومسند أحمد١٩: ٣٠٥، والمستدرك٢: ١٧٤، وصححه.

(٣) في سنن أبي داود٤: ٢٩٦، ومسند أحمد٢٨: ١٧٨، وشرح مشكل الآثار١٤: ١٦٧، وغيرها.

(٤) ينظر: قوت القلوب ص٨٦.

(٥) ينظر: الصلاة سر النجاح ص٧.

قلبه، الذي هو الداء العظيم، قال الغَزَاليُّ[(١)]: «الشقاوة علامته: اللسان المطلق بلا كفّ عن المحظورات، والقلب المطبق المملوء بالغفلة».

١٢. تحصيل الصفات الممدوحة:

فكما أنَّ الصَّلاةَ تُخلص المسلم من الصِّفات الذَّميمة فلا شكّ أنها تكسبه مكارم الأخلاق كالتواضع والصَّبر والإخلاص وغيرها.

ففي الصَّلاةِ أسرارٌ لأجلها كانت عماداً، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائماً وبالركَّوع وبالسُّجود، وقد كان العرب قديما يأنفون من الانحناء فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه، فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم. وبه أمر سائر الخلق[(٢)].

قال الغزالي[(٣)]: «لما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة أُمروا به؛ لتنكسر بذلك خيلاؤهم، ويزول كبرهم ويستقرّ التواضع في قلوبهم، وبه أمر سائر الخلق، فإن الركوع والسجود والمثول قائماً هو العمل الذي يقتضيه التواضع فكذلك مَن عرف نفسه فلينظر كلّ ما يتقاضاه الكبر من الأفعال

---

(١) في أيها الولد ص٤٦.

(٢) ينظر: موعظة المؤمنين ص٢٥٠.

(٣) في الإحياء٣: ٣٦٠.

فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقاً، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعاً، وذلك لخفاء العلاقة بين القلوب والجوارح».

وقال ابنُ رجب: «السُّجود أعظم ما يظهر فيه ذُلُّ العبد لربِّه ﷻ، حيث جعل العبد أشرف ما له من الأعضاء وأعزّها عليه وأعلاها حقيقةً أوضع ما يُمكنه فيضعه في التراب معفراً، ويتبع ذلك انكسار القلب وتواضعه وخشوعه، ولذا كان جزاء العبد إذا فعل ذلك أن يقربه الله إليه، فإنَّ أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجدٌ كما صحَّ ذلك عن النبي ﷺ، وقال تعالى: **{وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب}** [العلق: ١٩]...

قال: ومَرَّ عصام بن يوسف بحاتم الأصم، وهو يتكلَّم في مجلسه، فقال: يا حاتم تحسن تصلي؟ قال: نعم، قال: كيف تصلي؟ قال حاتم: أقوم بالأمر، وأمشي بالخشية وأدخل بالنيّة، وأكبر بالعظمة، وأقرأ بالترسُّل والتَّفكُّر، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتَّواضع، وأجلس للتشهُّد بالتَّمام، وأُسلم بالسَّبيل والسُّنّة، وأسلمها إلى الله ﷻ، وأرجع على نفسي بالخوف فأخاف أن لا تقبل منّي، وأحفظه بالجهد إلى الموت. فقال: تكلَّم فأنت تُحسن تُصلِّي.

فالسُّجودُ من أعظم ما يظهر به التواضع والذلُّ للمعبود، وهو المقصود الأعظم من الصلاة، فلهذا لا يحل إلا لله ﷻ، فيحرم لأحد من الخلق»[١].

١٣. القدرة على التركيز وتفريغ القلب:

الصَّلاةُ تعوِّدُ صاحبها على التّركيز الكامل في أفعال الصَّلاة أثناء أدائها، وهو ما يُسمّى الخشوع، ومن أعظم أسرار النَّجاح في أيّ عمل هو الإخلاص له والتركيز الكلي فيه، فالمسلم يأخذ كلَّ يوم خمس دروس في ترسيخ هذا السلوك في شخصيته، بحيث يكون جزءاً من حياته وَيُمَكِّنُه من النجاح الكامل في كل أموره.

ومفاتيح التدبر... تركيز القلب: أي منع الهواجيس في الصلاة كلها...»[٢]، قال الغزاليُّ[٣]: «ومَن عَرَفَ سِرَّ الصَّلاة عَلِمَ أَنَّ الْغَفْلَةَ تضادها، وحاصل الكلام أنَّ حضور القلب هو روحُ الصَّلاة، وأنَّ أقلّ ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التَّكبير، فالنُّقصان منه هلاكٌ وبقدر الزِّيادة عليه تنبسط الرُّوح في أجزاء الصلاة».

---

(١) ينظر: غذاء الألباب للسفاريني ١: ٣٣٢.

(٢) ينظر: الصلاة سر النجاح ص٥٠-٥٢.

(٣) في الإحياء ١: ١٦١.

وقال ابن الجوزي: «مَن أحبَّ المخدوم أحبَّ الخدمة له، لو عرف العبد مَن يناجي لم يقبل على غيره، والصَّلاةُ صلةٌ بين العبد وبين ربِّه»(١)، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال ﷺ: «لا يزال الله عز وجل مقبلاً على العبد، وهو في صلاته، ما لم يلتفت، فإذا التفت انصرف عنه»(٢)، وعدم الالتفات محقِّق للخشوع، والخشوع يحقِّق التركيز وتفريغ القلب.

فالصلاة للقلب مثل الماء للبدن يحتاجها على مدار الساعة ومتى توقفت عنه، فإنَّه يعطش وقد يشتدُّ عطشه فيصاب بالجفاف والقسوة، وربما صَعُبَت عليه الصلاة إلا بجهد كبير، فإن الصلاة تعين على الصلاة، فالله سبحانه وتعالى يقول: {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: ٤٥](٣).

١٤.تنظيم الوقت والحياة:

الصلاة تنظم الأوقات للمسلم وتعرِّفه أنَّ كلَّ وقت له عمل، وهذا سبيل النَّاجحين في حياتهم، فمَن كان أقدر على تنظيم وقته وترتيب حياته وجعل لكلِّ وقت عملاً كان أنجح في حياته، قال الخادمي(٤): «العمر جوهر

---

(١) ينظر: مواعظ ابن الجوزي ص١٣٣.

(٢) في سنن أبي داود١: ٢٣٩، وسنن الترمذي٥: ١٤٨، وسنن النسائي الكبرى١: ٢٨٦، وصحيح ابن خزيمة١: ٢٤٣، وغيرها.

(٣) ينظر: الصلاة سرح النجاح ص٤٦.

(٤) في السراج ص٦٣.

لا يعادله قيمة، بل كل نفس من أنفاسه لا يناله الإنسان بخزائن الملوك... ولكل نفس وظيفة فهو رأس مال المؤمن لاكتساب سعادة الآخرة».

والصلاة تخرج المسلم من كسل النَّفس وتحفزها على النَّشاط والهِمة، فعليه أن يستيقظ من الفجر ويترك رغبة النفس بالنوم، ومطالب في كل وقت أن يتوضأ ويُصلِّي ويطرد وساوس نفسه وزخرفها، وهكذا، قال الغزاليّ(١): «لا تكثروا النوم بالليل، فإن كثرة النَّوم بالليل يدع صاحبه فقيراً يوم القيامة».

وقال أبو غدة(٢): «الصَّلاة تتكرَّر من المسلم والمسلمة في اليوم واللَّيلة خمس مَرَّات، فإذا أدَّاها المسلمُ في أول وقتها كما طُلبَت منه، غَرَسَت في سلوكه خلُق الحفاظ على الوقت، والدقّة في المواعيد، والانتباه لتوقيت كلّ عملٍ بوقته المناسب له، الموصل إلى الغاية منه على الوجه الأتمّ الأكمل.

ومن هذا تبدو لنا الحكمة البالغة: لماذا خصَّ الله جل جلاله ثم النبي ﷺ الصلاة بالذكر من بين سائر التكاليف الكثيرة المؤقتة؛ لأنها تتكرَّر كلَّ يوم خمس مرات، ففي زمن يسير ينطبع سلوك فاعلها بخُلق ضبط الوقت، ودقّة الوَعد، وأداء كلّ عملٍ في ميقاته المخصَّص له على الوجه الأمثل، ويصير ذلك له عادةً وطبيعةً متبعةً في سلوكه وحياته.

---

(١) في أيها الولد ص٣٨.

(٢) ينظر: قيمة الزمن عند العلماء ص١٠-١١.

فيجب على المسلم أن ينتبَه إلى الوقت في حياته، وإلى تنفيذ كلّ عمل من أعماله في توقيته المناسب، فالوقتُ من حيث هو معيارٌ زمني: من أغلى ما وَهَبَ الله تعالى للإنسان، وهو في حياة العالِم وطالبِ العلم رأس المال والربح جميعاً، فلا يسوغ للعاقل أن يضيِّعه سدىً، ويعيش فيه هَمَلاً سَبَهْلَلاً...».

١٥.التربية على الصبر:

الصلاة وسيلة فعَّالة في تحقيق الصبر، والصبر يمنع من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوّةٌ من قوى النَّفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها. وقال ابن جبير: «الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه». وقال الجنيد : وقد سئل عن الصبر: «هو تجرع المرارة من غير تعبس»[1].

قيل لخلف بن أيوب: ألا يؤذيك الذباب في صلاتك فتطردها قال: لا أعود نفسي شيئاً يفسد على صلاتي، قيل له: وكيف تصبر على ذلك؟ قال: بلغني أنَّ الفُسَّاق يصبرون تحت أسواط السلطان ليقال: فلانٌ صبورٌ ويفتخرون بذلك، فأنا قائمٌ بين يدي ربِّي أفأتحرك لذبابة[2].

قال تعالى: **{إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا. إِلَّا الْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}** [المعارج: ١٩ –

---

(١) ينظر: غذاء الألباب٢: ٥٢٣.

(٢) ينظر: الإحياء١: ١٥١.

٢٣]، فهذه الآيات تؤكِّد أن المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ليسوا من هذا النوع من الناس، بل هم على العكس من ذلك فهم إذا مسهم الشر صبورين، وإذا مسهم الخير شكورين، فمن مقاصد الصلاة المهمّة التي يجب أن تكون حاضرةً في قلب العبد أن مَن يُصلي فإنَّه يحصل على القوّة والثبات في هذه الحياة، ويسلم من نكدها وكدرها، فهو يعيشُ في واحة الإيمان وجنة الرضا في كل أحواله(١).

ويتحقق أثرها في الصبر على الشدائد فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بقيام الليل: {**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا**}[المزمل: ١ – ٢]، ثم اتبع ذلك بقوله: {**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**}[المزمل: ٥]، مما يدلُّ على مكانة الصلاة في الإعانة على تحمل الشدائد ومواجهة الصعاب ولقد كان رسول الله ﷺ يواجه عنتاً وشدّةً من الكفّار، ولقد كان في أمره بقيام الليل وما يتزود به في مناجاة الله تعالى من زادٍ روحيٍّ كبيرٍ أكبر العون على مواجهة متاعب الحياة وقسوة المخالفين(٢).

والصَّلاةُ علاجٌ ناجع للغضب والتهوّر؛ تُعلّم الإنسان كيف يكون هادئًا، وخاضعًا لله ﷻ(٣).

---

(١) ينظر: الصلاة سر النجاح ص٢١.

(٢) ينظر: آثار الخشوع في الصلاة http://www.alimam.ws/ref/٦٧٧.

(٣) ينظر: أثر الصلاة في العلاج النفسي http://www.alukah.net/culture

١٦. تصلح دين المسلم وحياته:

كلّما صدق الإنسان مع الله تعالى في صلاته كان ذلك سبباً في إصلاح باقي عباداته، ومحفزاً عليها من صدقة وصيام وعمرة وحجّ، فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «إنّ أوّل ما يُحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر»(١).

قال الحسن البصري: «يا ابن آدم أي شيء يعجز عليك من دينك إذا هانت عليك صلاتك»(٢).

والصلاة تحفظ حياة المسلم صحيحة كريمة، قال المروزي(٣): «فمَن حافظ على الصلاة حافظت عليه الصلاة، قال ﷻ: **{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}**[العنكبوت: ٤٥]»؛ لما فيها من «التربية: وهي مجاهدة النفس وقطع شهوة النفس»(٤)؛ إذ إن مجاهدة مستمرة لهذه النفس، وقطع لشهواتها من الكسل والنوم والغفلة وغيرها.

وتصلح الحياة بالخروج من الظلمات إلى النور، بالنظرة السلمية لحقيقة الدنيا، فيتحقق بصلاته «التقوى التي فيها عزّة المرء وكرامته لا في كثرة

---

(١) في سنن الترمذي٢: ٢٦٩، وحسنه، وسنن أبي داود١: ٢٩٠.

(٢) في شعب الإيمان٣: ١٥٣.

(٣) في تعظيم قدر الصلاة ص٩.

(٤) ينظر: أيها الولد ص٤٥.

الأقوال والأنصار والعشائر والأموال والأولاد وإتلاف الأموال والإسراف والتبذير، قال تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم} [الحجرات: ١٣](١)، فكلُّ التعلقات للعزة بغير الله ظلمات من المال والبنين وغيرها.

١٧ . إخلاص العبودية لله تعالى:

الإخلاص: هو أن يكون أعمال لله تعالى لا يرتاح قلبك بمحامد الناس ولا يتأسى بمذامهم(٢).

والعبودية: محافظةُ أمر الشرع، والرضاء بالقضاء، ومخالفة النفس(٣).

وإخلاص العبودية لله وحده، هذا هو أساس مقاصد الصلاة وقاعدتها ومنه تتفرع بقية المقاصد(٤).

وخشوع الصلاة هو كمال الإخلاص؛ لأنَّه «جعل القلب لله تعالى وعدم الانشغال بغيره ونسيانه»(٥)، فعن عثمان بن أبي دهرش قال ﷺ: «لا يقبل الله من عبدٍ عملاً حتى يشهد بقلبه مع بدنة»(٦).

---

(١) ينظر: ينظر: أيها الولد ص٥٨.

(٢) ينظر: السراج ص٨١.

(٣) ينظر: أيها الولد ص٨٠.

(٤) ينظر: الصلاة سر النجاح ص١٦.

(٥) ينظر: السراج ص٢٧.

(٦) فعن أبي بن كعب ﷺ وعن رجل من آل الحكم بن أبي العاص: ((أنَّ النبي ﷺ صلى بالناس، فقرأ سورة فأغفل منها آية فسألهم هل تركت شيئاً؟ فسكتوا فقال: ما بال أقوام يقرأ عليهم كتاب الله لا يدرون ما قرئ عليهم فيه، ولا ما ترك، هكذا كانت بنو إسرائيل، خرجت

ونجاح المرء في حياته مبني على شدّة إخلاصه في كل أمر يقوم به، فيتحقق تفوقه الوظيفي والمعيشي والاجتماعي والدراسي، والصلاة عامل رئيس في تحقيق الإخلاص في حياة المسلم.

١٨. الزُّهد بالدنيا:

حقيقة الدُّنيا حبُّ البقاء لطاعة الهوى وموافقة الهوى في حبّ العرض لأجل البقاء، فدخل أحد هذين في الآخر؛ لأنّ حُبّ البقاء لأجل المتعة، هو من الهوى الذي هو صفةُ النَّفس الأمّارة بالسوء وطاعة الهوى الذي هو عيش النَّفس إنما يكون لحبّ البقاء؛ لأنَّ العبد لو أيقن بالموت ساعته لآثر الحقّ على الهوى، ولو أيس من البقاء لما رغب في العرض الأدنى، فصار حبّ البقاء من الهوى، وصار إيثار الهوى إنَّما هو لحبّ البقاء، فكان ذلك حقيقة الدنيا.

وكان أقصرُ النَّاس أملاً للبقاء أزهدُهم في الدُّنيا حتى لا يدّخر شيئاً لغد؛ لأنّه عنده غير باق إلى غدٍ وصار أرغب النَّاس في الدُّنيا أطولُهم أملاً؛

خشية الله من قلوبهم، فغابت قلوبهم، وشهدت أبدانهم ألا وإن الله عز وجل لا يقبل من أحد عملا حتى يشهد بقلبه ما شهد ببدنه)) في تعظيم قدر الصلاة ص١٩٩، والفردوس بمأثور الخطاب للديلمي ٤ :١١٤، وجامع الأصول لابن الأثير ٥: ٦٤٨، وجامع الأحاديث للسيوطي ٣٢: ٣٠٤، وينظر: كنز العمال ٨: ٢٩٥.

لأنّ رغبتَه اشتدَّت فيها، وحرصَه كثر عليها للامتداد أمله للحياة فيها؛ إذ لو قصر أمله لغدٍ لاختار الفقر حينئذٍ، واختيار الفقر هو الزهد(١).

والإقبال على الصلاة يبصر المسلم بحقيقة الدنيا، فيكون فيها من الزاهدين؛ لأنَّ «الانشغال بالعبادة للثقة بضمان الله للرزق بحيث يقل سعيه ومبالغته للمعاش الذي يوقعه في الشبهات والمحرمات وإلى ارتكابها طمعاً في تكثير الأموال فلا يرعي أسباب الحل»(٢).

فلا يميل إلى جذب الدنيا، ولا يضيع عمره الذي لم يعط له شيء أعز منه في حطامها كالذي يحصل العلم بمباهاتها وإعراضها(٣)، وتصبح نظرته للحياة: عش ما شئت فإنَّك ميت، وأحبب ما شئت فإنَّك مفارق، واعمل ما شئت فإنَّك مجزى به(٤)، فلا يرى عملاً أحبَّ على قبله من الإقبال عليه بالطاعة والعبادة بالصلاة في ليله ونهاره، حتى يجزى الجزاء الأوفى.

ويدرك بصلاته أنَّ «حبّ الدنيا رأسُ جميع المحظورات؛ لأنَّها متولدٌ ومنته إليهن، فمَن أراد سلامته عن جميع المحظورات الدينية يعرض عنه؛ لأنَّ عزَّها ذلٌ وذلَها عزٌّ، ومنحَها محنٌ ومنحَها منحٌ، وهي دارُ مشقّة، وفراق

---

(١) ينظر: قوت القلوب ١: ٤١٢.

(٢) ينظر: ينظر: أيها الولد والسراج ص٦١.

(٣) ينظر: سراج الظلمات ص٢٦.

(٤) ينظر: أيها الولد ص٢٦.

ودار بلاء وفناء وعبور لا دار بقاء ودوام وسرور»[١]؛ لأنه لا يكمل شغل العبد بالله الكريم، وله في الدنيا حاجة[٢].

وطالما الصلاة تعلمه وتخبره أنَّ العيش إنَّما هو عيش الآخرة، فيكون سعيه للعمل للآخرة بقدر بقاءه فيها، والبقاء غير متناه، فالعمل لها يقتضي استغراق العمر بالطاعة والتقوىٰ والعفة والاستكانة بالخوف والخشية ظاهراً وباطناً بأداء الفرائض والواجبات وبمواظبة السنن والمستحبات وبسترك المحرمات والمنكرات وباجتناب البدع والشبهات، فإن العاقل يختار ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ بل يجتهد أن يزيد طاعة كل يوم علىٰ ما قبله علىٰ ما روي عن الحسن بن علي رضي الله عنه: من استوىٰ يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فالموت خير له[٣].

وآثار الصلاة جميع خيرات الدنيا والآخرة ودفع جميع مضارهما وإلا لما كانت عماد الدين، والأساس القويم، وإنَّما أردنا في بحثنا الإشارة إلىٰ بعضها والتنبيه علىٰ خيرها، وإلا فمقاصدها عظيمة كثيرة كالوقاية من الأمراض النفسية، والشجاعة والإقدام، والنشاط والحماس وقوة الإرادة، والحلم والأناة والرفق، وسعة الرزق، وقوة الإرادة، وحسن الخلق، وتوفير المال والنجاح في إدارته، والنوم المريح وتخفيض عدد ساعاته، والنصر في جميع

(١) السراج ص٦٧.

(٢) ينظر: السراج ص٧٢.

(٣) ينظر: السراج ص٥٢.

الميادين، والنجاح في الدراسة والعمل، والسعادة وشرح الصدر، وزيادة قوة الذاكرة، وقوّة البدن وصحته[1].

المطلب السابع: النوافل من الصلوات:

لما كانت الصلاة رأسه الذكر، وأعظم القرب لله تعالى، فعن أبي أمامة ﵁، قال ﷺ: «اعلم أنك لن تسجد لله سجدة إلا رفع الله لك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة»[2].

وبعد الحديث عن كيفية الخشوع فيها وأدائها على أكمل صورة لها كان لا بد من الترغيب في الإكثار منها، فيزيد المسلم من الأوراد الخاصة بالصلاة شيئاً فشيئاً حتى يأتي بكافة ما رَغَّب به الشرع الحكيم من الصلوات، حتى ينال جنة الرضوان، فعن عقبة بن عامر ﵁، قال ﷺ: «ما من مُسْلِمٍ يتوضَّأُ فيحْسِنُ وضُوءَه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبل عليهما بقلبه ووجهه، إلَّا وجبت له الجنة»[3].

وبأداء الصلاة الكاملة يتحقَّق الطهارة الكاملة للمسلم، فعن أبي أمامة ﵁، قال ﷺ: «فإن هو قام فَصَلَّى، فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عليه ومَجَّدَهُ بالذي هو له أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قلبه لله، إلا انْصَرَفَ من خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يوم ولدته أُمُّهُ»[4].

---

(١) ينظر: الصلاة سر النجاح٢٥.

(٢) في مسند أحمد٣٦: ٤٥٤، وسنن السنن الكبرى رقم ٨٦٩٨.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٣٤.

(٤) أخرجه مسلم رقم ٨٣٢.

وببقاء المسلم في مصلاه ينال دعاء الملائكة، فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه ما لم يحدث اللهم اغفر له اللهم ارحمه»[١]؛ لأنه يكون في صلاة حكماً لتعلق قلبه بالله تعالى وطلبه رضاه سبحانه، فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «لا يَزَالُ أَحَدُكُم في صَلاةٍ ما دامتِ الصَّلاةُ تَحْبِسُه، لا يَمْنَعُه أَن يَنْقَلِبَ إلى أهله إلاَّ الصَّلاة»[٢].

وبعد أن يحرص المسلم على أداء الفرائض على صورتها الكاملة من فراض وواجبات وسنن ومستحبات، فعليه أن يحافظ على السنن المؤكدة، وهي:

١. **ركعتان قبل الفجر**، وهي آكدها؛ فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «إنَّ النبي ﷺ لم يكن على شيء من النوافل أشدّ معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح»[٣].

٢. **ركعتان بعد الظُّهر، وأربع ركعات قبله**؛ فعن أم حبيبة رضي الله عنها، قال ﷺ: «مَن صلى اثنتي عشرة ركعة في يوم، بنى الله له بيتاً في الجنة: أربعاً قبل الظهر، واثنتين بعدها، وركعتين قبل العصر وركعتين بعد المغرب، وركعتين قبل الصبح»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٢٨ ومسلم نحوه رقم ٦٤٩.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٢٨ ومسلم رقم ٦٤٩ عن أبي هريرة ﷺ،

(٣) في صحيح مسلم ١: ٥٠١، وصحيح ابن خزيمة ٢: ١٦٠، وغيرها.

(٤) في المستدرك ١: ٤٥٦، وصححه، وسنن الترمذي ٢: ٢٧٤، وقال: حسن صحيح.

٣.ركعتان بعد المغرب؛ فعن علي ﷺ، قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي على إثر كل صلاة مكتوبة ركعتين، إلا الفجر والعصر»(١).

٤.ركعتان بعد العشاء؛ فعن عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ: «مَن ثابر على ثنتي عشرة ركعة من السُّنة بنى الله له بيتاً في الجنة: أربع ركعات قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل الفجر»(٢).

٤.أربع ركعات قبل الجُمُعة، وأربع ركعات بعدَها؛ فعن أبي عبد الرحمن السلمي ﷺ، قال: «كان عبد الله يأمرنا أن نصلي قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً، حتى جاءنا عليّ فأمرنا أن نصلي بعدها ركعتين، ثم أربعاً»(٣).

٥.عشرون ركعة في صلاة التَّراويح، وهي من السُّنن المؤكدة، وتكون بعد العشاءِ قبل الوتر وبعده(٤)، ولو فاته بعضها وقام الإمام إلى الوتر أوتر معه، ثم صلى ما فاته، وهي خمس ترويحات، لكلِّ ترويحةٍ تسليمتان وجلسةٍ بعدهما قَدْرَ ترويحة.

---

(١) في سنن أبي داود ٢: ٢٤، وصحيح ابن خزيمة ٢: ٢٠٧، والأحاديث المختارة ٢: ١٤٩.

(٢) في سنن الترمذي ٢: ٢٧٣، والمجتبى ٣: ٢٦٠، وسنن ابن ماجه ١: ٣٦١.

(٣) في مصنف عبد الرزاق ٣: ٢٤٧، وغيرها، وفي الدراية ١: ٢١٨: ورجاله ثقات.

(٤) ينظر: الوقاية ص١٧١، ، والملتقى ص١٩، والمراقي ص٤٠٥، وتحفة الأخيار ص١٢٤.

والسُّنة فيها ختم القرآن مـرَّةً واحـدةً، ولا يـترك لكسـل القـوم؛ فـإنَّ الخلفاءَ الرَّاشدين واظبوا عليها[١]، وأنَّ النبي ﷺ بيَّنَ العذرَ في تـركِ المواظبـة، وهو مخافـة أن تكتـب علينـا؛ فعـن عائشـة رضي الله عنها: «إنَّ رسـول الله ﷺ صلىٰ في المسجد ذات ليلة، فصلىٰ بصلاته ناس، ثم صلىٰ من القابلة فكثر النـاس، ثـم اجتمعوا من الليلة الثالثة، أو الرابعة فلم يخرج إلـيهم رسـول الله ﷺ، فلـما أصبح قال: قد رأيت الذي صنعتُم فلم يمنعني مـن الخـروج إلـيكم إلاَّ أني خشيتُ أن تفرض عليكم»[٢]، وعن عبد الرحمن بن عـوف رضي الله عنه، قـال ﷺ: «إنَّ الله فرض صيام رمضـان، وَسَنت لكـم قيامـه، فمَـن صـامه وقامـه إيمانـاً واحتساباً خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[٣].

فإن أدىٰ السنن المؤكدات فليحرص علىٰ أداء المندوبات من الصـلوات شيئاً فشيئاً حتىٰ يستوعبها وتدخل في أوراده من الصـلوات، فـلا ينتقـل إلىٰ أُخرىٰ منها حتىٰ يثبت الأولىٰ في حياته بمرور الأيام، وهي:

١. **أربع ركعات قبل العصرِ**؛ فعـن ابـن عمـر رضي الله عنهما، قـال ﷺ: «رحـم الله امرءاً صلىٰ قبل العصر أربعاً».

---

(١) في صحيح البخاري ٢: ٧٠٧، وموطأ مالك ١: ١١٣-١١٤، وصحيح ابن خزيمة ٢: ١٥٥.

(٢) في صحيح البخاري ١: ٣١٣، وصحيح مسلم ١: ٥٢٤، واللفظ له.

(٣) في سنن النسائي الكبرىٰ ٢: ٨٩،والمجتبىٰ ٤: ١٥٨، وسنن ابن ماجه ١: ٤٢١.

٢. **أربع ركعات قبل العشاءِ، وأربع ركعات بعده؛** فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «ما صلى رسول الله ﷺ العشاء قط فدخل عليَّ إلا صلى أربع ركعات أو ست ركعات»(١).

٣. **ست ركعات بعد المغرب** بثلاث تسليمات، وتحسب المؤكدة من المستحب؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «من صلى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن بسوء، عدلن له بعبادة ثنتي عشرة سنة»(٢).

٤. **ركعتا تحية المسجد** قبل الجلوس في غير الوقت المكروه، وأداء صلاة الفرض أو غيرها ينوب عنها، ولا تسقط عنه بالجلوس(٣)؛ فعن أبي قتادة رضي الله عنه، قال: «إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس»(٤).

٥. **ركعتان بعد الوضوء قبل جفافه؛** فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال ﷺ: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثمّ يقوم فيُصلّي ركعتين مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة»(٥).

٦. **أربع ركعات فصاعداً في وقت الضُّحى،** وابتداء الضُّحى من ارتفاع الشَّمس إلى قبيل زوالها؛ فعن أبي الدَّرداء رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَن صلى الضُّحى

---

(١) في سنن أبي داود ٢: ٣١، وسكت عنه، وسنن البيهقي الكبير ٢: ٤٧٧.

(٢) في سنن الترمذي ٢: ٢٩٨، ومسند أبي يعلى ١٠: ٤١٤، وصحيح ابن خزيمة ٢: ٢٠٧.

(٣) ينظر: تبيين الحقائق ١: ١٧٣، والهدية العلائية ص١٠٢، والمراقي ص٣٩٤، وغيرها.

(٤) في صحيح مسلم ١: ٤٩٥، والسنن الصغرى ١: ٤٩٢، وغيره.

(٥) في صحيح مسلم ١: ٢٠٩، وغيره.

ركعتين لم يكتب من الغافلين، ومن صلّى أربعاً كُتب من العابدين، ومَن صلى ستاً كُفِي ذلك اليوم، ومَن صلى ثمانياً كتبه الله من القانتين، ومن صلّى ثنتى عشرة بنى الله له بيتاً في الجنة»(١).

٧. **ركعتا الاستخارة؛** فعن جابر رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إنّي أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنَّك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أنَّ هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أنَّ هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: في عاجل أمري وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني به، قال: ويسمي حاجته»(٢).

٨. **ركعتا الحاجة؛** فعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَن كانت له إلى الله حاجة أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ، وليحسن الوضوء، وليصل ركعتين، ثم ليثن على الله، وليصل على النبي ﷺ، ثم ليقل: لا إله إلا الله

---

(١) في السنن الصغرى ١: ٤٨٨، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ١: ٢٦٦: رواته ثقات.

(٢) في صحيح البخاري ١: ٣٩١، وسنن الترمذي ٢: ٣٤٥، وغيرها.

الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل برّ، والسلامة من كل إثم، لا تدع لي ذنباً إلا غفرته ولا هماً إلا فرجته، ولا حاجة هي لك رضاً إلا قضيتها يا أرحم الراحمين»(١).

٩. **أربع ركعات صلاة التَّسبيح بثلاثمئة تسبيحة**(٢)؛ فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «قال ﷺ للعباس بن عبد المطلب: يا عباس، يا عماه، ألا أعطيك، ألا أجزيك، ألا أفعل لك عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر الله ذنبك، أوله وآخره قديمه وحديثه خطأه وعمده صغيره وكبيره سره وعلانيته، عشر خصال، أن تصلي أربع ركعات تقرأ في كل ركعتين بفاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة، قلت: وأنت قائم سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خمس عشرة مرة، ثم تركع، وتقول: وأنت راكع عشراً، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشراً، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثم ترفع رأسك فتقولها عشراً، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثم ترفع رأسك فتقولها عشراً، فذلك خمس وسبعون في كل ركعة، تفعل في أربع ركعات، إن استطعت أن تصليها في كل يوم مرة فافعل، فإن لم تفعل ففي كل جمعة مرة، فإن لم تفعل

---

(١) في سنن الترمذي ٢: ٢٤٤، وينظر: الترغيب ١: ٢٧٣، وغيرها.

(٢) ينظر: التبيين ١: ١٧٣، ومراقي الفلاح ص٣٩٤-٢٩٦، والهدية العلائية ص١٠٢-١٠٤، وغيرها.

ففي كل شهر مرة، فإن لم تفعل ففي كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة»[١].

١٠. **صلاة الليل، فعن ابن عمر ﭬ**، قال ﷺ: «صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة توتر له ما قد صلى»[٢].

وعن أبي هريرة ﭬ، قال ﷺ: «وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»[٣].

وعن أبي أمامة الباهلي ﭬ، قال ﷺ: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة للإثم»[٤].

١١.صلاة النصف من شعبان، فعن معاذ بن جبل ﭬ عن النبي ﷺ قال: «يطلع الله إلى خلقه في ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن»[٥]، فيستحب الصلاة لفضيلة هذه الليلة.

---

(١) في صحيح ابن خزيمة ٢: ٢٢٣، والمستدرك ١: ٤٦٥، وصححه، وسنن الترمذي ٢: ٣٤٧.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٩٤٦، ونحوه مسلم رقم ٧٤٩.

(٣) أخرجه مسلم رقم ١١٦٣.

(٤) أخرجه الترمذي رقم ٣٥٤٩ وابن خزيمة رقم ١١٣٥ والحاكم رقم ١١٥٦ وقال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم ٥٦٦٥.

وليحرص على أداء السنن في البيت خشية الرياء، فعن زيد بن ثابت ﵁، قال ﷺ: «صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة»(١)؛ لأن الأفضل صلاة السنن وعامة النوافل في البيوت، فعن ابن عمر ﵁، قال ﷺ: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبوراً»(٢).

والأفضل أن يصلي النوافل في الليل والنهار أربعاً، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهنّ وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً»(٣).

ويحافظ تحقيق سنة الصلاة للفريضة جماعة، فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنَّه يجد عرقاً سميناً أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء»(٤). وعن ابن عمر ﵄، قال ﷺ: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»(٥).

---

(١) في سنن أبي داود بإسناد صحيح، كما في المغني١: ١٩٣.

(٢) في صحيح مسلم ١: ٥٣٨، وصحيح البخاري ١: ١٦٦، وغيرها.

(٣) في صحيح مسلم ١: ٥٠٩، وصحيح البخاري ١: ٣٨٥، وغيرها.

(٤) في صحيح البخاري ١: ٢٣١، وغيره.

(٥) في صحيح مسلم ١: ٤٥٠، وصحيح البخاري ١: ٢٣١، وغيرها.

وحث النبي ﷺ على صلاة الجماعة فيما لا يحصى من الأحاديث وبين المكانة الرفيعة لها، والأجر العظيم فيها، فن عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَنْ صَلَّى العِشاءَ في جـماعةٍ؛ فكأَنَّما قامَ نِصْفَ اللَّيْل، ومَن صَلَّى الصبْح في جَمَاعَةٍ؛ فكأَنَّما صَلَّى اللَّيْل كُلَّهُ»[١].

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه، قال ﷺ: «من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء فيدركه فيكبه في نار جهنم»[٢].

وبعد هذه النظرة السريعة فيما يُسنُّ ويُستحب من الصلوات يلاحظ استحباب إكثار المسلم من الصلوات في سائر الأوقات من الليل والنهار إلا في الأوقات المكروهة، وهي بعد طلوع الفجر فيما عدا ركعتي سنة الفجر، وبعد صلاة الفجر إلى إنتهاء وقت الكراهة بعد الشروق، وفي وقت الزوال، وبعد صلاة العصر إلى غروب الشمس.

وكلما زادت الأوراد الصلاتية اقترب المسلم من أن يكون ذاكراً أكثر فأكثر؛ لأنّ الصلاةَ مناجاةٌ للربّ، وتعليقٌ للقلب بخالقه، وسيكون لها أكثر الأثر في تطهير المسلم وتزكيته.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٦٥٦.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٦٥٧.

المبحث الثالث
أسرار الزكاة والصيام والحج

نعرض في هذا المبحث لأسرار كل منها الزكاة والصيام والحج في ثلاثة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول: أسرار الزكاة:

إن للزكاة والصدقة أثراً بالغاً في تطهير النفس والارتقاء بها، فهي تعالج أشد أمراض القلوب فتكاً بصاحبه، وهي حبّ المال والدنيا وشدة البخل، ففها تربية على إخراج الدنيا من قلوبنا بإخراج المال من أيدينا؛ ليكون العبد مع ربه سبحانه راغباً برضاه، رافعاً لغضبه، فعن أنس ﵁، قال ﷺ: «الصدقة تطفئ غضب الرب»[(١)]، وفي رواية: «صدقة السر تطفئ غضب الرب»[(٢)].

ورتب سبحانه عقوبة شديدة على مَن لم يؤد حقّ المال، ويدفع زكاته، فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «تأتي الإبل على صاحبها على خير ما كانت إذا هو لم يعط فيها حقها تطؤه بأخفافها، وتأتي الغنم على صاحبها على خير ما

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٦٦٤ وقال: حسن غريب.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم ٣٤٤٢.

كانت إذا لم يعط فيها حقها تطؤه بأظلافها وتنطحه بقرونها، وقال: ومن حقها أن تحلب على الماء، قال: ولا يأتي أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يُعَارٌ ـ صوت الغنم ـ فيقول: يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغت، ولا يأتي ببعير يحمله على رقبته له رغاء، فيقول: يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد بلغت»[1].

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرعَ له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلِهْزِمَتَيْهِ يعني شِدْقَيْه ثم يقول أنا مالك، أنا كنزك»، ثم قرأ {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير}[آل عمران:١٨٠]»[2].

وفي هذا المطلب نعرض للجانب التربوي من الزكاة لا الفقهي، فنذكر ما على المزكي من وظائف، حتى تُقبل منه زكاته وصدقته كما بيَّنها الغزاليّ، ونشير إلى فضل الصدقة.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٣٣٧.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٣٣٨.

أولاً: وظائف مريد طريق الآخرة بزكاته:

١ .فهم وجوب الزكاة ومعناها، ووجه الامتحان فيها، وأنها لم جعلت من مباني الإسلام مع أنها تصرف مالي وليست من عبادة الأبدان، وفيه ثلاث معان:

أ. الامتحان بمفارقة المحبوب؛ لأن التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بإفراد المعبود، وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد، فإن المحبة لا تقبل الشركة والتوحيد باللسان قليل الجدوى، وإنما يمتحن به درجة المحب بمفارقة المحبوب، والأموال محبوبة عند الخلائق؛ لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب، فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب واستنزلوا عن المال الذي هو مرموقهم ومعشوقهم.

ولذلك قال تعالى: {إِنَّ اللهَّ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ}[التوبة:١١١]، وذلك بالجهاد، وهو مسامحة بالمهجة شوقا إلى لقاء الله عز وجل، والمسامحة بالمال أهون، ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

ـ من يخرجون جميع أموالهم؛ فهم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم، فلم يدخروا ديناراً ولا درهماً، فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم: كم يجب من الزكاة في مائتي درهم، فقال: أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم، وأما نحن

فيجب علينا بذل الجميع، ولهذا تصدق أبو بكر ﷺ بجميع ماله وعمر ﷺ بشطر ماله، فعن ابن عمر ﷺ، قال ﷺ لعمر ﷺ: «ما أبقيت لأهلك، فقال: مثله، وقال لأبي بكر ﷺ: ما أبقيت لأهلك، قال الله ورسوله»(١)، فالصديق وفَّي بتمام الصدق، فلم يمسك سوى المحبوب عنده، وهو الله ورسوله.

ـ من يمسكون أموالهم ويراقبوا واقيت الحاجات ومواسم الخيرات، فيكون قصدهم في الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنعم، وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوهها، وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة.

وقد ذهب جماعةٌ من التابعين إلى أن في المال حقوقاً سوى الزكاة كالنخعي والشعبي وعطاء ومجاهد، قال الشعبي بعد أن قيل له هل في المال حق سوى الزكاة، قال: نعم، أما سمعت قوله تعالى: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى}[البقرة:١٧٧]، واستدلوا بقوله تعالى: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}[الأنفال:٣]، وبقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[البقرة:٢٥٤].

ـ من يقتصرون على أداء الواجب، فلا يزيدون عليه، ولا ينقصون عنه، وهي أقل الرتب، وقد اقتصر جميع العوام عليه؛ لبخلهم بالمال وميلهم إليه، وضعف حبهم للآخرة، قال تعالى: {إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه، كما في المغني١: ٢١٤.

تَبْخَلُوا}[محمد:٣٧] يحفكم: أي يستقص عليكم، فكم بين عبد اشترىٰ منه ماله ونفسه بأن له الجنة وبين عبد لا يستقصي عليه؛ لبخله، فهذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال.

ب. **التطهير من صفة البخل**؛ فإنه من المهلكات، قال صلىٰ الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوىٰ متبع وإعجاب المرء بنفسه، قال تعالىٰ: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون}[الحشر:٩].

وإنما تزول صفة البخل بأن تتعود بذل المال، فحُبّ الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس علىٰ مفارقته، حتىٰ يصير ذلك اعتياداً، فالزكاة بهذا المعنىٰ طهرة: أي تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك، وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلىٰ الله تعالىٰ.

ج. **شكر النعمة**؛ فإن لله تعالىٰ علىٰ عبده نعمة في نفسه وفي ماله، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن والمالية شكر لنعمة المال، وما أخس مَن يَنظر إلىٰ الفقير، وقد ضيِّق عليه الرزق وأحوج إليه، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالىٰ علىٰ إغنائه عن السؤال، وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله.

٢. **التعجيل عن وقت الوجوب**؛ إظهاراً للرغبة في الامتثال بإيصال السرور إلىٰ قلوب الفقراء، ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات.

وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات؛ ليكون ذلك سبباً لنماء قربته وتضاعف زكاته، وذلك كشهر المحرم، فإنه أول السنة، وهو من الأشهر

الحرم، أو رمضان، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ أجود الخلق وأجود ما يكون في رمضان»(١).

٣.الإسرار؛ فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة، فعن أبي ذر رضي الله عنه، قال ﷺ: «أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير في سر»(٢).

وعن ابن هريرة رضي الله عنه ، قال: سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله أحدهم رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله بما أعطت يمينه»(٣).

وقال تعالى: {وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ}[البقرة:٢٧١].

وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمعة.

ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله؛ لأن الزكاة إزالة للبخل، وتضعيف لحب المال، وحب الجاه أشد استيلاء على النفس من حب المال، وكلٌّ واحد منهما مهلك في الآخرة، فأي فائدة في أن يخالف دواعي البخل ويجيب دواعي الرياء، فيضعف الأدنى ويقوي الأقوى.

٤. أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيباً للناس في الاقتداء، ويحرس سرّه من داعية الرياء، قال تعالى: {إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ}[البقرة:٢٧١]، وذلك حيث يقتضي الحال الإبداء، إما للاقتداء وإما

---

(١) أخرجاه الشيخان، كما في المغني١: ٢١٥.

(٢) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم، كما في المغني١: ٢١٥.

(٣) أخرجه الشيخان، كما في المغني١: ٢١٥.

لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس، فلا ينبغي أن يترك التصدق خيفة من الرياء في الإظهار.

بل ينبغي أن يتصدق ويحفظ سرّه عن الرياء بقدر الإمكان، وهذا لأن في الإظهار محذوراً ثالثاً سوى المن والرياء، وهو هتك ستر الفقير، فإنه ربما يتأذى بأن يرى في صورة المحتاج، فمن أظهر السؤال فهو الذي هتك ستر نفسه، فلا يحذر هذا المعنى في إظهاره، وهو كإظهار الفسق على من تستر به، فإنه محظور والتجسس فيه والاعتياد بذكره منهي عنه، فأما من أظهره فإقامة الحد عليه إشاعة، ولكن هو السبب فيها.

قال تعالى: { وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً}[الرعد:٢٢] ندب إلى العلانية؛ لما فيها من فائدة الترغيب، فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذي فيه، فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص، فقد يكون الإعلان في بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل، ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال.

٥.**أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى**، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى}[البقرة:٢٦٤]، واختلفوا في حقيقة المن والأذى، فقيل: المن أن يذكرها والأذى أن يظهرها، وقال سفيان: مَن مَنَّ فسدت صدقته، فقيل له: كيف المن، فقال: أن يذكره ويتحدث به، وقيل: المن أن يستخدمه بالعطاء، والأذى أن يعيره بالفقر، وقيل: المن أن يتكبّر عليه لأجل عطائه والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة.

والمن له أصل ومغرس، وهو من أحوال القلب وصفاته، ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح، فأصله أن يرى نفسه محسناً إليه ومنعماً عليه، وحقه أن يرى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله تعالى منه، الذي هو طهرته ونجاته من النار، وأنه لو يقبله لبقي مرتهناً به، فحقه أن يتقلد منه الفقير؛ إذ جعل كفّه نائباً عن الله تعالى في قبض حق الله تعالى.

فليتحقق أنه مسلم إلى الله تعالى حقه، والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صيرورته إلى الله تعالى، ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به خادمه الذي هو متكفل برزقه لكان اعتقاد مؤدى الدين كون القابض تحت منته سفهاً وجهلاً، فإن المحسن إليه هو المتكفل برزقه، أما هو فإنما يقضي الذي لزمه بشراء ما أحبه فهو ساع في حق نفسه، فلم يمن به على غيره.

وكيفما كان فلا معاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسناً إليه، ومهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسناً إليه تفرع منه على ظاهره ما ذكر في معنى المن، وهو التحدث به وإظهاره وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم في المجالس والمتابعة في الأمور، فهذه كلها ثمرات المنة.

وأما الأذى فظاهره التوبيخ والتعيير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالإظهار، وفنون الاستخفاف وباطنه، وهو منبعه أمران:

أ. كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه، فإن ذلك يضيق الخلق لا محالة.

وكراهية تسليم المال، فهو حمق؛ لأن من كره بذل درهم في مقابلة ما يساوي ألفاً، فهو شديد الحمق، ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله تعالى، والثواب في الدار الآخرة، وذلك أشرف مما بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكرا لطلب المزيد، وكيفما فرض، فالكراهة لا وجه لها.

ب. رؤيته أنه خير من الفقير، وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه، وكلاهما منشؤه الجهل؛ لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى، وعرف خطر الأغنياء لما استحقر الفقير، بل تبرك به وتمنى درجته.

فكيف يستحقر الفقير، وقد جعله الله تعالى متجرة له؛ إذ يكتسب المال بجهدك، ويستكثر منه، ويجتهد في حفظه بمقدار الحاجة، وقد ألزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته، ويكف عنه الفاضل الذي يضره لو سلم إليه، فالغني مستخدم للسعي في رزق الفقير، ويتميز عليه بتقليد المظالم والتزام المشاق وحراسة الفضلات إلى أن يموت، فيأكله أعداؤه، فإن مهما انتقلت الكراهية وتبدلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له أداء الواجب.

وتفضيله الفقير حتى يخلصه عن عهدته بقبوله منه انتفى الأذى والتوبيخ وتقطيب الوجه وتبدل بالاستبشار والثناء وقبول المنة، فهذا منشأ المن والأذى.

٦. **أن يستصغر العطية**، فإنه إن استعظمها أعجب بها، والعجب من المهلكات، وهو محبط للأعمال، قال تعالى: { وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ

كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ}[التوبة:٢٥].

والعجب والاستعظام يجري في جميع العبادات، ودواؤه علم وعمل، مام العلم فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير، وأنه قد قنع لنفسه بأخس درجات البذل، فهو جدير بأن يستحيي منه، فكيف يستعظمه وإن ارتقى إلى الدرجة العليا، فبذل كل ماله أو أكثره، فليتأمل أنه من أين له المال؟ وإلى ماذا يصرفه؟ فالمال لله تعالى وله المنة عليه؛ إذ أعطاه ووفقه لبذله، فلم يستعظم في حق الله تعالى ما هو عين حق الله سبحانه، وإن كان مقامه يقتضي أن ينظر إلى الآخرة، وأنه يبذله للثواب، فلم يستعظم بذل ما ينتظر عليه أضعافه.

وأما العمل فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخل بإمساك بقية ماله عن الله تعالى، فتكون هيئته الانكسار والحياء كهيئة مَن يطالب بردِّ وديعة، فيمسك بعضها ويرد البعض؛ لأنّ المال كلَّه لله تعالى، وبذل جميعه هو الأحب عند الله سبحانه، وإنّما لم يأمر به عبده؛ لأنه يشقُّ عليه بسبب بخله، كما قال الله تعالى: { فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا}[محمد:٣٧].

٧.**أن ينتقي من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه،** فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وإذا كان المخرج من شبهة، فربما لا يكون ملكاً له مطلقاً، فلا يقع الموقع.

وإذا لم يكن المخرج من جيد المال، فهو من سوء الأدب؛ إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لأهله، فيكون قد آثر على الله تعالى غيره، ولو فعل هذا بضيفه وقدم إليه أردأ طعام في بيته لأوغر بذلك صدره، هذا إن كان نظره إلى الله تعالى، وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه في الآخرة، فليس بعاقل من يؤثر غيره على نفسه، وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى أو أكل فأفني، والذي يأكله قضاء وطر في الحال، فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار.

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ}[البقرة:٢٦٧]: أي لا تأخذوه إلا مع كراهية وحياء، وهو معنى الإغماض، فلا تؤثروا به ربكم.

فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «سبق درهم مائة ألف»[1]، وذلك بأن يخرجه الإنسان وهو من أحل ماله وأجوده، فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبذل، وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله، فيدلُّ ذلك على أنه ليس يؤثر الله تعالى بشيء مما يحبه.

٨. **أن يطلب لصدقته مَن تزكو به الصدقة**، ولا يكتفي بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية، فإن في عمومهم خصوص صفات، فليراع خصوص تلك الصفات، وهي ستة:

---

(١) أخرجه النسائي وابن حبان وصححه، كما في المغني ١: ٢١٨.

أ. أن يطلب الأتقياء المعرضين عن الدينا المتجردين لتجارة الآخرة، فعن أبي سعيد رضي الله عنه، قال ﷺ: «لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي»(١).

ب. أن يكون من أهل العلم خاصة، فإن ذلك إعانة له على العلم، والعلم أشرف العبادات مهما صحّت فيه النية.

وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم، فقيل له: لو عممت، فقال: إني لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء، فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم، فتفريغهم للعلم أفضل.

ج. أن يكون صادقاً في تقواه وعلمه بالتوحيد، وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله تعالى وشكره، ورأى أن النعمة منه، ولم ينظر إلى واسطة، فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه، وهو أن يرى أن النعمة كلها منه.

وفي وصية لقمان لابنه: لا تجعل بينك وبين الله منعماً، واعدد نعمة غيره عليك مغرماً، ومَن شكر غير الله سبحانه فكأنه لم يعرف المنعم، ولم يتيقن أن الواسطة مقهور مسخر بتسخير الله تعالى؛ إذ سلط الله تعالى عليه دواعي الفعل، ويسر له الأسباب، فأعطى وهو مقهور، ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله تعالى في قلبه أن صلاح دينه ودنياه في فعله.

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي، كما في المغني ١: ٢١٩.

فمهما قوي الباعث أوجب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة، ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوي الذي لا تردد فيه، والله تعالىٰ خالق للبواعث ومهيجها، ومزيل للضعف والتردد عنها ومسخر القدرة للانتهاض بمقتضىٰ البواعث، فمن تيقن هذا لم يكن له نظر إلا إلىٰ مسبب الأسباب.

وتيقن مثل هذا العبد أنفع للمعطي من ثناء غيره وشكره، فذلك حركة لسان يقل في الأكثر جدواه وإعانة مثل هذا العبد الموحد لا تضيع، وأما الذي يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فسيذم بالمنع ويدعو بالشر عند الإيذاء وأحواله متفاوتة.

ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين، قال تعالىٰ: {وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}[الزمر:٤٥]، ومَن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث أنهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفي سرِّه، فليتق الله سبحانه في تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشوائبه.

د.**أن يكون مستتراً مخفياً حاجته** لا يكثر البثّ والشكوىٰ أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته، فهو يتعيش في جلباب التجمل، قال تعالىٰ: { يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيم}[البقرة:٢٧٣]: أي لا يلحون في السؤال؛ لأنهم أغنياء بيقينهم أعزة بصبرهم، وهذا ينبغي أن يطلب بالتفحص عن أهل الدين في كلِّ محلة، ويستكشف عن بواطن

أحول أهل الخير والتجمل، فثواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال.

هـ.أن يكون معيلاً أو محبوساً بمرض أو بسبب من الأسباب، فيوجد فيه معنى قوله تعالى: {لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ}[البقرة:٢٧٣]: أي حبسوا في طريق الآخرة بعيلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب، {لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ}[البقرة:٢٧٣]؛ لأنهم مقصوصوا الجناح مقيدوا الأطراف.

و.أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام، فتكون صدقة وصلة رحم، وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى.

قال علي رضي الله عنه: لأن أصل أخاً من إخواني بدرهم أحب إلي من أن أتصدق بعشرين درهماً، ولأن أصله بعشرين درهماً أحب إلي من أن أتصدق بمائة درهم، ولأن أصله بمائة درهم أحب إلي من أن أعتق رقبة.

والأصدقاء وإخوان الخير أيضاً يقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب فليراع هذه الدقائق.

فهذه هي الصفات المطلوبة، وفي كل صفة درجات ،فينبغي أن يطلب أعلاها، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات، فهي الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى.

ومهما اجتهد في ذلك وأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، فإن أحد أجريه في الحال تطهيره نفسه عن صفة البخل، وتأكيد حب الله

تعالى في قلبه واجتهاده في طاعته، وهذه الصفات هي التي تقوي في قلبه، فتشوقه إلى لقاء الله تعالى(١).

ثانياً: فضل الصدقة:

وإن تزكية النفس بالتصدق بالمال ممن لا يملك النصاب أو ممن ملك النصاب وأدى زكاة ماله له أثر كبير في الفلاح الدنيوي والأخرى، قال تعالى: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[الحشر:٩]، وحث النبي ﷺ على التصدق وإخراج المال في العديد من الأحاديث، ومنها:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَن تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله تعالى إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى يكون مثل الجبل»(٢)، فانظر للرعاية الربانية للصدقة وعنايته بها سبحانه لصاحبها.

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه، قال ﷺ: «اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»(٣)، فلا تستحقر الصدقة مهما قلت؛ لأنها بها إتقاء النار.

---

(١) ينظر: الإحياء٢: ٢١٣ـ ٢٢١.

(٢) رواه البخاري ومسلم وهذا لفظ البخاري، ، كما في فضائل الأعمال للمقدسي ص٥٠.

(٣) أخرج البخاري ومسلم، وهذا لفظ مسلم، ، كما في فضائل الأعمال للمقدسي ص٥٠.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم}[المؤمنون:٥١]، وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم}[البقرة:١٧٢]، ثم ذكر الرَّجل يُطيل السفر أَشعث أغبر يمدّ يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له»(١)، فلا تقبل الصدقة إلا إذا كانت حلال طيب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: يا رسول الله أي الصدقات أعظم أجراً؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان فلان»(٢)، فالله تعالى غنيّ، وإنما أمرنا بالصدقة لتزكية أنفسنا، فيكون أفضلها ما كان له الأثر الكبير في مجاهدة النفس والتربية، وهي الصدقة من شحّ؛ لما فيها من التزكية القلبية.

---

(١) رواه مسلم، كما في فضائل الأعمال للمقدسي ص٥٠.

(٢) أخرجاه في الصحيحين، كما في فضائل الأعمال للمقدسي ص٥٠.

وعن أنس ﷺ، قال ﷺ: «إن الصدقة تطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء»(١)، فالله تعالىٰ يغضب لارتكاب المعاصي وانتهاك الحرمات، والصدقة ترفع هذا الغضب.

وعن أنس ﷺ: «سئل النبي ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ قال: صدقة في رمضان»(٢)؛ لأن الأجور تتضاعف في رمضان، ومن التصدق.

وعن ابن مسعود ﷺ، قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه علىٰ هلكته في الحق، ورجل أتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها»(٣)، والحسد بمعنىٰ الغبطة بحيث تتمنىٰ أن يكون لك المال لتتصدق علىٰ الفقراء.

وكل هذا التصدق يكون بعد أداء حقه أهله عليه من النفقة، ولأن الإنفاق علىٰ الأهل يُعَدُّ من الصدقة، فعن جابر ﷺ، قال ﷺ: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فَضُلَ شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا» يقول: فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك(٤)، يعني في أبواب الخير الأخرىٰ.

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، كما في فضائل الأعمال للمقدسي ص٥١.
(٢) رواه الترمذي وقال: حديث غريب، كما في فضائل الأعمال للمقدسي ص٥١.
(٣) رواه البخاري، كما في فضائل الأعمال للمقدسي ص٥١.
(٤) أخرجه مسلم رقم ٩٩٧ عن جابر ﷺ.

المطلب الثاني: أسرار الصوم:

جاء نصّ القرآن واضحاً في الغاية والمقصد من الصيام، وهو تحقيق التقوىٰ، قال تعالىٰ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون}[البقرة:١٨٣]، ومعلوم أن في التقوىٰ الطهارة للمسلم؛ لما فيه من العيش مع الله تعالىٰ، والزهد بالدنيا وملذاتها.

فيكون بالصيام قادراً علىٰ التخلص من شره البطن والفرج، وهذا ما يقرب من خالقه ويجعله ذاكراً له، مقبلاً عليه سبحانه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «الصيام جنة، فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، مرتين، والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالىٰ من ريح المسك، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها»(١).

فلا يعدل الصوم ولا يماثله عبادة في تحقيق بعض المعاني التزكية، فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «عليك بالصوم فإنه لا عدل له»(٢)، فيربي الصائم علىٰ الصبر الذي بعد الأداء الرئيسية للنجاح في الدنيا والآخرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «الصيام نصف الصبر»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٧٩٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٢١٩٤، والنسائي في السنن الكبرىٰ رقم ٨٦٩٨، وابن حبان رقم ٣٤٢٦، والحاكم وصححه رقم ١٥٣٣.

(٣) أخرجه أحمد رقم ٢٣١٤٨ والترمذي رقم ٣٥١٩ وحسَّنَه، وسنن ابن ماجة١: ٥٥٥.

والصيام الخالص لوجه تعالى يحقق المغرفة من الذنوب، فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»(١).

وفي هذا المطلب نعرض لدرجات الصوم وأحوال الناس فيه كما بيَّنها الغزالي، ونشير إلى شيء من الصيام المسنون على النحو الآتي:

أولاً: درجات الصوم ثلاث:

١. **صوم العموم**؛ فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة.

٢. **صوم الخصوص**؛ فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام.

وهو صوم الصالحين، فهو كف الجوارح عن الآثام، **وتمامه بستة أمور:**

أ. غضُّ البصر وكفُّه عن الاتساع في النَّظر إلى كلّ ما يذم ويكره، وإلى كلِّ ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله تعالى، فعن حذيفة ﵁، قال ﷺ: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس»(٢).

ب. حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء، وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتلاوة القرآن، فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «إنما الصوم جنة، فإذا كان

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٨ ومسلم رقم ٧٥٩.

(٢) أخرجه الحاكم وصحح إسناده، كما في المغني ١: ٢٣٤.

أحدكم صائماً، فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم إني صائم»(١).

ج. كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه؛ لأنّ كلَّ ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه، ولذلك سوى الله تعالى بين المستمع وأكل السحت، فقال تعالى: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ}[المائدة:٤٢]، وقال تعالى: {لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ}[المائدة:٦٣]، فالسكوت على الغيبة حرام.

وقال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ}[النساء:١٤٠]، .

د. كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكاره وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار، فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال، ثم الإفطار على الحرام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش»(٢).

٥. أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلىء جوفه، فما من وعاء أبغض إلى الله تعالى من بطن مليء من حلال، وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته

---

(١) أخرجه الشيخان، كما في المغني ١: ٢٣٤.

(٢) أخرجه النسائي وابن ماجه، كما في المغني ١: ٢٣٥.

ضحوة نهاره، وربما يزيد عليه في ألوان الطعام، حتىٰ استمرت العادات بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان، فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر.

ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوىٰ؛ لتقوىٰ النفس علىٰ التقوىٰ، وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار إلىٰ العشاء حتىٰ هاجت شهوتها وقويت رغبتها، ثم أطعمت من اللذات وأشبعت زادت لذتها وتضاعفت قوتها، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت علىٰ عادتها، فروح الصوم وسره تضعيف القوىٰ التي هي وسائل الشيطان في العود إلىٰ الشرور، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل، وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم.

فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلىٰ ما كان يأكل ليلاً، فلم ينتفع بصومه، بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتىٰ يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوي، فيصفو عند ذلك قلبه، ويستديم في كل ليلة قدراً من الضعف حتىٰ يخف عليه تهجده وأوراده، فعسىٰ الشيطان أن لا يحوم علىٰ قلبه، فينظر إلىٰ ملكوت السماء، وليلة القدر عبارة عن الليلة التي ينكشف فيها شيء من الملكوت، وهو المراد بقوله تعالىٰ: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}[القدر:١].

ومَن جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام، فهو عنه محجوب، ومن أخلىٰ معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب ما لم يخل همته عن غير الله تعالىٰ، وذلك هو الأمر كله، ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام.

و. **أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء**؛ إذ ليس يدري أيقبل صومه، فهو من المقربين أو يرد عليه، فهو من الممقوتين، وليكن كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها.

فهذه هي المعاني الباطنة في الصوم، فمن اقتصر على كف شهوة البطن والفرج وترك هذه المعاني فقد قال الفقهاء: صومه صحيح من جهة الظاهر المتيسر العوام المقبلين على الدنيا.

وبهذه المعاني يتحقق القبول الموصل إلى المقصود، ويفهمون أن المقصود من الصوم التَّخلق بخلق من أخلاق الله تعالى، وهو الصمدية والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان، فإنهم منزهون عن الشهوات.

والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم؛ لقدرته بنور العقل على كسر شهوته، ودون رتبة الملائكة؛ لاستيلاء الشهوات عليه، وكونه مبتلى بمجاهدتها، فكلما انهمك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين، والتحق بغمار البهائم، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين، والتحق بأفق الملائكة، والملائكة مقربون من الله تعالى، والذي يقتدي بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله تعالى كقربهم، فإن الشبيه من القريب قريب، وليس القريب ثم بالمكان بل بالصفات.

وإذا كان هذا سر الصوم عند أرباب الألباب وأصحاب القلوب، فأي جدوىٰ لتأخير أكلة، وجمع أكلتين عند العشاء مع الانهماك في الشهوات الأخر طول النهار.

٣.صوم خصوص الخصوص؛ فصوم القلب عن الهضم الدنية والأفكار الدنيوية، وكفه عما سوىٰ الله تعالىٰ بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوىٰ الله تعالىٰ واليوم الآخر، وبالفكر في الدنيا إلا دنيا تراد للدين، فإن ذلك من زاد الآخرة، وليس من الدنيا.

حتىٰ قال أرباب القلوب: من تحركت همته بالتصرف في نهاره لتدبير ما يفطر عليه كتبت عليه خطيئة، فإن ذلك من قلة الوثوق بفضل الله تعالىٰ، وقلة اليقين برزقه الموعود، وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين، ولا يطول النظر في تفصيلها قولاً، ولكن في تحقيقها عملاً، فإنه إقبال بكنه الهمة علىٰ الله تعالىٰ وانصراف عن غير الله سبحانه وتلبس بمعنىٰ قوله تعالىٰ: قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ}[الأنعام:٩١][١].

ثانياً: نفل الصيام:

وليحرص راغب الآخر أن يزكي نفسه بالصيام إن كان يطيق ذلك، ويكون بالمحافظة علىٰ صيام السنة والنافلة، وهو كل صوم ثبت طلبه والوعد بالثواب عليه في السنة الشريفة؛ لأن في الصيام إبعاداً عن النار وتقريباً من

(١) ينظر: الإحياء١: ٢٣٤ـ ٢٣٥.

الرحمن، فعن أبي سعيد ﵁، قال ﷺ: «ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً»[١].

وفضل الصِّيام ومكانته وأثره وفضله كان يُداوم عليه النبي ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها: «كان ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم»[٢].

ومن الصيام المسنون والمستحبّ الذي يُسعى لتحصيله وملازمته للترقي في طريق الله تعالى ما يلي:

١. **صوم الاثنين والخميس**؛ فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان النبي ﷺ يتحرى صوم الإثنين والخميس»[٣]، وعن أبي قتادة ﵁: «سئل ﷺ عن صوم يوم الإثنين، قال: ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزل علي فيه»[٤].

٢. **صوم الليالي البيض من كل شهر هجري**: وهي الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، وسمّيت بيضاً؛ لابيضاض لياليها بالقمر[٥]؛

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١١٥٣.
(٢) أخرجه البخاري رقم ١٨٦٨ ومسلم رقم ١١٥٦.
(٣) في جامع الترمذي ٣: ١٢١، وحسنه، ومسند أحمد ٦: ٨٠.
(٤) في صحيح مسلم ٢: ٨١٩، وصحيح ابن حبان ٨: ٤٠٣.
(٥) ينظر: البحر الرائق ٢: ٢٨٧، وحاشية التبيين ١: ٣٣٢، وبدائع الصنائع ٢: ٧٩.

فعن أبي المنهال رضي الله عنه: «إنَّ النبي ﷺ أمرهم بصيام ثلاثة أيام البيض، وقال: فهن صوم الشهر»[١].

٣.صوم يوم عرفة لغير الحاج: وهو اليوم التّاسع من ذي الحجّة؛ لأنَّ له فضيلة على غيره من الأيام[٢]؛ فعن أبي قتادة رضي الله عنه، قال ﷺ: «صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده»[٣].

٤.صوم عاشوراء مع التاسع: وهما العاشر والتاسع من محرم، ويوم عاشوراء هو اليوم الذي نجّى اللهّ فيه بني إسرائيل من فرعون فصامه موسى عليه السلام[٤]، فيستحبّ إضافة التاسع له مخالفة لليهود؛ فعن أبي قتادة رضي الله عنه، قال ﷺ: «صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»[٥]، وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ أمر بصيام يوم عاشوراء، فلما فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر»[٦].

٥.صوم داوود عليه السلام، فإنَّه عليه السلام كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وهو أفضل الصيام وأحبه إلى الله جل جلاله[٧]؛ لقوله ﷺ: «أحبّ الصّلاة إلى اللهّ صلاة

---

(١) في سنن النسائي ٢: ١٨٢، والمجتبى ٤: ٢٢٤.

(٢) ينظر: بدائع الصنائع ٢: ٧٩.

(٣) في صحيح مسلم ٢: ٨١٨، وصحيح ابن حبان ٨: ٣٩٤.

(٤) ينظر: حاشية التبيين ١: ٣٣٢.

(٥) في صحيح مسلم ٢: ٨١٨.

(٦) في صحيح البخاري ٢: ٧٠٤، وصحيح مسلم ٢: ٧٩٤.

(٧) ينظر: البحر الرائق ٢: ٢٨٧، وبدائع الصنائع ٢: ٧٩.

داود عليه السلام، وأحبّ الصّيام إلى الله صيام داود: وكان ينام نصف اللّيل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوماً ويفطر يوماً»[١].

٦. صوم يوم الجمعة بانفراده: وإن لم يصم يوماً قبله أو يوماً بعده؛ لأنَّ يوم الجمعة من الأيام الفاضلة، فكان تعظيمه بالصوم مستحباً[٢]؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة: فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»[٣].

٧. صوم ست من شوال؛ فإنَّ عامة المشايخ لم يروا به بأساً، واختلفوا فقيل: الأفضل وصلها بيوم الفطر، وقيل: بل يفرقها في الشهر؛ لما روي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، قال ﷺ: «من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر»[٤]، ولأنَّه وقع الفصل بيوم الفطر فلم يلزم التشبه بأهل الكتاب.

---

(١) في صحيح البخاري ١: ٣٨٠.

(٢) ينظر: بدائع الصنائع ٢: ٧٩، والبحر الرائق ٢: ٢٧٨.

(٣) في صحيح مسلم ٢: ٥٨٥، واللفظ له، وسنن الترمذي ٢: ٣٥٩، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٤) في صحيح مسلم ٢: ٨٢٢، وسنن النسائي ٢: ١٦٤، والمعجم الكبير ٤: ١٣٥.

٨. **صوم شعبان**؛ فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «فما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر إلا رمضان، وما رأيته أكثر صياماً منه في شعبان»(١).

٩. **صوم الأيّام الثّمانية الّتي من أوّل ذي الحجّة قبل يوم عرفة**، فيدخل فيها يوم التروية ـ وهو الثامن من ذي الحجة ـ؛ فعن ابن عباس ﷺ قال النبي ﷺ: «ما من أيّام العمل الصّالح فيها أحبّ إلى الله من هذه الأيّام ـ يعني أيّام العشر ـ قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلاّ رجل خرج بنفسه وماله، فلم يرجع من ذلك بشيء»(٢).

١٠. **الصيام في الشهر المحرم**، فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم»(٣).

وبالتالي ينبغي للمسلم أن يكثر من الصيام ويكثره منه في كل أيام السنة؛ لأنه يستحب الصيام مطلقة؛ لشدة الترغيب الواردة فيه، فعنأبي موسى ﷺ، قال ﷺ: «مَن صام الدَّهر ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين»(٤).

---

(١) في صحيح البخاري، ٦: ٧، وصحيح مسلم ٣: ٢٢٣.

(٢) في سنن أبي داود، ٥: ١٠٢، والسنن الكبرى، ١٧: ١٣٨.

(٣) أخرجه مسلم رقم ١١٦٣.

(٤) في صحيح ابن خزيمة ٣: ٣١٣.

وأثنى النبي ﷺ على صيام سيدنا داود عليه السلام، فعن ابن عمرو رضي الله عنه، قال: «أخبر رسول الله ﷺ أني أقول: والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت، فقال له رسول الله ﷺ: أنت الذي تقول: والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت، قلت: قد قلته، قال: إنَّك لا تستطيع ذلك فصم وأفطر وقم ونم وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإنَّ الحسنة بعشر أمثالها وذلك مثل صيام الدهر، فقلت: إني أطيق أفضل من ذلك يا رسول الله، قال: فصم يوماً وأفطر يومين، قال قلت: إني أطيق أفضل من ذلك قال: فصم يوماً وأفطر يوماً وذلك صيام داود، وهو عدل الصِّيام، قلت: إنّي أطيق أفضل منه يا رسول الله قال: لا أفضل من ذلك»[1].

فيصوم ما شاء من أيام السنة بقدر طاقته ومجاهدته إن كان قادراً على المحافظة على نيِّته في أن تكون عبادة خالصة لوجهه تعالى، ويتجنَّب في الصيام أيام الكراهة، وهي خمسة أيام: يومي العيدين وثلاثة أيام التشريق، فعن عمر رضي الله عنه: «إن هذين يومان نهى رسول الله ﷺ عن صيامهما: يوم فطركم من صيامكم، والآخر يوم تأكلون فيه من نسككم»[2]، فعن عائشة رضي الله عنها: «لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لم يجد الهدي»[3].

---

(١) في صحيح البخاري ٣: ١٢٥٦.

(٢) في صحيح مسلم ٢: ٧٩٩.

(٣) في صحيح البخاري ٢: ٧٠٣.

المطلب الثالث: أسرار الحج:

لما كان الحجّ العبادات أشقّ العبادات كان له أكبر الأثر في التزكية والتطهير للنفس، فهو خروج عن الدنيا وما فيها وإقبال على الله تعالى، فمَن وعاه وأداء بحقِّه رجع كما ولدته أُمه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «من حج لله، فلم يرفث ولم يفسق؛ رجع كيوم ولدته أُمه»[١].

واعتبر النبي ﷺ الحج المبرور، بعد الجهاد في سبيل الله تعالى رتبة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»[٢]، بل اعتبره ﷺ أفضل الجهاد، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: لا، لكن أفضل الجهاد حج مبرور»[٣].

وكان جزاء الحج المبرور الجنة؛ لما فيه من المشقة والجهد وما له من الأثر على صاحبه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما،

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٤٤٩ ومسلم رقم ١٣٥٠.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٦ ومسلم رقم ٨٣.

(٣) أخرجه البخاري رقم ١٤٤٨، وأخرجه أحمد رقم ٢٥٣٦١ وابن خزيمة في صحيحه ٣٠٧٤ بلفظ: قلت: يا رسول الله، هل على النساء من جهاد؟ قال: « عليهن جهاد لا قتال فيه؛ الحج والعمرة».

والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة»[٢].

وكان للحاجّ والمعتمر فضلٌ بأنهم ضيوف الله تعالى لزيارته بيته المحرم، فيستجاب دعوتهم وتغفر ذنوبهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «الحجاج والعمار وفد الله تعالى، إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم»[٣].

فالذاكر لله تعالى من تعلَّق قلبه به سبحانه، وعاش حياته بصحبته تعالى، وخرج عن الدنيا والغفلة الواقعة بها، وهذه المعاني تتحقق بكمالها لمن حجّ أو اعتمر لله سبحانه، وكان صادقاً فيها في إقباله عليه سبحانه، فيكون عنده دورة في أن يكون ذكراً لله تعالى لأيام يكون لها أعظم الأثر في حياته إلى مماته.

وفي هذا المطلب نعرض للآداب التربوية للحج والأعمال الباطنة فيه كما بيَّنها الغزاليّ؛ ليتحقَّق الحجّ المبرور والذكر الدائم على النحو الآتي:

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٦٨٣ ومسلم رقم ١٣٤٩.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٨١٠ وقال: حسن صحيح غريب، وابن حبان رقم ٣٦٩٣ وابن خزيمة رقم ٢٥١٢.

(٣) أخرجه ابن ماجة ٢٨٩٢، والنسائي رقم ٣٦٠٤ وابن خزيمة رقم ٢٥١١ وابن حبان رقم ٣٦٩٢.

أولاً: آداب الدقيقة للحج:

١. **أن تكون النفقة حلالاً**، وتكون اليد خالية من تجارة تشغل القلب، وتفرق الهم حتىٰ يكون الهم مجرداً لله تعالىٰ، والقلب مطمئناً منصرفاً إلىٰ ذكر الله تعالىٰ وتعظيم شعائره.

٢.**أن لا يعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكس**، وهم الصادون عن المسجد الحرام من أمراء مكة والأعراب المترصدين في الطريق، فإن تسليم المال إليهم إعانة علىٰ الظلم وتيسير لأسبابه عليهم، فهو كالإعانة بالنفس، فليتلطف في حيلة الخلاص.

٣.**التوسع في الزاد وطيب النفس بالبذل والإنفاق من غير تقتير ولا إسراف**، بل علىٰ اقتصاد، وأعني بالإسراف التنعم بأطيب الأطعمة والترفه بشرب أنواعها علىٰ عادة المترفين، فأما كثرة البذل فلا سرف فيه؛ إذ لا خير في السرف، ولا سرف في الخير.

فعن جابر رضي الله عنه، قال ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، فقيل له: ما بر الحج، قال: طيب الكلام وإطعام الطعام»[1].

٤.**ترك الرفث والفسوق والجدال**، كما نطق به القرآن، والرفث اسم جامع لكل لغو وخنىٰ وفحش من الكلام، ويدخل فيه مغازلة النساء ومداعبتهن والتحدث بشأن الجماع ومقدماته، فإن ذلك يهيج داعية الجماع

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد لين، ورواه الحاكم مختصراً، وقال: صحيح الإسناد، كما في المغني١: ٢٦٢.

المحظور، والداعي إلى المحظور محظور، والفسق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عز وجل.

والجدال هو المبالغة في الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن، ويفرق في الحال الهمة، ويناقض حسن الخلق، وقد قال سفيان: من رفث فسد حجه، فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله وعلى غيره من أصحابه، بل يلين جانبه ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله تعالى، ويلزم حسن الخلق، وليس حسن الخلق كف الأذى، بل احتمال الأذى.

٥. أن يكون رث الهيئة أشعث أغبر غير مستكثر من الزينة، ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر، فيكتب في ديوان المتكبرين المترفهين، ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين وخصوص الصالحين.

فعن أبي بكر رضي الله عنه: «سئل رسول الله ﷺ ما بر الحج فقال: العج والثج»(١).

٦. أن يتقرب بإراقة دم وإن لم يكن واجباً عليه، ويجتهد أن يكون من سمين النعم ونفيسه وليأكل منه إن كان تطوعاً ولا يأكل منه إن كان واجباً، قيل في تفسير قوله تعالى: {ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ}[الحج:٣٢] إنه تحسينه وتسمينه.

فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال ﷺ: «لكم بكل صوفة من جلدها حسنة،

---

(١) أخرجه الترمذي واستغربه وابن ماجه والحاكم وصححه والبزار واللفظ له، كما في المغني١: ٢٦٥.

وكل قطرة من دمها حسنة، وإنها لتوضع في الميزان فابشروا»[١].

٧.**أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدي**، وبما أصابه من خسران ومصيبة في مال أو بدن إن أصابه ذلك، فإن ذلك من دلائل قبول حجه[٢].

ثانياً: الأعمال الباطنة للحج:

إنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات والاقتصار على الضرورات فيها والتجرد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات، ولأجل هذا انفرد الرهبانيون في الملل السالفة عن الخلق وانحازوا إلى قلل الجبال وآثروا التوحش عن الخلق لطلب الأنس بالله عز وجل، فتركوا لله عز وجل اللذات الحاضرة وألزموا أنفسهم المجاهدات الشاقة طمعاً في الآخرة، وأثنى الله عز وجل عليهم في كتابه فقال: {ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ}[المائدة:٨٢]، فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرد لعبادة الله عز وجل وفتروا عنه بعث الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ لإحياء طريق الآخرة وتجديد سنة المرسلين في سلوكها.

فأنعم الله عز وجل على هذه الأمة بأن جعل الحج رهبانية لهم، فشرف البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى، ونصبه مقصداً لعباده وجعل ما

---

(١) أخرجه ابن ماجه وصححه البيهقي، كما في المغني١: ٢٦٥.

(٢) ينظر: الإحياء١: ٢٦٤ـ ٢٦٥.

حواليه حرماً لبيته تفخيماً لأمره، وجعل عرفات كالميزاب على فناء حوضه، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فجٍّ عميق، ومن كل أوب سحيق شعثاً غبراً متواضعين لرب البيت، ومستكينين له خضوعاً لجلاله واستكانة لعزته مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد؛ ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم وأتم في إذعانهم وانقيادهم.

ولذلك وظف عليهم فيها أعمالاً لا تأنس بها النفوس، ولا تهتدي إلى معانيها العقول كرمي الجمار بالأحجار والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار، وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية، فإن الزكاة إرفاق ووجهه مفهوم وللعقل إليه ميل والصوم كسر للشهوة التي هي آلة عدو الله وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل، والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال هي هيئة التواضع وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل.

فأما ترددات السعي ورمي الجمار وأمثال هذه الأعمال، فلا حظ للنفوس، ولا أنس فيها، ولا اهتداء للعقل إلى معانيها، فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد، وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط.

وفيه عزل للعقل عن تصرفه، وصرف النفس والطبع عن محل أنسه، فإن كلَّ ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلاً ما، فيكون ذلك الميل معيناً للأمر، وباعثاً معه على الفعل، فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد.

وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم، وأن يكون زمامها بيد الشرع، فيترددون في أعمالهم على سنن الانقياد، وعلى مقتضى الاستعباد كان ما لا يهتدي إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس، وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق مقتضى الاسترقاق.

وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات.

وأما الشوق فإنما ينبعث بعد الفهم، والتحقق بأن البيت بيت الله عز وجل، وأنه وضع على مثال حضرة الملوك، فقاصده قاصد إلى الله عز وجل وزائر له، وأن من قصد البيت في الدنيا جدير بأن لا يضيع زيارته فيرزق مقصود الزيارة في ميعاده المضروب له، وهو النظر إلى وجه الله الكريم في دار القرار من حيث إن العين القاصرة الفانية في دار الدنيا لا تتهيأ لقبول النظر إلى وجه الله عز وجل، ولا تطيق احتماله ولا تستعد للاكتحال به لقصورها، وأنها إن أمدت في الدار الآخرة بالبقاء، ونزهت عن أسباب التغير والفناء استعدت للنظر والإبصار، ولكنها بقصد البيت والنظر إليه تستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الكريم.

فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة، هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة، والبيت مضاف إلى الله عز وجل، فبالحري أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة فضلاً عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل.

وأما العزم فليعلم أنه بعزمه قاصداً إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات متوجهاً إلى زيارة بيت الله عز وجل، وليعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت، وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه خطير أمره، وأن مَن طلب عظيماً خاطر بعظيم، وليجعل عزمه خالصا لوجه الله سبحانه بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة، وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص، وإن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمه والمقصود غيره، فليصحح مع نفسه العزم وتصحيحه بإخلاصه وإخلاصه، باجتناب كلِّ ما فيه رياء وسمعة، فليحذر أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

وأمّا قطع العلائق فمعناه ردّ المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي، فكلُّ مظلمة علاقة، وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلابيبه ينادي عليه، ويقول: إلى أين تتوجه أتقصد بيت ملك الملوك، وأنت مضيع أمره في منزلك هذا ومستهين به، ومهمل له، أولا تستحي أن تقدم عليه قدوم العبد العاصي فيردك ولا يقبلك، فإن كنت راغبا في قبول زيارتك فنفذ أوامره ورد المظالم وتب إليه أولاً من جميع المعاصي، واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك؛ لتكون متوجهاً إليه بوجهِ قلبك، كما أنك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك(١).

---

(١) ينظر: الإحياء١: ٢٦٥ـ٢٦٧.

المبحث الرابع
تلاوة القرآن

لا شكّ أن قراءة القرآن أفضل الذكر، وهي أعظمه وأصله، ولها أثر بليغ على النفس، ونفع كبير لمن يواظب عليها، وعبرة عظيمة لمن يحسن تدبره.

قال ابن عطاء[1]: «اذا كانت القراءة الأفضل في حقك، فعليك بتلاوته وتدبره، وانظر في تلاوتك إلى ما وجد فيه من النعوت والصفات التي وصف بها مَن أحبَّ من عباده فاتصف بها، وما ذَمَّ الله تعالى في القرآن من النعوت والصفات التي اتصف بها من مقته الله تعالى واجتنبها، فإن الله تعالى ما ذكرها لك وأنزلها في كتابه عليك وعرفك بها إلا لتعمل بذلك، واجتهد أن تحفظ القرآن بالعمل كما حفظته التلاوة....

فينبغي للذاكر أن يتخذ ذكره من الأذكار الواردة في القرآن، فيذكر الله تعالى به، فيكون قارئاً في الذكر، فلا يحمد الله تعالى، ولا يسبحه ولا يهلله إلا بما ورد في القرآن عن استصحاب منه لذلك».

---

(١) في مفتاح الفلاح ص

لذلك نعرض لطرف مما يتعلَّق به: كحقّ القرآن علينا، وفضيلة تلاوته، وآداب قراءته والآيات المستحبة في أوقات وأحوال مخصوصة، وأعمال الباطن في التلاوة في النقاط الآتية:

أولاً: حق القرآن علينا:

١. **المحافظة على تلاوته والإكثار منها،** فينبغي أن يحافظ على تلاوته ويكثر منها، وكان السَّلف ﷺ لهم عاداتٌ مختلفةٌ في قدر ما يختمون فيه.

فروى ابن أبي داود عن بعض السَّلف ﷺ: أنهم كانوا يختمون في كلِّ شهرين ختمة واحدة.

وعن بعضهم: في كل شهر ختمة.

وعن بعضهم: في كلِّ عشر ليال ختمة.

وعن بعضهم: في كلِّ ثمان ليال.

وعن الأكثرين: في كل سبع ليال.

وعن بعضهم: في كلِّ ست.

وعن بعضهم: في كلِّ خمس.

وعن بعضهم: في كلِّ أربع.

وعن كثيرين في كل ثلاث.

وعن بعضهم: في كلِّ ليلتين.

وختم بعضهم في كلِّ يوم وليلة ختمة.

ومنهم مَن كان يختم في كلِّ يوم وليلة ختمتين.

ومنهم مَن كان يختم ثلاثاً.

وختم بعضُهم: ثمان ختمات أربعاً بالليل وأربعا بالنهار.

فمن الذين كانوا يختمون ختمة في الليل واليوم عثمان بن عفان ﵁، وتميم الدَّاري وسعيدُ بنُ جبير ومجاهدُ والشَّافعيُّ وآخرون.

ومن الذين كانوا يختمون ثلاث ختمات سليم بن عمر ﵁ قاضي مصر في خلافة معاوية ﵁، روى أبو بكر بن أبي داود: أنه كان يختم في اللَّيلة أربع ختمات، وروى أبو عمر الكندي في كتابه في «قضاة مصر»: أنه كان يختم في الليلة أربع ختمات.

قال أبو عبد الرحمن السلمي سمعت أبا عثمان المغربي يقول: كان ابنُ الكاتب يختم بالنَّهار أربع ختمات وبالليل أربع ختمات، وهذا أكثر ما بلغنا من اليوم والليلة.

وروى الدَّورقيّ عن منصور بن زادان عن عبّاد التابعين ﵃: أنه كان يختم القرآن فيما بين الظّهر والعصر، ويختمه أيضاً فيما بين المغرب والعشاء في رمضان إلى أن يمضي ربع الليل.

وروى أبو داود بإسناده الصحيح: أنّ مجاهداً كان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء.

وعن منصور قال: كان عليّ الأزدي يختم فيما بين المغرب والعشاء كلّ ليلة من رمضان.

وعن إبراهيم بن سعد، قال: كان أبي يحتبي فما يحلّ حبوته حتى يختم القرآن.

وأمَّا الذي يختم في ركعة، فلا يحصون؛ لكثرتهم فمن المتقدمين عثمان بن عفان وتميم الداري وسعيد بن جبير رضي الله عنهم ختمة في كل ركعة في الكعبة.

وأمّا الذين ختموا في الأسبوع مرّة فكثيرون، نُقل عن عثمان بن عفان وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب رضي الله عنهم، وعن جماعة من التابعين كعبد الرحمن بن يزيد وعلقمة وإبراهيم رضي الله عنهم.

والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمَن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف، فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا مَن كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين، فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حدّ الملل والهذرمة[1].

(١) ينظر: التبيان ص١٥٤ـ ١٦١.

وقد كَره جماعةٌ من المتقدِّمين الختم في يوم وليلة، فعن بن عمرو ﷺ قال ﷺ: «لا يفقه مَن قرأ القرآن في أقل من ثلاث»(١).

٢.**المحافظة على القراءة بالليل**، فينبغي أن يكون اعتناؤه بقراءة الليل أكثر، قال تعالى: {لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُون. يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِين} [آل عمران:١١٤].

فعن حفصة رضي الله عنها، قال ﷺ: «نعم الرجل عبد الله لو كان يُصلي من الليل»، فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلاً(٢).

وعن عبد الله بن عمرو ؓ قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل، فترك قيام الليل»(٣).

وعن سهل بن سعد ؓ، قال جبريل ؑ للنبي ﷺ: « يا محمد، شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس»(٤).

---

(١) في سنن أبي داود٢: ٥٤، وصححه النووي، وصحيح ابن حبان٣: ٣٥، ومسند أحمد١١: ٣٨٩.

(٢) في صحيح البخاري٣: ٤٩.

(٣) في صحيح البخاري٢: ٥٤.

(٤) المستدرك٤: ٣٦٠، وصححه، والمعجم الأوسط٤: ٣٠٦.

وعن أبي الأحوص الحبشي: «إن كان الرجل ليطرق الفسطاط ـ أي يأتيه ليلاً ـ فيسمع لأهله دوياً: كدوي النَّحل، قال: فما بال هؤلاء يأمنون ما كان أولئك يخافون»[1].

وعن إبراهيم النخعي: «اقرؤوا من الليل ولو حلب شاة».

وعن جابر رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «لا تدعن صلاة الليل، ولو حلب شاة»[2].

وعن يزيد الرقاشي قال: «إذا أنا نمت، ثم استيقظت، ثم نمت، فلا أنام الله عز وجل عيناي»[3].

قال النَّوويُّ[4]: «وإنّما رَجَحَتْ صلاة الليل وقراءته؛ لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشاغلات والملهيات، والتصرف في الحاجات، وأصون عن الرياء وغيره من المحبطات مع ما جاء الشرع به من إيجاد الخيرات في الليل، فإن الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم كان ليلاً، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: «ينزل ربنا، تبارك وتعالى، كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له»[5].

---

(١) في مصنف ابن أبي شيبة١٩: ٢٩٠، والزهد والرقائق لابن المبارك١: ٣٢.

(٢) في المعجم الأوسط٤: ٢٥١، والمعجم الكبير١: ٢٧١، قال الهيثمي في مجمع الزوائد٢: ٢٥٢: «وفيه بقية بن الوليد، وفيه كلام كثير».

(٣) في مختصر قيام الليل ص٥٠، ومسند الجعد١: ٢١١، وحلية الأولياء٧: ٣٢٨.

(٤) في التبيان ص٦٤.

(٥) في الموطأ٢: ٢٩٨، وصحيح البخاري٢: ٥٣.

وعن جابر ، قال ﷺ: «إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم، يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة، إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة»(١).

قال النوويُّ(٢): «واعلم أنّ فضيلة القيام بالليل، والقراءة فيه تحصل بالقليل والكثير، وكلّما كثر كان أفضل، إلا أن يستوعب الليل كلّه، فإنّه يُكره الدوام عليه، وإلا أن يضرّ بنفسه».

فعن ابن عمرو قال ﷺ: «مَن قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومَن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومَن قام بألف آية كتب من المقنطين»(٣).

وعن ابن عبَّاس : «مَن صلى بالليل ركعتين، فقد بات لله ساجداً وقائماً»(٤).

٣.تعهد القرآن والتَّحذير من تعريضه للنِّسيان، فعن أبي موسى الأشعري قال ﷺ: «تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفس محمَّد بيده لهو أشدّ تفلتاً من الإبل في عقلها»(٥).

وعن ابن عمر ، قال ﷺ: «إنّما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المُعَقَّلَة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت»(٦).

---

(١) في صحيح مسلم١: ٥٢١.
(٢) في التبيان ص٦٥.
(٣) في سنن أبي داود١: ٦٥، وصحيح ابن خزيمة٢: ١٨١، وصحيح ابن حبان٦: ٣١٠.
(٤) ينظر: التبيان ص٦٦.
(٥) في صحيح البخاري٦: ١٩٢، وصحيح مسلم١: ٥٤٥.
(٦) في صحيح البخاري٦: ١٩٣، وصحيح مسلم١: ٥٤٣.

وعن أنس ﷺ قال ﷺ: «عُرضت عليّ أجور أُمتي، حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعُرضت علي ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثمّ نسيها»(١).

وعن سعد بن عبادة ﷺ، قال ﷺ: «مَن قرأ القرآن ثمّ نسيه لقي الله ﷻ يوم القيامة وهو أجذم»(٢).

٤ .**المحافظة على ورد القرآن اليومي**، فعن عمر ﷺ قال ﷺ: «مَن نام عن حزبه من الليل أو عن شيء منه، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظُّهر كُتب له كأنّه قرأه من الليل»(٣).

وعن سليمان بن يسار، قال أبو أسيد ﷺ: «نمت البارحة عن وردي حتى أصبحت، فلما أصبحت استرجعت، وكان وردي سورة البقرة فرأيت في المنام كأن بقرة تنطحني»(٤).

وعن عمر ﷺ، قال ﷺ: «مَن نام عن حزبه أو عن شيءٍ منه فقرأه فيما بين صلاةِ الفجر وصلاةِ الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل»(٥).

(١) في سنن أبي داود١: ١٣٦، وسنن الترمذي٥: ١٧٨، وتكلم فيه.

(٢) في سنن أبي داود٢: ١٧٥.

(٣) في صحيح مسلم١: ٥١٥، ومسند البزار١: ٤٢٨.

(٤) في المنامات لابن أبي الدنيا ص٩٨، والمجالسة وجواهر العلم٧: ٨٥، وقال النووي: رواه ابن أبي داود.

(٥) أخرجه مسلم رقم ٧٤٧ والترمذي رقم ٥٨١.

وينبغي أن يكون للمسلم ورداً في القرآن، وأوراداً في الصيام، وأوراداً في الذكر وأوراداً في الدعاء، وأوراداً في الصلاة، وأوراداً في الصدقة، بحيث يكون له نصيب من كلِّ هذه الخيرات، ويحافظ عليه ويواظب على فعله؛ ليكمل الذكر عنده، فيكن من الذاكرين الله تعالى والذاكرات.

وعليه أن يتدرج في هذا الأوراد بما يطيق، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل»[١]، وعنها، قال ﷺ: «خذوا من الأعمال ما تطيقون»[٢].

فيلازم ما يأخذ من أورادٍ، حتى تستقرّ في حياته، وتُصبح جزءاً من أعماله، فقد «كانت عائشة إذا عملت العمل لزمته»[٣]، ولا يزيد شيئاً عليها قبل ثبوتها.

ثانياً: فضيلة تلاوة القرآن:

١ .ارتفاع منزلة من تعلم القرآن: فعن عثمان رضي الله عنه، قال ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[٤].

---

(١) في صحيح مسلم١: ٥٤١.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٥٢٣ ومسلم رقم ٧٨٢.

(٣) في صحيح مسلم١: ٥٤١.

(٤) في صحيح البخاري٦: ١٦٢.

وعن عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن وهو يتتعتع فيه، وهو عليه شاق له أجران»(١).

وعن أنس ﷺ، قال ﷺ: «أهل القرآن أهل الله وخاصته»(٢).

وعن فضالة بن عبيد ﷺ، قال ﷺ: «لله أشدّ إذناً إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قينته»(٣).

قال الفضيل بن عياض: ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء فمن دونهم، فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه.

وقال أيضاً: حامل القرآن حامل راية الإسلام فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو تعظيما لحق القرآن.

قال أنس بن مالك ﷺ: رب تال للقرآن والقرآن يلعنه.

وقال ميسرة: الغريب هو القرآن في جوف الفاجر.

وقال ابن مسعود ﷺ: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون، وبنهاره إذا الناس يفرطون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس

---

(١) في صحيح البخاري٥: ١٦٦، وصحيح مسلم١: ٥٤٩.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم بإسناد حسن، كما في المغني١: ٢٧٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه، كما في المغني١: ٢٧٣.

يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكينا ليناً، ولاينبغي له أن يكون جافياً ولا ممارياً ولا صياحاً ولا صخاباً ولا حديداً.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً، إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً وقد أسقط العمل به[١].

٢.**عظم آجر من يتلو القرآن:** قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُور. لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُور} [فاطر:٣٠].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة، ريحها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة، لا ريح لها، وطعمها طيب حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مرّ»[٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[٣].

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين١: ٢٧٥.

(٢) في صحيح البخاري٧: ٧٧، وصحيح مسلم١: ٥٤٩.

(٣) في سنن الترمذي٥: ١٧٥، وقال: حسن صحيح غريب.

وعن ابن عمرو ﷺ، قال ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[١].

٣.شفاعة القرآن لمن يقرأه: فعن أبي أمامة الباهلي ﷺ، قال ﷺ: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»[٢].

٤.ينتفع الوالدان بقراءة القرآن والعمل به: فعن أنس الجهني ﷺ، قال ﷺ: «من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس الله والديه تاجاً يوم القيامة، ضوؤه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا، فما ظنكم بالذي عمل بهذا»[٣].

٥.القرآن حبل الله المتين وميزان الحق: فعن ابن مسعود ﷺ، قال ﷺ: «إن هذا القرآن مأدبة الله ﷻ، فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله ﷻ، والنور المبين، والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد»[٤].

---

(١) في سنن أبي داود٢: ٧٣، وسنن الترمذي٥: ١٧٧، وقال: حسن صحيح، وصحيح ابن حبان٣: ٤٣، ومسند أحمد١١: ٤٠٣.

(٢) في صحيح مسلم١: ٥٣٣.

(٣) في سنن أبي داود٢: ٧٠، والمستدرك١: ٧٥٦، وصححه.

(٤) في المستدرك ١: ٧٤١، وصححه، وأثبت لفظه من المستدرك لا من الدارمي كما في النووي.

ثالثاً: آداب قراءة القرآن:

١.أن يكون على الوضوء واقعاً على هيئة الأدب والسكون، إما قائماً وإما جالساً مستقبل القبلة مطرقاً رأسه غير متربع ولا متكئ ولا جالس على هيئة التكبر، ويكون جلوسه وحده كجلوسه بين يدي أستاذه وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائماً[١]، وأن يكون في المسجد فذلك من أفضل الأعمال، فعن ابن عباس رضي الله عنهم، قال ﷺ: «خير المجالس ما استقبل به القبلة»[٢].

ولو قرأ قائماً أو مضطجعاً أو في فراشه أو على غير ذلك من الأحوال جاز، وله أجر، ولكن دون الأول[٣]،قال عز وجل : {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران:١٩١].

فعن عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري، وأنا حائض ويقرأ القرآن»[٤]. وفي رواية: «يقرأ القرآن ورأسه في حجري»[٥].

---

(١) ينظر: الإحياء١: ٢٧٥.

(٢) في تهذيب الآثار٢: ٥٣٨، وتاريخ الرقة١: ١٣٥.

(٣) ينظر: التبيان ص٨٠.

(٤) في صحيح البخاري١: ٦٧، وصحيح مسلم١: ٢٤٦.

(٥) في صحيح البخاري٩: ١٥٩.

وعن أبي موسىٰ الأشعري ﷺ: «إني أقرأ القرآن في صلاتي، وأقرأ علىٰ فراشي»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: «إني لأقرأ حزبي وأنا مضطجعة علىٰ السرير»(٢).

٢. **الاستعاذة من الشيطان**، فإن أراد الشروع في القراءة استعاذ، فقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وكان جماعة من السلف يقولون: أعوذ بالله السَّميع العليم من الشيطان الرجيم، ولا بأس بهذا، ولكن الاختيار هو الأول.

ثمّ إنّ التَّعوُّذ مستحبٌّ وليس بواجب، ويُسنُّ في ابتداء الصلاة بعد الاستفتاح للإمام والمنفرد.

وينبغي أن يحافظ علىٰ قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة سوىٰ براءة.

فإذا شرع في القراءة، فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة، والدلائل عليه أكثر من أن تحصر، وأشهر وأظهر من أن تذكر، فهو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب، قال الله ﷻ: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} [النساء:٨٢]، وقال تعالىٰ: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} [ص:٢٩]، والأحاديثُ فيه كثيرةٌ، وأقاويلُ السَّلف فيه مشهورة، وقد

---

(١) ينظر: التبيان ص٨٠.

(٢) ينظر: التبيان ص٨٠.

بات جماعةٌ من السلف يتلون آية واحدة يتدبرونها، ويرددونها إلى الصباح، وقد صعق جماعة من السلف عند القراءة، ومات جماعات حال القراء(١).

وقال الخواص رضي الله عنه: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين(٢).

٣.ترديد الآية للتدبر: فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى أصبح بآية، والآية: {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم} [المائدة:١١٨]»(٣).

وعن تميم الداري رضي الله عنه: «أنّه كرَّر هذه الآية حتى أصبح: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَّن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُون} [الجاثية:٢١]»(٤).

وعن عبادة بن حمزة: «دخلت على أسماء رضي الله عنها، وهي تقرأ: {فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُوم} [الطور:٢٧]، فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو، فطال عليّ ذلك، فذهبت إلى السوق فقضيت

---

(١) ينظر: التبيان ص٨٥.

(٢) ينظر: التبيان ص٨٥.

(٣) في سنن النسائي الكبرى٢: ٢٤، ومسند أحمد٣٥: ٢٥٦، وشرح السنة للبغوي٤: ٢٦.

(٤) في المعجم الكبير٢: ٥٠.

حاجتي، ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو»[1]، ورويت هذه القصة عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

عن القاسم بن معن، «إنَّ أبا حنيفة قام ليلةً بهذه الآية: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ}[القمر:٤٦]، فلم يزل يُردّدها ويَبكي ويتضرّع»[2].

وردد ابن مسعود ﵁: {رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه:١١٤].

وردد سعيد بن جبير: {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ} [البقرة:٢٨١]، وردد أيضاً: {فَسَوْفَ يَعْلَمُون. إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُون} [غافر:٧١]، وردد: {مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم} [الانفطار:٦].

وكان الضحاك إذا تلا قوله تعالى: {لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} [الزمر:١٦] ردَّدها إلى السحر[3].

٤. **البكاء مستحب مع القراءة**، فعن سعيد بن أبي وقاص ﵁، قال ﷺ: «اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»[4].

---

(١) في مصنف ابن أبي شيبة٤: ٢٠٣، وحلية الأولياء٢: ٥٥.

(٢) ينظر: مناقب أبي حنيفة للذهبي ص١٤، وأبو حنيفة طبقته توثيقه ص١٤٩، وغيرهما.

(٣) ينظر: التبيان ص٨٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه بإسناد جيد، كما في المغني١: ٢٧٧.

فالبكاء في حال القراءة صفة العارفين، وشعار عباد الله الصالحين، قال الله تعالى: {وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء:١٠٩]، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة وآثار السلف فمن ذلك عن النبي ﷺ: «اقرؤوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»(١).

وعن عمر رضي الله عنه: «أنه صلى بالجماعة الصبح فقرأ سورة يوسف، فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته»(٢).

وعن أبي رجاء: «رأيت ابن عباس رضي الله عنهما، وتحت عينيه مثل الشراك البالي من الدموع»(٣).

وعن أبي صالح: «قدم ناس من أهل اليمن على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فجعلوا يقرؤون القرآن ويبكون، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: هكذا كنا»(٤).

وعن هشام: «ربما سمعت بكاء محمد بن سيرين في الليل، وهو في الصلاة»(٥).

قال الغَزَاليُّ(٦): «البكاء مستحبٌ مع القراءة وعندها، وطريقه في تحصيله

---

(١) في مسند سعد بن أبي وقاص ص٢١٤، مسند القضاعي٢: ٢٠٨.

(٢) ينظر: التبيان ص٨٦.

(٣) فضائل الصحابة لابن حنبل٢: ٩٧٨.

(٤) في المنتقى من سماعات محمد بن عبد الرحيم المقدسي١: ١١.

(٥) في شعب الإيمان٤: ٥١٢.

(٦) في إحياء علوم الدين ١: ٢٧٧، باختصار.

أن يحضر قلبه الحزن، بأن يتأمّل ما فيه من التَّهديد والوعيد الشديد، والمواثيق والعهود، ثمّ يتأمل تقصيره في ذلك، فإن لم يحضره حزن وبكاء، كما يحضر الخواص، فليبك على فقد ذلك، فإنه من أعظم المصائب».

٥. **الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر**، فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضا الترتيل والتؤدة؛ لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيراً في القلب من الهذرمة والاستعجال(١).

ففي الحديث: «نعتت أم سلمة قراءة النبي ﷺ، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً»(٢).

فينبغي أن يرتل قراءته، وقد اتفق العلماء رضي الله عنهم على استحباب الترتيل، قال الله تعالى: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً}[المزمل: ٤].

فعن أم سلمة رضي الله عنها: «أنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ: قراءة مفسّرةً حرفاً حرفاً»(٣).

وعن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه، قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح يرجع في قراءته»(٤).

---

(١) ينظر: الإحياء ١: ٢٧٧.

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي، وقال: حسن صحيح، كما في المغني ١: ٢٧٧.

(٣) في سنن الترمذي ٥: ١٨٢، وقال: حسن صحيح، وسنن النسائي الكبرى ٢: ٢٨.

(٤) في صحيح البخاري ٥: ١٤٧، وصحيح مسلم ١: ٥٤٧.

وعن ابن عبَّاس ﷺ قال: «لأن أقرأ سورة أرتلها أحبُّ إليّ من أن أقرأ القرآن كلَّه»[1].

وعن مجاهد أنه سُئل عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمران والآخر البقرة وحدها، وزمنهما وركوعهما وسجودهما وجلوسهما واحد سواء فقال: «الذي قرأ البقرة وحدها أفضل»[2].

وقد نهي عن الإفراط في الإسراع، ويسمى الهذرمة، فعن ابن مسعود ﷺ: «إنّ رجلاً قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال ابن مسعود ﷺ: هذّاً كهذِّ الشعر، إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»[3].

والترتيل مستحبٌّ للتدبر ولغيره.

ويستحبُّ الترتيل للعجمي الذي لا يفهم معناه؛ لأنّ ذلك أقرب إلى التوقير

والاحترام، وأشدُّ تأثيراً في القلب الدعاء، لكل مناسبة.

ويُستحبُّ إذا مَرَّ بآية رحمةٍ أن يسأل الله تعالى من فضله، وإذا مَرَّ بآية عذاب أن يستعيذ بالله من الشرّ ومن العذاب أو يقول: اللهم إني أسألك العافية، أو أسألك المعافاة من كلِّ مكروه أو نحو ذلك.

---

(١) في شعب الإيمان٣: ٤٧٤، ومصنف عبد الرزاق٢: ٤٨٩.

(٢) ينظر: التبيان ص٨٩.

(٣) في صحيح مسلم١: ٥٦٢.

وإذا مَرَّ بآية تنزيه لله تعالىٰ نزه، فقال سبحانه وتعالىٰ: أو تبارك وتعالىٰ أو جلت عظمة ربنا[١]، فعن حذيفة بن اليمان ﵁، قال: «صليت مع النبي ﷺ: ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة ثم مضىٰ، فقلت: يُصلي بها في ركعة فمضىٰ، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ ترسلاً، إذا مَرّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مَرَّ بسؤال سأل، وإذا مَرَّ بتعوذ تعوَّذ»[٢]، وكانت سورة النساء في ذلك الوقت مقدمةً علىٰ آل عمران.

٦.**مراعاة ترتيب القرآن في القراءة**، فالاختيار أن يقرأ علىٰ ترتيب المصحف، فيقرأ الفاتحة، ثم البقرة، ثم آل عمران، ثمّ ما بعدها علىٰ الترتيب، وسواء قرأ في الصلاة أو في غيرها، ودليل هذا أن ترتيب المصحف، إنما جعل هكذا لحكمة، فينبغي أن يحافظ عليها.

فعن الحسن: أنه كان يكره أن يقرأ القرآن إلا علىٰ تأليفه في المصحف.

وعن ابن مسعود ﵁: «أنه قيل له: إن فلاناً يقرأ القرآن منكوساً، فقال ذلك منكوس القلب»[٣].

وأمّا قراءةُ السُّور من آخرها إلىٰ أولها، فممنوع منعاً متأكداً، فإنّه يُذهب بعض ضروب الإعجاز، ويُزيل حكمة ترتيب الآيات، وقد روىٰ ابن أبي

---

(١) ينظر: التبيان ص٩١.

(٢) في صحيح مسلم١: ٥٣٦.

(٣) المعجم الكبير٣٤٢، وشعب الإيمان٤: ٩، والمصاحف لابن أبي داود١: ٣٤٢.

داود عن إبراهيم النخعي الإمام التابعي الجليل، والإمام مالك بن أنس أنهما كرها ذلك، وأن مالكاً كان يعيبه، ويقول: هذا عظيم.

وأمَّا تعليم الصِّبيان من آخر المصحف إلىٰ أوله، فحسنٌ ليس هذا من هذا الباب، فإن ذلك قراءة متفاضلة في أيام متعددة مع ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم(١).

٧. **القراءة من المصحف،** فقراءة القرآن من المصحف أفضل من القراءة عن ظهر القلب؛ لأنّ النظر في المصحف عبادة مطلوبة، فتجتمع القراءة والنظر، ونقل الغزاليّ(٢): أنّ كثيرين من الصحابة ﷺ كانوا يقرؤون من المصحف، ويكرهون أن يخرج يوم، ولم ينظروا في المصحف.

وروىٰ ابنُ أبي داود القراءة في المصحف عن كثيرين من السلف ولم أر فيه خلافاً، ولو قيل: إنه يختلف باختلاف الأشخاص، فيختار القراءة في المصحف لمن استوىٰ خشوعه وتدبره في حالتي القراءة في المصحف، وعن ظهر القلب ويختار القراءة عن ظهر القلب لمن لم يكمل بذلك خشوعه ويزيد علىٰ خشوعه وتدبره لو قرأ من المصحف لكان هذا قولاً حسناً، والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمولٌ علىٰ هذا التفصيل(٣).

---

(١) ينظر: التبيان ص٩٨ ـ ٩٩.

(٢) في إحياء علوم الدين ١: ٢٧٩.

(٣) ينظر: التبيان ص١٠٠.

٨.**قراءة القرآن مجتمعين،** قال النووي[١]: «اعلم أنّ قراءةَ الجماعة مجتمعين مستحبةٌ بالدَّلائل الظاهرة وأفعال السلف والخلف المتظاهرة»، فعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم أنه قال: «ما من قوم يذكرون الله إلا حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمَن عنده»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكره الله فيمن عنده»[٣].

وعن معاوية رضي الله عنه: «أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم خرج على حلقةٍ من أصحابه، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده لما هدانا للإسلام ومَن علينا به، فقال: أتاني جبريل عليه السلام، فأخبرني أنّ اللهَ تعالى يُباهي بكم الملائكة»[٤]، والأحاديث في هذا كثيرة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مَن استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نوراً»[٥].

---

(١) في التبيان ص١٠١.

(٢) في سنن الترمذي٥: ٤٥٩، وقال: حسن صحيح.

(٣) في صحيح مسلم٤: ٢٠٧٤.

(٤) في سنن الترمذي٥: ٤٦٠، وحسنه، وصحيح ابن حبان٣: ٩٥.

(٥) في سنن الدارمي٤: ٢١٢٠.

وروىٰ ابن أبي داود: «أنّ أبا الدرداء ﵁ كان يدرس القرآن معه نفرٌ يقرؤون جميعاً».

وروىٰ ابن أبي داود فعل الدراسة مجتمعين عن جماعات من أفاضل السَّلف والخلف وقضاة المتقدمين.

وعن حسان بن عطية والأوزاعي أنهما قالا: أوَّل مَن أحدث الدراسة في مسجد دمشق هشام بن إسماعيل في مَقْدمه علىٰ عبد الملك.

وأمَّا ما روىٰ ابنُ أبي داود عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب أنه أنكر هذه الدراسة، وقال: ما رأيت ولا سمعت، وقد أدركت أصحاب رسول الله ﷺ: يعني ما رأيت أحداً فعلها.

وعن وهب قال: قلت لمالك: أرأيت القوم يجتمعون فيقرؤون جميعاً سورةً واحدةً حتىٰ يختموها، فأنكر ذلك وعابه، وقال: ليس هكذا تصنع الناس إنّما كان يقرأ الرجل علىٰ الآخر يعرضة.

فهذا الإنكار منهما مخالفٌ لما عليه السلف والخلف، ولما يقتضيه الدليل فهو متروك، والاعتماد علىٰ ما تقدَّم من استحبابها لكن القراءة في حال الاجتماع لها شروط قدمناها، ينبغي أن يعتنىٰ بها.

وأمَّا فضيلة مَن يجمعهم علىٰ القراءة، ففيها نصوصٌ كثيرةٌ كقوله ﷺ:

«الدال على الخير كفاعله»[١]، وقوله ﷺ: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النِّعم»[٢]، والأحاديثُ فيه كثيرةٌ مشهورةٌ، وقد قال الله تعالى: {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ} [المائدة:٢]، ولا شكَّ في عظم أَجر السَّاعي في ذلك.

والإدارة بالقرآن: وهو أن يجتمع جماعة يقرأ بعضهم عشراً أو جزءاً أو غير ذلك، ثم يسكت ويقرأ الآخر من حيث انتهى الأول، ثم يقرأ الآخر، وهذا جائز حسن، وقد سُئل مالك، فقال: لا بأس به[٣].

٩. **رفع الصوت بالقراءة**، فقد جاء أحاديثُ كثيرةٌ في الصَّحيح وغيره دالّةٌ على استحباب رفع الصَّوت بالقراءة، وجاءت آثار دالّة على استحباب الإخفاء وخفض الصَّوت، وسنذكر منها طرفاً يسيراً إشارة إلى أصلها إن شاء الله تعالى:

وطريق الجمع بين الأحاديث والآثار المختلفة في هذا: أنَّ الإسرار أبعد من الرِّياء، فهو أفضل في حقِّ مَن يَخاف ذلك، فإن لم يخف الرِّياء فالجهر ورفع الصوت أفضل؛ لأنَّ العملَ فيه أكثر، ولأنّ فائدته تتعدَّى إلى غيره، والمتعدِّي أفضلُ من اللازم، ولأنه يوقظ قلب القارئ، ويجمع همّه إلى الفكر فيه، ويصرف

---

(١) في سنن الترمذي٥: ٤١، ومسند أبي حنيفة ر٢٢، ومسند أحمد٣٧: ٤٣، وغيرها.

(٢) في صحيح البخاري٥: ١٨، وصحيح مسلم٤: ١٨٧٢.

(٣) ينظر: التبيان ص١٠٢ ـ ١٠٣.

سمعه إليه، ويطرد النَّوم، ويزيد في النَّشاط ويوقظ غيره من نائم وغافل وينشطه.

ومهما حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل، فإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر، فهذا حكم المسألة.

وأما الآثار المنقولة فكثيرة، وأنا أشير إلى أطراف من بعضها[1]:

فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي ﷺ، حسن الصوت، يتغنى بالقرآن، يجهر به»[2]، ومعنى أذن استمع، وهو إشارة إلى الرضا والقبول.

وعن أبي موسى الأشعري ﵁، قال ﷺ: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»[3]، وفي رواية: «لقد رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة»[4].

وعن فضالة بن عبيد ﵁ قال ﷺ: «لله أشد إذناً إلى الرجل حسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»[5].

---

(١) ينظر: التبيان ص١٠٥.

(٢) في صحيح البخاري٦: ١٥٨، وصحيح مسلم١: ٤٥٤.

(٣) في صحيح البخاري٦: ١٩٥، صحيح مسلم١: ٥٤٦.

(٤) في صحيح مسلم١: ٥٤٦.

(٥) في سنن ابن ماجة١: ٤٢٥، وصحيح ابن حبان٣: ٣١.

وعن أبي موسى ﵁ قال ﷺ: «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار»(١).

وعن البراء بن عازب ﵁ قال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»(٢).

وروى ابن أبي داود عن عليّ ﵁ أنه سمع ضجةَ ناس في المسجد يقرؤون القرآن فقال: طوبى لهؤلاء كانوا أحبّ الناس لرسول الله ﷺ، وفي إثبات الجهر أحاديث كثيرة.

وأمَّا الآثار عن الصَّحابة والتَّابعين من أقوالهم وأفعالهم، فأكثر من أن تحصر وأشهر من أن تُذكر، وهذا كلُّه فيمَن لا يخاف رياءً ولا إعجاباً ولا نحوهما من القبائح، ولا يؤذي جماعةً يُلبس عليهم صلاتهم، ويخلطها عليهم.

وقد نُقل عن جماعةِ السلف اختيار الإخفاء لخوفهم مما ذكرناه، فعن الأعمش قال: دخلت على إبراهيم، وهو يقرأ بالمصحف، فاستأذن عليه رجلٌ فغطّاه، وقال: لا يرى هذا أني أقرأ كلَّ ساعة(٣).

---

(١) في صحيح البخاري٥: ١٣٨، وصحيح مسلم٤: ١٩٤٤.

(٢) في سنن أبي داود٢: ٧٤، وسنن النسائي الكبرى٢: ٢٦، وسنن ابن ماجه١: ٤٢٦، وصحيح ابن خزيمة٣: ٢٤.

(٣) ينظر: التبيان ص١٠٧.

وعن أبي العالية قال: «كنت جالساً مع أصحاب رسول الله ﷺ، فقال رجل منهم: قرأت الليلة كذا، فقالوا: هذا حظك منه»(١).

ويستدلّ لهؤلاء بحديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال ﷺ: «الجاهرُ بالقرآن كالجاهر بالصَّدقة، والمسرُّ بالقرآن كالمسرِّ بالصَّدقة»(٢)، ومعناه أنّ الذي يُسرّ بقراءة القرآن أفضل من الذي يجهر بها؛ لأنّ صدقة السرّ أفضل عند أهل العلم من صدقة العلانية، قال: وإنّما معنى هذا الحديث عند أهل العلم، لكي يأمن الرجل من العجب؛ لأنّ الذي يُسرّ بالعمل لا يخاف عليه من العُجب، كما يخاف عليه من علانيته.

فكان الأولى التفصيل وهو إن خاف بسبب الجهر شيئاً مما يكره لم يجهر، وإن لم يخف استحبّ الجهر، فإن كانت القراءة من جماعة مجتمعين تأكّد استحباب الجهر، ولما يحصل فيه من نفع غيرهم(٣).

١٠. **استحباب تحسين الصوت بالقراءة**، وقد أجمع العلماءُ من السَّلف والخلف من الصَّحابة والتابعين، ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وأقوالُهم وأفعالُهم مشهورة نهاية الشهرة، فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها.

---

(١) في الزهد لأبي داود ص٣٤٢.

(٢) في سنن أبي داود١: ١٤٠، وسنن الترمذي٥: ١٨٠، وحسنه، وسنن النسائي الكبرى٣: ٦٣، وصحيح ابن خزيمة٣: ٨.

(٣) ينظر: التبيان ص١٠٨.

فعن البراء بن عازب ﵁، قال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»(١).

وعن أبي هريرة ﵁، اقل ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن»(٢)

وعن عبد الله بن مغفَّل في ترجيع النَّبيِّ ﷺ القراءة، فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: « ليس منا مَن لم يتغن بالقرآن»(٣)، قال جمهور العلماء: معنى لم يتغن لم يحسن صوته.

وعن البراء ﵁، قال ﷺ: «قرأ في العشاء بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه»(٤)، قال العلماء: فيستحبُّ تحسين الصوت بالقراءة ترتيبها ما لم يخرج عن حدّ القراءة بالتمطيط، فإن أفرط حتى زاد حرفاً أو أخفاه، فهو حرام.

وقيل: لابن أبي مليكة: «أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت، فقال: يحسنه ما استطاع»(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه، كما في المغني١: ٢٧٩.

(٢) متفق عليه. ، كما في المغني١: ٢٧٩.

(٣) في صحيح البخاري٩: ١٥٤، وسنن أبي داود٢: ٧٤.

(٤) في صحيح البخاري١: ١٥٣، وصحيح مسلم١: ٣٣٩:

(٥) في سنن أبي داود٢: ٧٤.

قال النَّوويُّ[(١)]: «اعلم أنّ جماعات من السَّلف كانوا يطلبون من أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة أن يقرؤوا، وهم يستمعون، وهذا متفقٌ على استحبابه، وهو عادة الأخيار والمتعبدين، وعباد الله الصالحين، وهي سُنّةٌ ثابتةٌ عن رسول الله ﷺ... والآثارُ في هذا كثيرةٌ معروفةٌ».

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال ﷺ: «اقرأ عليّ القرآن، فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك، وعليك أُنزل، قال: إني أحبُّ أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاء شَهِيدًا}[النساء:٤١]، قال: حسبك الآن، فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان»[(٢)].

وعن عمر رضي الله عنه كان يقول لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «ذكّرنا رَبَّنا، فيقرأ عنده القرآن»[(٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها، «كان ينتظرني ﷺ فأبطأت عليه، فقال: ما حبسك، قالت: يا رسول الله كنت أسمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه، فقام ﷺ حتى استمع إليه طويلاً، ثم رجع فقال: هذا سالم مولى أبي حذيفة الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله»[(٤)].

---

(١) في التبيان ص١١٣.

(٢) في صحيح البخاري٦: ١٩٦، و

(٣) في صحيح ابن حبان١٦: ١٦٨، وسنن الدارمي٤: ٢١٩٠.

(٤) أخرجه أبو داود، ورجال إسناده ثقات، كما في المغني١: ٢٧٩.

١١. **استفتاح المجالس بقراءة القرآن**، فقد استحبَّ العلماءُ أن يستفتحَ مجلس حديث النبي ﷺ، ويختم بقراءة قارئ حسن الصوت ما تيسّر من القرآن، ثمّ إنّه ينبغي للقارئ في هذه المواطن أن يقرأ ما يليق بالمجلس ويُناسبه، وأن تكون قراءته في آيات الرجاء والخوف والمواعظ، والتَّزهيد في الدُّنيا، والتَّرغيب في الآخرة، والتأهب لها، وقصر الأمل، ومكارم الأخلاق(١).

١٢. **الدعاء عند ختم القرآن**، فيستحب الدعاء عقيب الختم، فعن حميد الأعرج، قال: «مَن قرأ القرآن ثمّ دعا أمن على دعائه أربعة آلاف ملك»(٢).

وينبغي أن يلح في الدعاء، وأن يدعو بالأمور المهمة، وأن يكثر في ذلك في صلاح المسلمين، وصلاح سلطانهم، وسائر ولاة أمورهم، فعن ابن المبارك: «كان إذا ختم القرآن أكثر دعائه للمسلمين والمؤمنين والمؤمنات»(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده، فدعا لهم»(٤).

ويختار الداعي الدعوات الجامعة كقوله:

---

(١) ينظر: التبيان ص١١٤.

(٢) في سنن الدارمي٤: ٢١٨٤.

(٣) في شعب الإيمان٣/ ٥١٦أ

(٤) في المعجم الكبير١: ٢٤٢، وشعب الإيمان٣: ٤٢١.

اللهم أصلح قلوبنا، وأزل عيوبنا وتولنا بالحسنىٰ، وزينا بالتَّقوىٰ، واجمع لنا خير الآخرة والأولىٰ، وارزقنا طاعتك ما أبقيتنا.

اللهم يسرنا لليسرىٰ، وجنبنا العسرىٰ، وأعذنا من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، وأعذنا من عذاب النّار، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال.

اللهم إنا نسألك الهدىٰ والتقوىٰ والعفاف والغنىٰ.

اللهم إنا نستودعك أدياننا وأبداننا، وخواتيم أعمالنا وأنفسنا وأهلينا وأحبابنا وسائر المسلمين، وجميع ما أنعمت علينا وعليهم من أمور الآخرة والدنيا.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدِّين والدُّنيا والآخرة، واجمع بيننا وبين أحبابنا في دار كرامتك بفضلك ورحمتك.

اللهم أصلح ولاة المسلمين ووفقهم للعدل في رعاياهم، والإحسان إليهم والشفقة عليهم، والرفق بهم، والاعتناء بمصالحهم، وحببهم إلىٰ الرعية، وحبِّب الرَّعية إليهم، ووفقهم لصراطك المستقيم، والعمل بوظائف دينك القويم.

اللهم أُلطف بعبدك سلطاننا، ووفقه لمصالح الدنيا والآخرة، وحببه إلىٰ رعيته، وحبب الرَّعية إليه، ويقول باقي الدعوات المذكورة في جملة الولاة ويزيد.

اللهم ارحم نفسه وبلاده وصن أتباعه وأجناده، وانصره على أعداء الدين وسائر المخالفين، ووفقه لإزالة المنكرات، وإظهار المحاسن، وأنواع الخيرات، وزد الإسلام بسببه ظهوراً، وأعزّه ورعيته إعزازاً باهراً.

اللهم أصلح أحوال المسلمين وأرخص أسعارهم، وأمنهم في أوطانهم واقض ديونهم، وعاف مرضاهم، وانصر جيوشهم وسَلِّم غيابهم، وفك أسراهم، واشف صدورهم، وأذهب غيظ قلوبهم، وألف بينهم، واجعل في قلوبهم الإيمان والحكمة، وثبتهم على ملّة رسولك ﷺ، وأوزعهم من يوفوا بعهدك الذي عاهدتهم عليه، وانصرهم على عدوك وعدوهم، إله الحقّ، واجعلنا منهم.

اللهم اجعلهم آمرين بالمعروف، فاعلين به، ناهين عن المنكر، مجتنبين له، محافظين على حدودك، قائمين على طاعتك، متناصفين متناصحين.

اللهم صنهم؛ لأنّ في أقوالهم وأفعالهم، وبارك لهم في جميع أحوالهم.

ويفتتح دعاءه ويختمه بقوله: الحمد لله رب العالمين حمداً يُوافي نعمه، ويكافئ مزيده.

اللهم صلِّ وسَلِّم على سيدنا محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمّد كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد(١).

---

(١) ينظر: التبيان ص١٦٢.

ويُستحبُّ إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أُخرىٰ عقيب الختمة، فقد استحبه السَّلف، فعن أنس وابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم، أنّ رجلاً قال: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «الحال المرتحل قال: يا رسول الله وما الحال المرتحل؟ قال: يضرب من أول القرآن إلىٰ آخره، ومن آخره إلىٰ أوله»(١).

١٣. مراعاة المأثور في افتتاح القرآن وختمه:

وقت الابتداء والختم لمن يختم في الأسبوع، فقد روىٰ أبو داود أن عثمان بن عفان رضي الله عنه: «كان يفتتح القرآن ليلة الجمعة ويختمه ليلة الخميس»(٢).

قال الغَزَاليُّ(٣): «والأحب أن يختم ختمةً باللَّيل، وأُخرىٰ بالنَّهار، ويجعل ختمة النَّهار يوم الإثنين في ركعتي الفجر أو بعدهما، ويجعل ختمة الليل ليلة الجمعة في ركعتي المغرب» أو بعدهما؛ ليستقبل أول النهار وآخره».

وعن عمر بن مرّة: «كانوا يحبون أن يختم القرآن من أول الليل أو من أول النهار»(٤).

---

(١) في سنن الترمذي٥: ١٩٧، وسنن الدارمي٤: ٢١٨٠، والمستدرك١: ٧٥٧، والمعجم الكبير١٢: ١٦٨.

(٢) ينظر: التبيان ص٦٢.

(٣) في إحياء علوم الدين١: ٢٧٦.

(٤) ينظر: التبيان ص٦٣.

وعن طلحة بن مصرف: «مَن ختم القرآن أية ساعة كانت من النهار، صلَّت عليه الملائكة حتى يُمسي، وأية ساعة كانت من الليل صلَّت عليه الملائكة حتى يصبح»، وعن مجاهد مثله[١].

وعن سعد بن أبي وقاص ﵁، قال: «إذا وافق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح، وإذا وافق ختمه آخر الليل صلت عليه الملائكة حتى يمسي»[٢].

وعن حبيب بن أبي ثابت: «كان يختم قبل الركوع»، وكذا قال أحمد بن حنبل[٣].

رابعاً: الآيات المستحبة في أوقات وأحوال مخصوصة:

هذا البابَ واسعٌ جداً لا يُمكن حصره؛ لكثرة ما جاء فيه، ولكن نشير إلى بعضها:

يستحبُّ أن يقرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فعن أبي سعيد ﵁، قال ﷺ: «إن من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين»[٤].

---

(١) ينظر: التبيان ص٦٣.

(٢) في سنن الدارمي٤: ٢١٨٤، وحسنه.

(٣) ينظر: التبيان ص٦٣.

(٤) في المستدرك٢: ٣٩٩.

وعن أبي سعيد ﵁: «مَن قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له النور فيما بينه وبين البيت العتيق»[(١)].

ويستحبُّ الإكثار من تلاوة آية الكرسي في جميع المواطن، وأن يقرأها كلَّ ليلة إذا أوىٰ إلىٰ فراشه، وأن يقرأ المعوذتين عَقِب كلِّ صلاة، فعن عقبة بن عامر ﵁ قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ المعوذتين دبر كلِّ صلاة»[(٢)].

ويُستحبُّ أن يقرأ عند النوم: آية الكرسي، و{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد} والمعوذتين، وآخر سورة البقرة، فهذا مما يهتم له، ويتأكد الاعتناء به.

فعن أبي مسعود ﵁، قال ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، مَن قرأهما في ليلة كفتاه»[(٣)]، قال جماعة من أهل العلم: كفتاه عن قيام الليل، وقال آخرون: كفتاه المكروه في ليلته.

وعن عائشة رضي الله عنها: «أنّ النبيَّ ﷺ كان إذا أوىٰ إلىٰ فراشه كلَّ ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد} و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَق} [الفلق:١] و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس} [الناس:١]، ثمّ يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما علىٰ رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات»[(٤)].

---

(١) في سنن الدارمي٤: ٢١٤٣.

(٢) في سنن أبي داود٢: ٨٦، ومسند أحمد٢٩: ٣٣٠، وصححه النووي.

(٣) في صحيح البخاري٥: ٨٤.

(٤) في صحيح البخاري٦: ١٩٠.

وعن علي ﷺ: «ما كنت أرى أحداً يعقل دخل في الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسي».

وعن علي ﷺ: «ما كنت أرى أحداً يعقل ينام قبل أن يقرأ الآيات الثلاث الأواخر من سورة البقرة»(١).

وعن إبراهيم النخعي: كانوا يستحبون أن يقرؤوا هذه السور كل ليلة ثلاث مرات، {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد} والمعوذتين.

وعن عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني اسرائيل»(٢).

ويستحبُّ أن يقرأ إذا استيقظ من النَّوم كلَّ ليلة آخر آل عمران، فعن عباس ﷺ: «أنه رقد عند رسول الله ﷺ، فاستيقظ فتسوك وتوضأ، وهو يقول: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَاب} [آل عمران:١٩٠] فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة»(٣).

ويستحبُّ أن يقرأ عند المريض بالفاتحة، فعن أبي سعيد ﷺ: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ أتوا على حي من أحياء العرب فلم يقروهم، فبينما هم كذلك، إذ لدغ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تقرونا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً، فجعلوا لهم قطيعاً من

(١) في سنن الدارمي٤: ٢١٣٠، وقال النووي: إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم.

(٢) في سنن الترمذي٥: ١٨١، وحسنه.

(٣) في صحيح مسلم١: ٥٣٠.

الشاء، فجعل يقرأ بأم القرآن، ويجمع بزاقه ويتفل، فبرأ فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ، فسألوه فضحك وقال: «وما أدراك أنها رقية، خذوها واضربوا لي بسهم»(١).

ويستحب أن يقرأ عنده: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد} و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَق} و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس} مع النفث في اليدين.

وعن طلحة بن مطرف رضي الله عنه قال: «كان المريض إذا قرئ عنده القرآن وجد لذلك خفة، فدخلت على خيمته، وهو مريض، فقلت: إني أراك اليوم صالحاً، فقال: إني قرئ عندي القرآن»(٢).

وعن محمد بن مخلد: «أنّ الرمادي كان إذا اشتكى شيئاً، قال: هاتوا أصحاب الحديث، فإذا حضروا قال: اقرؤوا على الحديث»(٣)، فهذا في الحديث فالقرآن أولى(٤).

خامساً: أعمال الباطن في التلاوة:

فهم أصل الكلام ثم التعظيم ثم حضور القلب ثم التدبر ثم التفهم ثم التخلي عن موانع الفهم ثم التخصيص ثم التأثر ثم الترقي ثم التبري.

---

(١) في صحيح البخاري ٧: ١٣١.

(٢) في شعب الإيمان ٤: ١٧١.

(٣) في تاريخ دمشق ٦: ٢٧.

(٤) ينظر: التبيان ص١٧٦ـ ١٨٣.

١. **فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه**، فلينظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه، وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر؛ إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عز وجل إلا بوسيلة صفات نفسه.

٢. **التعظيم للمتكلم**، فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، وأن في تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر، فإنه تعالى قال: {لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُون}[الواقعة:٧٩]، وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً، فباطن معناه أيضاً بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهراً عن كل رجس ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير، وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب.

٣. **حضور القلب وترك حديث النفس**، قيل: في تفسير {يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}[مريم:١٢]: أي بجد واجتهاد، وأخذه بالجد أن يكون متجرداً له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره.

٤. **التدبر**، وهو وراء حضور القلب، فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن، ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه، وهو لا يتدبره، والمقصود من القراءة التدبر، ولذلك سُنَّ لأن الترتيل فيه الترتيل في الظاهر؛ ليتمكن من التدبر بالباطن.

قال علي رضي الله عنه: لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبر فيها.

وإذا لم يتمكن من التدبر، إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام، فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أُخرىٰ كان مسيئاً مثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية كلامه.

٥. **التفهم**، وهو أن يستوضح من كلِّ آية ما يَليق بها؛ إذ القرآن يشتمل علىٰ ذكر صفات الله عز وجل وذكر أفعاله وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا وذكر أوامره وزواجره وذكر الجنة والنار.

أما صفات الله عز وجل فكقوله تعالىٰ: {لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ}[الشورىٰ:١١]، وكقوله تعالىٰ: {ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ}[الحشر:٢٣]، فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات؛ لينكشف له أسرارها فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين.

وأما أفعاله تعالىٰ فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها، فليفهم التالي منها صفات الله عز وجل وجلاله إذا الفعل يدلُّ علىٰ الفاعل، فتدلُّ عظمته علىٰ عظمته، فينبغي أن يشهد في العقل الفاعل دون الفعل، فمَن عرف الحقَّ رآه في كلِّ شيء؛ إذ كل شيء فهو منه وإليه وبه وله، فهو الكلُّ علىٰ التحقيق.

ومَن لا يراه في كلِّ ما يَراه فكأنه ما عرفه، ومَن عرفه عرف أن كلَّ شيء ما خلا الله باطل، وأنَّ كلَّ شيء هالك إلا وجهه، لا أنه سيبطل في ثاني الحال، بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هو إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وبقدرته، فيكون له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض.

وهذا مبدأ من مبادئ علم المكاشفة ولهذا ينبغي إذا قرأ التالي قوله عز وجل: {أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ}[الواقعة:٦٣]، {أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ}[الواقعة:٥٨] {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ}[الواقعة:٦٨] {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ}[الواقعة:٧١]، فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمني، بل يتأمل في المني وهو نطفة متشابهة الأجزاء، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة.

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام، فإذا سمع منها كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم، فليفهم منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم، وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر في ملكه شيئاً، وإذا سمع نصرتهم في آخر الأمر، فليفهم قدرة الله عز وجل وإرادته لنصرة الحق.

وأما أحوال المكذبين كعاد وثمود وما جرىٰ عليهم، فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته، وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل فربّما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية.

وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن، فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه؛ لأنّ ذلك لا نهاية له، وإنما لكل عبد بقدر رزقه فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً.

٦.**التخلي عن موانع الفهم**، فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان علىٰ قلوبهم، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن.

٧.**التخصيص**، وهو أن يقدر أنه المقصود بكلِّ خطاب في القرآن، فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً، فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السَّمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به، وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه، فما من قصّة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي ﷺ وأمته، ولذلك قال تعالىٰ: {مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ}[هود:١٢٠]، فليقدر العبد أن الله تعالىٰ ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبّرهم علىٰ الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالىٰ.

٨.**التأثر**، وهو أن يتأثر قلبُه بآثار مختلفةٍ بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كلِّ فهمٌ حالٌ ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره.

ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه، فإن التضييق غالب على آيات القرآن، فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله تعالى: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ}[طه:٨٢] ثم أتبع ذلك بأربعة شروط: {لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ}[طه:٨٢].

٩.**الترقي**، وأعني به أن يترقَّى إلى أن يَسمع الكلام من الله تعالى لا من نفسه، فدرجات القراءة ثلاث:

أ.أدناها أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله تعالى واقفاً بين يديه، وهو ناظر إليه ومستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال.

ب.أن يشهد بقلبه كأن الله تعالى يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم.

ج. أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه، ولا إلى قراءته، ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه، بل يكون مقصور الهمّ على المتكلم موقوف الفكر عليه، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره، وهذه درجة المقربين، وما قبله درجة أصحاب اليمين، وما خرج عن هذا، فهو درجات الغافلين.

١٠. **التبري**، وأعني به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بين الرضا والتزكية، فإذا تلا بآيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك، بل يشهد الموقنين والصديقين فيها، ويتشوف إلى أن يلحقه الله تعالى بهم، وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفاً وإشفاقاً[1].

---

(١) ينظر: الإحياء١: ٢٨٠ـ٢٨٨.

المبحث الرابع
الأذكار والدعوات

ليس بعد تلاوة كتاب الله تعالى عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله تعالى، ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إلى الله تعالى، فعن ابن عمر ﵄: «إِنْ كُنا لنعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور، مائة مرة»(١).

وكان الصحابة ﵃ والصالحون يتنافسون في كثرة الذكر لله تعالى؛ لأنها من الخيرات التي يستحن الزيادة فيها، وقد روي «أن أبا هريرة ﵁ كان يسبِّح في اليوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة»(٢).

المطلب الأول: الأذكار:

سبق الكلام عن فضل الذكر في القرآن والسنة وثمرته، فلا يعاد هاهنا، ويكفي بالتذكير به قوله تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}[البقرة: ١٥٢]، قال ثابت

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٤٧٢٦ والترمذي رقم ٣٤٣٤ وأبو داود رقم ١٥١٦، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٦١٨ وقال: «الرحيم» بدل «الغفور».
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم ٢٦٧٣٣.

البناني: إني أعلم متى يذكرني ربي عز وجل ففزعوا منه، وقالوا: كيف تعلم ذلك، فقال: إذا ذكرته ذكرني.

فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»[1]، وهذا تأكيد لمعنى الآية بتعلق تأييد الله تعالى لنا إن كنا ذاكرين له سبحانه.

أولاً: فضل مجالس الذكر والاجتماع عليه:

الاجتماع على الذكر من أبرز الوسائل التي سلكها المربون لتحقيق الذكر عند الراغبين به، فعقدوا المجالس بطريقة دورية منتظمة في كلِّ أُسبوع بحيث يرتادها المتسابقون لمرضاة الله تعالى، وهذه المجالس في طاعة الله تعالى قد كثرة النصوص الشرعية في الترغيب بها والحثّ عليها، ومنها:

١. مباهاة الله تعالى لملائكته بالجالسين لذكر الله تعالى؛ لعلوِّ مقامهم ورفعة درجتهم، وحسن فعلهم، فعن أبي سعيد الخدري ﵁، قال: قال معاوية ﵁: إن رسول الله ﷺ خرج على حلقة يعني من أصحابه فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا ندعو الله ونحمده على ما هدانا لدينه، ومن علينا بك، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟، قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وإنما أتاني جبريل ﵇ فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة»[2].

---

(١) أخرجه البيهقي وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد، كما في المغني١: ٢٣٧.

(٢)في سنن النسائي الكبرى٨: ٢٤٩، وصحيح ابن حبان٣: ٩٥.

٢. **نزول الرحمة ومحفة الملائكة لمجالس الذكر**، فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه»(١).

٣. **التماس الملائكة مجالس الذكر**، فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك؟ قال: يقول: وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا وتحميدا، وأكثر لك تسبيحاً، قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشدّ لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة، قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم

---

(١) في صحيح مسلم ٤: ٢٠٧٤.

فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم»(١).

٤. اعتبار النبي ﷺ مجالس الذكر رياض الجنة في الأرض، فعن أنس ﷺ، قال ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر»(٢).

٥. مجالسة أهل الذكر خير من التجارات والأموال وغيرها من شهوات الدنيا، فعن أنس ﷺ، قال ﷺ: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل، ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس أحب إلي من أن أعتق أربعة»(٣).

ثانياً: فضل الجهر بالذكر:

اختلفت الأحاديث في الجهر بالذكر والإخفاء، فمما ورد في الجهر، فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ

---

(١) في صحيح البخاري٨: ٨٦.

(٢) في سنن الترمذي٥: ٥٣٢، وحسنه.

(٣) حديث صحيح، أخرجه أبو داود برقم ٣٦٦٧، عن أنس ﷺ.

خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»(١).

ومما ورد في الإخفاء، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ، قال ﷺ: «خير الذكر الخفي، وخير الرزق، أو العيش، ما يكفي»(٢).

والجمع بينها بأن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، فيحمل الإخفاء على خوف الرياء أو تأذي المصلين أو النيام، فإن خلا مما ذكر، فإن الجهر أفضل؛ لأنه أكثر عملاً، ولتعدي فائدته إلى السامعين، ويوقظ قلب الذاكر، فيجمع همه إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم، ويزيد النشاط(٣).

فعن أبي قتادة ﷺ: «أن النبي ﷺ خرج ليلة، فإذا هو بأبي بكر ﷺ يصلي يخفض من صوته، قال: ومر بعمر بن الخطاب، وهو يصلي رافعاً صوته، قال: فلما اجتمعا عند النبي ﷺ، قال: يا أبا بكر، مررت بك وأنت تصلي تخفض صوتك، قال: قد أسمعت من ناجيت يا رسول الله، قال: وقال لعمر: مررت بك، وأنت تصلي رافعاً صوتك، قال: فقال: يا رسول الله، أوقظ الوسنان،

---

(١) في صحيح البخاري٩: ١٢١.
(٢) في صحيح ابن حبان٣: ٩١، ومسند أحمد٣: ٧٦.
(٣) ينظر: رد المحتار١: ٦٦٠.

وأطرد الشيطان، فقال النبي ﷺ: يا أبا بكر ارفع من صوتك شيئاً، وقال لعمر: اخفض من صوتك شيئاً»[١].

قال ابن عطاء[٢]: «إذا كان هـذا في القرآن، وهو أفضل الذكر فغيره كذلك بل أولى، وينبغي للذاكر إذا كان وحده إن كان من الخاصـة أن يخفض صوته بالذكر، وإن كان من العامة أن يجهر به، وإن كان الذاكرون جماعة فالأولى في حقِّهم رفع الصوت بالذكر مع توافق الأصوات بطريقة واحدة موزونة».

وقد شبه الغزالي ذكر الإنسان وحده وذكر الجماعة بأذان المنفرد، وأذان الجماعة، قال: فكما أن أصوات المؤذنين جماعة تقطع جرم الهواء أكثر من صوت المؤذن الواحد كذلك ذكر الجماعة على قلب واحد أكثر تأثيراً في رفع الحجب الكثيفة من ذكر شخص واحد[٣].

وقد ألف العلماء كتباً في فضل الجهر بالذكر منها: «نثر الزهر في الذكر بالجهر» و«إتحاف المنيب الأواه بفضل الجهر بذكر الله» للكوراني[٤]، وأجمع العلماء على استحباب الجهر بالذكر بعد الصلوات؛ لما فيه من الحثّ على

---

(١) في سنن أبي داود٢: ٣٧، وسنن الترمذي٢: ٣٠٩.

(٢) في مفتاح الفلاح ص١٣.

(٣) ينظر: رد المحتار٦: ٣٩٨.

(٤) ينظر: الذكر والذاكرون ص٣٣.

الذكر، والحفاظ على سنة أداء الأذكار بعد الصلاة، وترغيباً للمسلمين في الخيرات.

قال ابن عابدين(١): «وفي «حاشية الحموي» عن الإمام الشعراني: أجمع العلماء سلفاً وخلفاً على استحباب ذكر الجماعة في المساجد وغيرها إلا أن يشوش جهره على نائم أو مصلٍّ أو قارئٍ».

ثالثاً: التحذير من ترك الذكر:

لما كانت حياتنا مدارها على ذكر الله تعالى، وتعليق القلب بخالقها، فيكون كل لحظة تمضي يبتعد فيها صاحبها عن ذكر الله تعالى قد خسر خسراناً مبيناً، وكانت هذه اللحظة عليه لا له، وهذا شامل لترك الذكر بقلبه أو لسانه أو القيام بأعمال يكون قاصداً فيها وجه الله تعالى، ومما ورد في ذلك:

قال تعالى: {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِين، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُون}[الزخرف:٣٧] ، فكان انصرافهم عن القرآن وتدبرهم وذكر الله تعالى سبباً لأن يسخر الله شياطين لهم تلازمهم فلا تزال تصرفهم عن النظر في الحق وأدلة الرشد، وهو تسخير اقتضاه نظام تولد الفروع من أصولها، فلا يتعجب من عمى بصائرهم عن إدراك الحق البين، وهذا من سنة الوجود في تولد الأشياء من عناصرها، فالضلال ينمي ويتولد في النفوس ويتمكن منها مرة بعد مرة حتى

---

(١) في رد المحتار ١: ٦٦٠.

يصير طبعاً على القلب، وأكنة فيه وختما عليه، ولا يضعف عمل الشيطان إلا بتكرر الدعوة إلى الحق وبالزجر والإنذار(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة، ومن اضطجع مضجعاً، لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة»(٢): أي حسرة(٣)، وأصل الترة النقص، ومعناها هاهنا التبعة، يقال: وترت الرجل ترةً على وزن وعدته عدة، ومنه قول الله سبحانه: {وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [محمد:٣٥](٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه، إلا قاموا عن مثل جيفة حمار وكان لهم حسرة»(٥)، فما أشنع هذه الهيئة لمن يبتعد عن ذكر الله تعالى، ولا تكون لحظاته مع الله سبحانه.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال ﷺ: «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرَّت بهم لم يذكروا الله فيها»(٦)؛ لأنه خسر فيها فضل الله تعالى، ووقع في الشقاء بسبب ترك الذكر.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير٢٥: ٢٠٨.

(٢)في سنن أبي داود٤: ٢٦٤، وسنن النسائي الكبرى٩: ١٥٥.

(٣) ينظر: مرعاة المفاتيح٧: ٤٠٦.

(٤) ينظر: معالم السنن٤: ١١٨.

(٥)في سنن أبي داود٤: ٢٦٤، والآداب البيهقي١: ١٠٦.

(٦)في شعب الإيمان٢: ٥٥، والمعجم الكبير٢٠: ٩٣.

قال سهل: ما أعلم معصية أقبح من ترك ذكر هذا الرب.

وقال النوري: لكل شيء عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعه عن الذكر.

وقال أنس بن مالك ﷺ: ذكر الله علامة على الإيمان، وبراءة من النفاق، وحصن من الشيطان، وحرز من النار.

وقال مالك بن دينار: ومَن لم يأنس بحديث الله تعالى عن حديث الخلق فقد قلّ علمه وعمي قلبه وضاع عمره.

وقال الحسن: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء في الصلاة والذكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم ذلك وإلا ما علموا أن الباب مغلق؛ لأن كلَّ قلب لا يعرف الله لا يأنس بذكر الله، ولا يسكن إليه، قال الله تعالى: {وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}[الزمر:٤٥].

وقال بعض العارفين: رزق الظاهر بحركات الأجسام، ورزق الباطن بحركات القلوب، ورزق الأسرار بالسكون، ورزق العقول فالفناء عن السكون حتى يكون العبد ساكناً لله بالله مع الله.

وقيل: مَن قام الله تعالى بحقيقة الذكر والحمد والشكر سخر له الأكوان والعالم جميعه.

وقال مطرف بن أبي بكر: المحب لا يَسأم من حديث حبيبه.

وقيل: مَن لم يجد وحدة الغفلة لم يجد طعم أُنس الذكر.

وقال عطاء: الصاعقة لا تنزل على ذاكر الله تعالى[1].

رابعاً: الحركة في الذكر:

وهي تحرك موزون على ميزان نغمة مخصوصة[2].

قال الجنيد لما سئل عن السماع قال: كلُّ ما يجمع العبد على ربه، فهو مباح[3].

قال تعالى: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَّ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[آل عمران:١٩١]، المراد الذكر على كل حال لأن الإنسان لا يخلو عن هذه الأحوال[4].

وقال تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللهَّ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ}[النساء:١٠٣]، جعل بعضهم الذكر هاهنا مخصصاً بالصلاة، وجعله بعضهم عاماً فيه وفي غيره من الأذكار[5].

فعن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة ﷺ، من أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى، فجعلوا يذكرون الله تعالى، أما قال تعالى: {يَذْكُرُونَ اللهَّ قِيَامًا

---

(١) ينظر: مفتاح الفلاح ص١٤.

(٢) ينظر: الذكر والذاكرون ص١٧٥.

(٣) ينظر: الذكر والذاكرون ص١٧٩.

(٤) ينظر: تفسير النسفي ١: ٣٢١.

(٥) ينظر: تفسير الراغب ١: ٤٩٥.

وَقُعُودًا}[آل عمران:١٩١]، فقاموا يذكرون الله تعالى على أقدامهم، على أن مرادهم بذلك التَّبرك بنوع موافقة للآية في ضمن فرد من أفراد مدلولها.

قال الكتاني(١): «غايةُ الرَّقص عند القوم ذكر من قيام ، وهو مشروع بنصِّ القرآن الكريم: {يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا}[آل عمران:١٩١]،، وتمايل واهتزاز، وهو منقول عن الصحابة ﭫ، فقد أخرج أبو نعيم في «الحلية» عن الفضيل بن عياض: « كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا ذكروا الله تمايلوا كما تتمايل الشجرة بالريح العاصف إلى أمام ثم ترجع إلى وراء »».

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاء حبش يزفنون(٢) في يوم عيد في المسجد، فدعاني النبي ﷺ فوضعت رأسي على منكبيه أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا التي أنصرف عن النظر إليهم»(٣)، قال الكتاني(٤): «فيه دلالة على أنواع من الرخص».

وقال القاضي عياض: فيه أقوى دليل على إباحة الرقص؛ إذ زاد النبي ﷺ على إقرارهم أن أغرام.

---

(١) في التراتيب الأدارية٢: ٩٣.

(٢) معناه يرقصون وحمله العلماء على التوثب بسلاحهم ولعبهم بحرابهم على قريب من هيئة الرقص؛ لأن معظم الروايات إنما فيها لعبهم بحرابهم فيتأول هذه اللفظة على موافقة سائر الروايات، كما في شرح محمد عبد الباقي٢: ٦٠٩.

(٣) في صحيح مسلم٢: ٦٠٩.

(٤) في التراتيب الإدارية٢: ٩٤.

وقال الغزاليُّ: «والرقص سبب في تحريك السُّرور والنشاط، فكلُّ سرور مباح يجوز تحريكه، ولوكان حراماً لما نظرت عائشة رضي الله عنها إلى الحبشة مع رسول الله ﷺ وهم يزفنون».

وعن علي رضي الله عنه، قال: «أتيت النبي ﷺ أنا وجعفر، وزيد، قال: فقال لزيد: «أنت مولاي»، فحجل، قال: وقال لجعفر: «أنت أشبهت خلقي وخلقي» ، قال: فحجل وراء زيد، قال: وقال لي: «أنت مني، وأنا منك» ، قال: فحجلت وراء جعفر[١]، قال الكتاني[٢]: «والحَجل بحاء فجيم فلام كسبب رقص على هيئة مخصوصة».

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ النبيَّ ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً، فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك، فخرج وهو يثب بالدرع، وهو يقول: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُر، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَر}[القمر:٤٦]»[٣].

وعن أبي أراكة يقول: «صليت مع علي رضي الله عنه صلاة الفجر فلما انفتل عن يمينه مكث كان عليه كآبة، حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قدر رمح صلى ركعتين ثم قلب يده فقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما

(١) في مسند أحمد٢: ٢١٣.

(٢) في التراتيب الإدارية٢: ٩٧.

(٣) في صحيح البخاري٦: ١٤٣.

أرى اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون صفراً شعثاً غبراً، بين أعينهم كامثال ركب المعزى ، قد باتوا الله سجداً وقياماً، يتلون كتاب الله يتراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله تعالى مادوا كما تميد الشجر في يوم الريح وهملت عيونهم حتى تبل ثيابهم»[١]، قال عبد الغني النابلسي: «هـذا صريح بأن الصحابة ﷺ كانوا يتحركون حركة شديدة في الذكر»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يذكر الله في كل أحيانه»[٣]، وسيكون منها الحركة.

وعن أبي سعيد ﷺ، قال ﷺ: «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون»[٤].

قال ابن عابدين[٥]: «ولا كلام لنا مع الصدق من ساداتنا الصوفية المبرئين من كلِّ خصلة ردية، فقد سئل إمام الطائفتين سيدنا الجنيد: إن أقواماً يتواجدون الله تعالى يفرحون ... ولا كلام مع مَن اقتدى، وذاق من مشربهم، ووجـد من نفسه الشوق والهيام في ذات الملك العلام ، بل كلامنا مع هؤلاء العوام الفسقة اللئام الذين اتخذوا مجالس الذكر شبكة لصيد الدنيا الدنية، وقضاء لشهوتهم الشنيعة الردية من كلامهم».

---

(١) في المجالسة وجواهر العلم٤ : ٣١٠، والرقة والبكاء لابن قدامة ص٥١،

(٢) ينظر: الذكر والذاكرون ص٩٥.

(٣) في صحيح مسلم١ : ٢٨٢.

(٤) في صحيح ابن حبان٣ : ٩٩، ومسند أحمد١٨ : ١٩٥.

(٥) في شفاء العليل١ : ١٧١ـ ١٧٣.

وقال الرَّمليُّ الشافعي(١): «الرقص لا يحرم ولا يكره ؛ لأنه مجرد حركات علىٰ استقامة واعوجاج ، ولإقراره ﷺ الحبشة عليه في مسجده يوم».

قال البهوتي الحنبلي(٢): «نقل ابراهيم بن عبد الله القلانسي أن الإمام أحمد ﵁، قال عن الصوفية: لا أعلم أقواماً أفضل منهم، قيل: إنهم يستمعون ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحون مع الله تعالىٰ ساعة، قيل: فمنهم مَن يموت، ومنهم مَن يغشىٰ عليه، فقال: {وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ}[الزمر:٤٧]».

وقال السيوطي: «وقد صح القيام والرقص في مجالس الذكر والسماع عن جماعة كبار الأئمة، منهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام» وأثبت أيضاً العلامة ابن حجر الهيتمي في كتابه «الفتاوىٰ الحديثية» ما صححه الإمام السيوطي(٣).

وقد أفاض الدكتور صديق رمضان في ذكر الأدلة وأقوال المذاهب الفقهية وكبار المعاصرين في إباحة الحركة في الذكر وختم بحثه بقوله(٤): «فهذه الأدلة القاطعة والملزمة من كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ قولاً وفعلاً وإقراراً، وعمل الصحابة ﵃، وأقوال كبار العلماء والأئمة في الفقه

---

(١) في نهاية المحتاج٨: ٢٩٨.

(٢) في كشاف القناع٥: ١٨٤، ومثله في مطالب أولي النهى٥: ٢٥٣، والفروع٨: ٣٧٨.

(٣) ينظر: تمام هذا البحث في الذكر والذاكرون ص١١٤.

(٤) في الذكر والذاكرون ص١١٩.

والعلوم الشرعية الأخرى، كافية في إقناعة مَن توخى الحق والتزم نصوص الشرع، أما المعاند الجاحد أو المقلد الجامد فلا كلام لنا معه».

خامساً: آداب الذكر:

ذكر العلماء أن للذكر آداب، نقتصر على نزر منها ذكرها ابنُ عطاء السكندري على النحو الآتي:

«للذكر له آداب سابقة وآداب لاحقة وآداب مقارنة، ومنها ظاهرة ومنها باطنة.

١. الآداب السابقة:

فعلى السالك بعد التوبة وتهذيب النفس بالرياضات وتلطيف الأسرار وتهيئتها لمواسم الحضرات باعتزال الخلائق، وتخفيف العلائق وقطع كلّ عائق، وتحصيل علم الأديان والأبدان المفروض على الأعيان، وتحرير المقاصد، فإنها أرواح مقامات القاصد بأن تكون شرعية لا عادية، وعليه اختيار ذكر لحاله مناسب، فيدأب على ذكره و يواظب، ومن الآداب:

اللبس الحلال الطاهر المطيب بالرائحة الطيبة، وطهارة الباطن بأكل الحلال، فإن الذكر وإن كان يذهب الأجزاء الناشئة من الحرام، إلا أنه إذا كان الباطن خالياً من الحرام أو الشبهة تكون فائدة الذكر في تنوير القلب أكثر وأبلغ، وإذا كان في الباطن حرام غسله منه ونظفه، فكانت فائدته حينئذ في التنوير أضعف، ألا ترى أن الماء إذا غسلت به المنجس أزال النجاسة، ولم تكن فيه مبالغة في التنظيف، ولذلك يستحب غسله ثانية وثالثة، وإذا كان

المحلّ المغسول خالياً عن النجاسة ازداد بهجة ونضارة من أول غسلة، وإذا نزل الذكر القلب، فإن كان فيه ظلمة نوَّره، وإن كان فيه نور زاده وكثر.

٢.آدابه المقارنة:

الإخلاص وتطييب المجلس بالرائحة الطيبة لأجل الملائكة والجن، والجلوس متربعاً مستقبل القبلة إن كان وحده، وإن كان في جماعة حيث انتهىٰ به المجلس، ووضع راحتيه علىٰ فخذيه وغمض عينيه مع بقاء توجهه نصب عينيه، قالوا: وإن كان تحت نظر شيخ تخيل شيخه بين عينيه، فإنه رفيقه في الطريق وهاديه، وأن يستمد بقلبه أوّل شروعه في الذكر من همّة شيخه، معتقداً أن استمداده منه هو استمداده من النبي ﷺ؛ لأنه نائبه.

وأن يذكر بقوَّة تامة مع التعظيم، وتصعيد لا إله الا الله من فوق السرّة ناوياً، بلا إله نفي ما سوىٰ الله تعالىٰ عن القلب، وناويا بإلا الله إيصالها إلىٰ القلب اللحمي الصنوبري الشكل؛ ليتمكن إلا الله تعالىٰ في القلب، ويسري بجميع الأعضاء، وإحضاره معنىٰ الذكر بقلبه مع كلِّ مرّة، قال بعضهم: لا يصحُّ أن يكون تردد الذكر مرة بعد مرة إلا بمعنىٰ غير المعنىٰ الأول.

وأدنىٰ درجات الذكر أنه كلّما قال: لا إله إلا الله لا يكون في قلبه شيء غير الله إلا ونفاه من قلبه، ومتىٰ التفت إليه في حال ذكره فقد أنزله منزلة الإله من نفسه، قال تعالىٰ: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}[الجاثية:٢٣]، وقال: {لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهًا آخَرَ}[الإسراء:٢٢]، وقال: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ}[يس:٦٠].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض»[١]، وإن كان الدينار والدرهم لا يعبدان بركوع ولا سجود، وإنما ذلك بالتفات القلب إليهما، فلا تصحّ منه لا إله إلا الله إلا بنفي ما في نفسه وقلبه مما سوى الله تعالى.

ومن امتلأ قلبه بصور المحسوسات لو قال: ألف مرّة قلّ ما يشعر قلبه بمعناها، وإذا فرغ القلب عن غير الله لو قال مرة واحدة: الله بحد من اللذة ما لا يستطيع اللسان وصفه.

قال الشيخ عبد الرحيم القنائي: قلت: مرة لا اله الا الله ثم لم تعد إليّ.

وتحقيق العبد بلا إله إلا الله حالة من أحوال القلب لا يعبر عنها اللسان، ولا يقوم بها جنان.

ولا إله إلا الله وإن كانت خلاصة الخلاصة من التوجهات، فهي مفتاح حقائق القلوب، وترقي السالكين إلى عوالم الغيوب، ومن الناس مَن اختار موالاة الذكر بحيث تكون الكلمتان كالكلمة الواحدة لا يقع بينهما تخلل خارجي ولا ذهني كي لا يأخذ الشيطان نصيبه، فإنه في مثل هذا الموضع بالمرصاد لعلمه بضعف السالك عن سلوك هذه الأودية؛ لبعدها من عادته لاسيما إن كان قريب العهد بالسلوك، قالوا: وهذا أسرع فتحاً من القلب وتقريباً من الرب.

---

(١) في صحيح البخاري ٤: ٣٤.

وقال بعضهم: تطويل المدة من لا إله إلا الله مستحسنٌ مندوبٌ إليه؛ لأنّ الذاكر في زمن المد يستحضر في ذهنه جميع الأضداد والأنداد، ثم ينفيها ويعقب ذلك بقوله: لا إله إلا الله، فهو أقرب إلىٰ الإخلاص؛ لأنه يكون الإقرار بالإلهية، وهو وإن نفىٰ بلا إله عيَّنه فقد أثبت بإلا كونه، بل إلا نور يوضع علىٰ القلب فينوره.

٣.آدابه اللاحقة:

إذا سكت باختياره يحضر مع قلبه متلقياً لوارد الذكر، وهي الغيبة الحاصلة عقب الذكر، وتسمىٰ النومة، أيضاً فكما أن الله تعالىٰ أجرىٰ العادة بإرسال الرياح نشراً بين يدي رحمته المطرية أَجرىٰ العادة بإرسال رياح الذكر نشراً بين يدي رحمته العلية، فلعله يرد عليه ما يعمر قلبه في لحظة ما لا تعمره المجاهدة والرياضة في نحو ثلاثين سنة.

وهذه الآداب تلزم الذاكر الواعي المختار، أما المسلوب الاختيار فهو مع ما يرد عليه من الأذكار وما يرد عليه من جملة الأسرار فقد تجرىٰ علىٰ لسانه الله الله الله، أو هوهوهوهو، أو لالالالالا أو ا ا ا ا ا ا أواه أو أو صوت بغير حرف، أو تخبط فأدبه التسليم للوارد، وبعد انقضاء الوارد يكون ساكناً ساكتاً، وهـذه الآداب لمن يحتاج إلىٰ ذكر اللسان، أما الذاكر بالقلب فلا يحتاج إلىٰ هذه الآداب»[1].

---

(١) ينظر: مفتاح الفلاح ص١٧ـ١٩.

سادساً: فوائد الذكر:

نذكر طرفاً مما ذكره ابن عطاء من فوائد الذكر على الإجمال، فقال[١]:

«مَن رام فوائده فليتبع النصوص الواردة بفوائد، وليست بالقليل، وليس إلى من سبيل، وذكر الأئمة له فوائد جمة، فلنذكر الحاضر على الخاطر، فنقول:

الذكر يطرد الشيطان ويمنعه ويكسره ويرضى الرحمن ويسخط الشيطان، ويزيل الهم عن القلب والغم ويجلب الفرح والسرور، ويذهب الترح والشرور، ويقوي القلب والبدن، ويُصلح السر والعلن.

ويبهج القلب والوجه وينوره، ويجلب الرزق وييسره، ويكسوا الذاكر مهابة ويلهم به في كل أمر صوابه، وداومه للمحبة سبب من الأسباب، وهو من أعظم الأبواب، ويورث المراقبة الموصلة لمقام الإحسان الذي فيه يعبد الله العبد كأنه بالعيان.

ويورث الإنابة فمن أكثر الرجوع بذكره أورثه الرجوع إليه في سائر أمره، ويورث القرب من الرب، ويفتح باب المعرفة في القلب، وبورت العبد اجلالاً وهيبة لربه...».

---

(١) في مفتاح الفلاح ص٢٠ـ ٢١.

سابعاً: التدرج بالأذكار:

إن التزام الأذكار وتحصيلها بامامها لا يحصل مرة واحدة، وإنما يحتاج إلىٰ تدرج في أخذها شيئاً فشيئاً، ولا يكون هذا إلا يد شيخ مربي، قال ابن عطاء الله[1]: «مَن لازم الأذكار توالت عليه الأنوار وانكشفت له عن المغيبات الأستار، وينبغي لمن عزم علىٰ الاسترشاد وسلوك طريق الرشاد أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق سالك للطريق تارك لهواه راسخ القدم في خدمة مولاه.

فإذا وجده فامتثل ما أمر، ولينته عما نهىٰ عنه، وزجر وإلا فعليه باحصاء الأسماء، والتلحي بأمهات الفضائل، والتخلي عن الرذائل من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء ودوام التوقي، وطلب المزيد والدُّرب في العبادات وإخلاص الرغبة إلىٰ الله تعالىٰ في كل مطلب، وفي السلوك طرق شتىٰ لا ترىٰ في كلٍّ منها عوجاً ولا أمتان».

وتعدد الطرق في تدرج السالك وتنقلهم في الأطوار، منها الطريقة التي سلكها ابن عطاء، وهي متصلة بأبي بكر الصديق، حيث وصفها بالتفصيل علىٰ النحو الآتي:

«أنّ السالك يبدأ بالصلاة علىٰ النبي ﷺ دون غيرها من الأذكار، فإنه ﷺ الواسطة بيننا وبينه، والدليل لنا عليه والمعرف لنا به، والتعلق بالواسطة متقدِّم علىٰ التعلق بالمتوسط إليه.

---

(١) في مفتاح الفلاح ص٣٠.

وأيضا محلّ الإخلاص القلب، وقد يكون مصروفاً لغير الله تعالى، والنفس متوجهة للخلق أمارة بالسوء، متبعة للشهوات، مائلة للأباطيل، وذلك كله أدناس تحجب القلب عن الإخلاص، وعن الوجهة الصحيحة إلى الله تعالى، وهي قابلة لأوامر الشيطان، ولو لم تكن قابلة منه لماوجد مسلكاً للقلب، وقبولها منه دليل على غفلتها وغيبتها عن الله تعالى، والغيبةُ حجابٌ كثيف عن خالقها، والحجاب ظلمة، فاحتاج السالك لدفع تلك الظلمة، وزوال تلك الأدناس، والظالمة نزول بالنور.

ويومر السالك بالابتداء بالصَّلاة على النبي ﷺ؛ لتطهير عل الإخلاص؛ إذ لا إخلاص مع بقاء العلل وزوال النعم بذكر حبيب الله ﷺ، والإكثار من الصَّلاة عليه يثمر تمكن محبته من القلب، وتمكن محبته يثمر شدة الاعتناء به، وبما كان عليه من الصفات الأخلاق، وما هو مختصٌّ به، فلما علمنا أنه لايتوصل لاكتساب اتباع أفعاله وأخلاقه إلا بعد شـدّة الاعتناء به، إلا بالمبالغة في حبِّه ولا يتوصل للمبالغة في حبِّه إلا بكثرة الصلاة عليه.

ومَن أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره، ولذلك يبدأ السالك بالصلاة على النبي ﷺ، وهي جامعةٌ لذكر الله تعالى وذكر رسوله.

والذكر على قسمين: ذكر لا يتضمن المناجات، وذكر يتضمنها، وهو أبلغ وأشدّ تأثيراً في الب المبتدي من الذكر الذي لايتضمن المناجاة؛ لأن المناجي يشعر قلبه قرب مَن ناجيه، وذلك مما يؤثر في قلبه، ويلبسه الخشية، فإن قوله: اللهم صلّ ذكر ومناجاة؛ لأنه يسأل الصلاة، وذلك مناجاة، ولا تكون إلا لحاضر أنت بين يديه، ولعل سر مشروعية الصلاة على الأنبياء أن

روح الإنسان ضعيفة إلا تستقر لقبول الأنوار الإلهية، فإذا استحكمت العلاقة بين روحه وروح الأنبياء بالصَّلاة، فالأنوار الفائضة من عالم الغيب على أرواح الأنبياء تنعكس على أرواح المصلين عليه.

والمريد للسلوك إذا سبق منه كثرة آثام وأوزار، فليبدأ في سلوكه بكثره الاستغفار إلى أن يظهر عليه ثمرته، فلكل ذكر ثمرة وعلامة عند أئمة هذا الشأن معتبرة، والثمرة المخصوصة بالأذكار قسمان:

قسم يلوح للقلب في حال اليقظة.

وقسم يراء السالك في المنام.

والسالكون في الإتيان الثمرات على درجات ثلاث: أعني المرات التي توجب لهم الترقي من ذكر إلى ذكر آخر، فسالك يرقى بعد ثمرة في اليقظة تلوح.

وآخر بما في النوم يظهر للروح.

وآخر يجمع بين اليقظة والمنام، وذلك أكسل الأقسام.

والثمرات بالامتحاص تختلف لكنها ترجع إلى أصل واحد، فبتألف قرب شخص يلوح له ما لا يلوح لغيره، ويلوح لغيره ما لا يلوح له، وكل منهما قد أتى بالثمرة لازماً لاح لها يرجع إلى أصل واحد، والثمرات مختلف على قدر أرزاق السالكين، وهي تدورُ على أصول ثابتة لا تختلف عند المحققين، فلايرقى سالك من ذكر الى ذكر آخر حتى يظهر عليه ثمرته المختصة به، فإذا ظهرت عليه شواهد الخشوع، ولاح على وجهه أثر

الانكسار والخضوع، فعند ذلك يؤمر بذكر مصقلة لقلوب، وهي الصلاة على النبي المحبوب، هذا إذا كان استعمل في المعاصي جوارحه، وكانت نفسُه قبل ذلك إلى المآثم جانحة.

وأمّا إن كان قدّ شُدّ على العفاف إزاره، ولم تستهوه النفس الأمارة، فأول ما يلقى إليه التصلية على الرسول فيها، تبلغ المأمول.

ثم نظر هل هذا السالك من عوام الناس، ومن أهل العلم، فإن كان من عوام الناس، فالصلاة التامة، ويبدأ بدأب حتى يقف على حقيقتها، ويظهر له ما تحت طبها ثم يرقى إلى كيفية غيرها.

وإن كان السالك، فلا يؤمر بأن يبدأ الصلاة التامة؛ لأنّ لسانه رطب بها لدورانها على لسانه، وكثرة استعمالها غير أنه لم يقف على ما تحت طبها؛ لأنه لم يمكن نور الصلاة على النبي ﷺ فيبقى من الصلاة التامة في دبر كل فريضة، إحدى عشرة مرّة تجعلها ورداً حتى تستشرق بصيرته على معناها.

ويدأب ليله ونهاره بالصلاة التي ذكرناها، وإياك أن تترك لفظ السيادة، ففيها سر يظهر لمن لازم هذه العبادة، فإذا لاح ذلك السر وظهر انتقل الى ذكر أعلى منه يذكر فيقول: اللهم صل على حبيبك، فيضيفه إلى الخالق، وفيه اختصاصه بأعلى درجات المحبة دون الخلائق ولا بُدّ للسالك من قصد ونية ليرتقي إلى الدرجات السنية.

وهيئة الجلوس للذكر: فمن الأدب أن يجلس بين يدي سيده جلوس ذليل خاضع ويقعد قعود فقير متواضع، وأن يجعل رأسه بين ركبتيه، وأن

يَسدَّ عن المحسوسات عينيه، فهذه الجلسة تجمع القلب ويتصفى من الأكدار، وتأتيه الأنوار واللوائح والأسرار، فإذا جلست هذه الجلسة تعوَّذ بالله من الشيطان الرجيم، ثمّ سم الله تعالى ثم قل: في أثر ذلك الله أُصلي على سيدنا محمّد كذا كذا مرّة، ويُسمَّى العدد الذي يَقصده إيماناً واحتساباً بالله تعالى، وتعظيماً لحقّ رسول الله ﷺ، وتشريفاً وتكريماً، وصلى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وسلم تسليماً.

ثم شرع في الصَّلاة على النبيِّ ﷺ، فإذا كملت العدد أو كانت بيدك سبحة فوصلت إلى الموضع الذي بدأت منه، فجرد القصد كما ذكرنا لعله بالتكرار يظهر ما تحت ألفاظه من الأسرار، فما من لفظة إلا وتحت طيها سر مستور، وليقرأ قبل طلوع الفجر أو بعده: {شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم}[آل عمران:١٨]، وليقل عقبها: وأنا أشهد الله بما يشهد به لنفسه وشهدت له ملائكته وأولوا العلم من خلفه، وأنا أستودع الله هذه الشهادة إلى حين موتي ودخولي قبري وخروجي منه، ولقائي ربي أنه لا تخيب لديه الودائع، يقول ذلك ثلاث مرَّات أو خمساً أو سبعاً في كل يوم.

وتحت طيّ على ذلك القول فائدة يُبرزها الإخلاص لله تعالى، وله ثمرةٌ تظهرها الملازمة، وينبغي أن تذكر لشيخك ما يطرأ عليك من أحوال وغيرها وما تراه من منام، وإذا أشرف القلب بأنوار الصلوات، وطهر من دنس الخواطر لاح لك ثمرة صلاتك، ورد على قلبك مبادئ الإخلاص، وتظهر

لك الخفايا، وتمتد من الغيب بالعطايا، وتظهر الحكم على لسانك، ويتعجب السامع من بيانك.

وينبغي للمبتدي أن يتخذ له وردين ورداً بعد صلاة الصبح، وآخر بعد صلاة المغرب، وأمّا أهل التمكين والنهايات، فالذكر شغل قلوبهم في جميع الأوقات، واحـذر من العَجلة في الانتقال عن الصلاة على النبي ﷺ قبل أن تظهر لك ثمرتها، وأضف إلى ما عندك ذكر النفي والإثبات، فيكون ذلك دأبك وشُغلك في سائر الأوقات، وهو أن تقول: لا إله الا الله محمد رسول الله، وهو ذكر قوي، وهو أقوى من الأول لا يحتمله إلا الأقوياء، فإن كان الذاكر راجح العقل معتدل المزاج ثابت القدم قوياً في حاله، فيؤمر بالإكثار منه، وان كان مضطرباً ضعيفاً محروف المزاج فيؤخذ بالرفق ويجعل له من ذلك ورداً معلوماً حتى يأخذ على نفسه وتسري له القوة فشيئاً، فعند ذلك يكثر منه؛ لأنه قد دخل في زمرة الأقوياء.

فإن أكثر منه قبل التربص عليه مع احتراف مزاجه أحرفه الذكر وانقطع عن الوصول، فالزم ذلك الذكر إلى أن ينتظم لك شمل العالم في نطاق واحد، وحتى لا ترى بعين قلبك في الدارين غير الواحد، فتصلى على جميع الموجودات صلاة الأموات، وتكبر عليها أربع تكبيرات، و يتساوى عندك الحمد والذم، فترى ذمهم تأديباً لك وزجراً، وحمدهم فتنة لك فيأمر حركة ألسنهم بحمدك أو ذمك.

ومتى بقي فيك للنفس نصرة ولو مثقال ذرة، فأنت صاحب دعوى، ولك شيطانك أغوى، فإذا ظهر عليك ثمرة ذكر النَّفي والإثبات فاشتغل

بذكر التَّنزيه، وهو أن تقول: سبحان الله العظيم، وبحمد اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله، فإذا ظهر لك ثماره وتبين لك أسراره، فعند ذلك تصير أهلاً لذكر الفرد، فتقول: الله الله الله مستدعاً ذلك.

وإياك ثم إياك أن تترك ذكر النبي ﷺ فإنه مفتاح لكلِّ باب بإذن الكريم الوهاب، وقد وفَّقنا إذ وفّقنا على هذه الطريق الغريب، فأخذنا منها بنسيب، فالحمد الله القريب المجيب»(١).

وتعدد الأساليب لدى الطريق في تحقيق الطهارة الداخلية للمريد، ومن هذه الطريق على سبيل الإجمال:

١.طريقة الجنيد: فلها ثمانية شروط: دواء الوضوء، ودوام الصوم، ودوام السكوت، ودوام الخلوة، ودوام الذكر، وهو لا إله الا الله، ودوام ربط القلب بالشيخ، واستفادة علم الواقعات منه بفناء تصرفه في تصرف الشيخ، ودوام نفي الخواطر، ودوام ترك الاعتراض على الله تعالى في كلِّ ما يرد عليه خبراً أو شراً، وترك السؤال من جنة أو تعوذ من نار.

٢. أن يقليل الغذاء بالتدريج، فإن مرد الشيطان والنفس منه، فإدا أقلّ الغذاء قلّ سلطانهما.

---

(١) ينظر: مفتاح الفلاح ص٣٠ـ٣٣.

٣.أن يؤمر على نفسه شيخا مأموناً ليختار له ما يصلحه، فإنّ المريد للسلوك كالطفل أو الصبي أو المبذر، فإنه لا بد لهم من ولي أو وصي أو قاض أو سلطان يتولى أمرهم(١).

ثامناً: ثمار الذكر:

ما من ذكر إلا وله نتيجة تخصه، فأي ذكر اشتغلت به أعطاك ما في فوقه على النحو الآتي:

١ .**الذكر مع الاستعداد هو الداعي إلى الفتح**، ولكن بما يُناسب الذاكر، قال الإمام الغزالي: الذكر حقيقة نمو استيلاء المذكور على القلب وانمحاء الذكر وخفاؤه، لكن له ثلاث قشور بعضها أقرب إلى اللب من البعض، واللب وراء القشور الثلاث، وإنما فضل القشور؛ لكونها طريقاً إليه، والقشر الأعلى ذكر اللسان فقط، ولا يزال الذاكر يوالي الذكر بلسانه ويتكلف إحضار القلب معه؛ إذ القلب يحتاج إلى موافقته حتى يحضر مع الذكر.

ولو ترك وطبعه لاسترسل في أودية الأفكار إلى أن يشارك القلب اللسان، ويحرق نور القلب الشهوات والشياطين، ويستولي ذكره فيضعف ذكر اللسان عند ذلك، وتمتلئ الجوارح والجوانح بالأنوار، ويتطهر القلب من الأغيار، وينقطع الوسواس ولا يسكن بساحته الخناس، ويصير محلاً

---

(١) ينظر: مفتاح الفلاح ص٣٥ـ٣٦.

للواردات ومرآة صقيلة للتجليات، والمعارف الإلهيات، وإذا سرىٰ الذكر إلىٰ القلب وانتشر في الجوارح، فذكر الله كلّ عضو بحسب حاله.

٢. **الذكر نار لا تبقى ولا تذر،** فإذا دخل بيتاً يقول: أنا لا غيري، وهو من معانىٰ لا إله إلا الله، فإن وجد فيه حطباً أحرقه، فصار ناراً، وإن كان فيه ظلمة كان نوراً فنوَّره، وإن كان فيه نور صار نور علىٰ نور، والذكرُ مذهب من الجسد الأجراء الزائدة الحاصلة من الإسراف في الأكل، ومن تناول لقم الحرام.

وأمّا الحاصلة من الحلال فلا يدله عليها، فإذا احترقت الأجزاء الخبيثة، وبقيت الأجزاء الطيبة سمعت من كلِّ جزء ذكراً كأنه يَنفخ في البوق، وأولاً: يقع الذكر في دائرة الرأس، فتجد فيه صوت البوق والكوس.

٣. **الذكر سلطان إذا نزل موضعاً نزل ببوقاته وكوسانه؛** لأن الذكر ضد ما سوىٰ الحق، فاذا وقع في موضع اشتغل بنفي الضد كما تجده من اجتماع الماء والنار، وبعد هـذه الأصوات تسمع أصواتاً مختلفة مثل تحرير الماء ودوي الريح وصوت النار إذا تأججت وصوت الأرحية، وخبط الخيل وصوت أوراق الأشجار إذا هبَّت عليها الرِّيح.

وذلك أن الآدمي مركب من كل جوهر شريف ووضيع من التراب والماء والنار والهواء والأرض والسماء وما بينهما، فهذه الأصوات إذ كان كل أصل وعنصر من هذه الجواهر، ومَن سمع منه شيء من هذه الأصوات، فقد سبح الله وقدَّسه بكلِّ لسان، وذلك نتيجة ذكر اللسان بقوَّة الاستغراق، وربما

صار العبد إلى حالة إذا سكت عن الذكر تحرَّك القلب في الصدر حركة الولد في بطن أمه يطلب الذكر.

وذكر القلب شبه رنة النحل لا صوت رفيع مشوش ولا خفي شديد الخفاء.

وإذا استمكن المذكور من القلب، وانمحى الذكر وخفي، فلا يلتفت الذاكر إلى الذكر ولا إلى القلب، فإن ظهر له في أثناء ذلك التفات إلى الذكر أو إلى القلب، فذلك حجاب شاغل، وذلك هو الفناء، وهو أن يفنى الإنسان عن نفسه، فلا يحس بشيء من ظواهر جوارحه، ولا الأشياء الخارجة عنه ولا العوارض الباطنة فيه، بل يغيب عن جميع ذلك، ويغيب عنه جميع ذلك ذاهباً إلى ربه أولاً، ثم ذاهباً فيه أُخرى، فإن خطر له في أثناء ذلك أنه في عن نفسه بالكلية، فذلك شوب وكدورة.

والكمال أن يفنى عن نفسه وعن الفناء، والفناء عن الفناء غاية الفناء، والفناء أول الطريق، وهو الذهاب الى الله تعالى، وإنما الهدى بعد، وأعني بالهدى هدى الله كما {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ}[الصافات:٩٩].

وهـذا الاستغراق قلما يثبت ويدوم، فإن دام فصار عادة راسخة وهيئة ثابتة، عرج به إلى العالم الأعلى، وطالع الوجود الحقيقي الأصفى، وانطبع له نقش الملكوت، وتجلى له قدس اللاهوت، وأوَّل ما يَتمثل له من ذلك العالم جواهر الملائكة وأرواح الأنبياء والأولياء في صورة جميلة تفاض عليه بواسطتها بعض الحقائق.

وذلك في البداية إلىٰ أن تعلو درجته عن المثال، ويكافح بتصريح الحقّ في كل شيء، فهذه ثمرة لباب الذكر وانما مبدأ هذا ذكر اللسان، ثم ذكر القلب تكلفاً، ثم ذكره طبعاً، ثم استيلاء المذكور وانمحاء الذكر.

وعلامة وقوع الذكر إلىٰ السر غيبة الذاكر عن الذكر والمذكور، فذكر السر الهيمان والغرق فيـه.

ومن علاماته: أنك اذا تركت الذكر لم يتركك، وذلك طيران الذكر فيك لينبهك عن الغيبة إلىٰ الحضور.

ومن علاماته: شدّ الذكر رأسك وأعضاءك جميعهاً، فتكون كالمشدود بالسلاسل والقيود.

ومن علاماته: أنّه لا تخمد نيرانه، ولا تذهب أنواره، بل ترىٰ أبداً أنواراً صاعدة، وأخرىٰ نازلة، والنيران حواليك صافية تتأجج وتتقد، وإذا وقع الذكر الىٰ السرّ يكون الذكر عنـد سكوت الذاكر كأنه غرز الإبر في لسانه أو أن وجهه كلّه لسان يذكر بنور فائض عنه.

فذكر الحروف بلا حضور ذكر اللسان، وذكر الحضور في القلب ذكر القلب، وذكر الغيبة عن الحضور في المذكور ذكر السرّ، وهو الذكر الخفي[1].

---

(١) ينظر: مفتاح الفلاح ص٤ـ٦.

ثامناً: الأنوار بالمجاهدة:

مال أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم، وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية.

فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة، فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، فمن كان لله كان الله له وزعموا أن الطريق في ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن، وعن العلم والولاية والجاه، بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه.

ثم يخلو بنفسه في زواية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب مجموع الهم، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير

ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه: الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان، ويصادف قلبه مواظبا على الذكر، ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة.

ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضراً فيه، كأنه لازم له لا يفارقه، وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد، واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمة الله تعالى.

فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق، وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته، وحسنت مواظبته، فلم تجاذبه شهواته، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه.

ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود وقد يتأخر، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفاً، وإن ثبت قد يطول ثباته، وقد لا يطول وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق، وقد يقتصر على فنٍّ واحد، ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر، كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء، ثم استعداد وانتظار فقط.

وأما النظار وذوو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضائه إلى هذا المقصد على الندور، فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤا ثمرته، واستبعدوا استجماع شروطه، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر، وإن حصل في حال فثباته أبعد منه إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب(1).

فعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه، قال ﷺ: «قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر في غليانها»(2).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال ﷺ: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»(3).

وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج، ويختلط العقل ويمرض البدن، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة، تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها، فكم من صوفي سلك هذا الطريق، ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك

(1) ينظر: الإحياء٣: ٢٠.
(2) أخرجه أحمد والحاكم وصححه، كما في المغني٣: ٢٠.
(3) أخرجه مسلم، كما في المغني٣: ٢٠.

الخيال في الحال، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض وزعموا أن ذلك يضاهي ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه(١).

ثامناً: فضيلة التهليل والتسبيح والتحميد وغيرها:

فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة»(٢).

وعن أبي أيوب ﵁، قال ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل»(٣).

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «من سبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين»(٤).

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «مَن قال: سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر»(٥).

وعن أبي سعيد ﵁، قال ﷺ: «الباقيات الصالحات هن لا إله إلا الله وسبحان الله والله أكبر والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله»(١).

---

(١) ينظر: الإحياء٣: ٢٠.

(٢) متفق عليه، كما في المغني١: ٢٩٨.

(٣) متفق عليه، كما في المغني١: ٢٩٨.

(٤) أخرجه مسلم، كما في المغني١: ٢٩٨.

(٥) متفق عليه، كما في المغني١: ٢٩٨.

وعن ابن عمرو رضي الله عنه، قال ﷺ: «ما على الأرض رجل يقول: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»(٢).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال ﷺ: «الذين يذكرون من جلال الله وتسبيحه وتمجيده وتهليله وتحميده ينعطف حول العرش له دوي كدوي النحل يذكرون بصاحبهن»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «لأن أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»(٤).

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، قال ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان»(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»(٦).

---

(١) أخرجه النسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وصححه والنسائي والحاكم، كما في المغني١: ٣٩٩.

(٢) أخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم وهو عند الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة مختصراً، كما في المغني١: ٣٩٩.

(٣) أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه على شرط مسلم، كما في المغني١: ٣٩٩.

(٤) أخرجه مسلم، كما في المغني١: ٣٩٩.

(٥) رواه مسلم، كما في المغني١: ٣٩٩.

(٦) متفق عليه، كما في المغني١: ٣٠٠.

وعن أبي ذر ﵁، قال ﷺ: «أي الكلام أحبُّ إلى الله تعالى، قال: ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»(١).

وعن جابر ﵁، قال ﷺ: « من قال: سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة»(٢).

وعن بسرة رضي الله عنها، قال ﷺ: «عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن واعقدن بالأنامل، فإنها مستنطقات»(٣).

وعن مصعب بن سعد عن أبيه ﵁، قال ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة، فقيل: كيف ذلك يا رسول الله، فقال ﷺ: يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة أو يحط عنه ألف سيئة»(٤).

عن أبي موسى ﵁، قال ﷺ: «يا أبا موسى، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة، قال: بلى قال لا حول ولا قوة إلا بالله»(٥).

وعن أبي هريرة ﵁، قال: «من قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي، كما في المغني١: ٣٠٠.

(٢) أخرجه الترمذي، وقال: حسن وابن حبان والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم وصححه، كما في المغني١: ٣٠٠.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم بإسناد جيد، كما في المغني١: ٣٠٠.

(٤) أخرجه مسلم، كما في المغني١: ٣٠٠.

(٥) متفق عليه، كما في المغني١: ٣٠١.

والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله قال: أسلم عبدي واستسلم»(١).

وعن أبي هريرة ﵁،قال ﷺ: «كَلِمتَانِ خَفِيفتَانِ على اللِّسانِ، ثَقِيلَتانِ في المِيزَانِ، حبيبَتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحانَ الله العظيم»(٢).

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «لأن أَقُولَ سبحانَ الله، والحَمْدُ للهِ، ولا إله إلاَّ الله، والله أكْبرُ، أَحبُّ إليَّ مِمَّا طَلَعَت عليه الشَّمْسُ»(٣).

وعن أبي ذر قال ﷺ له: «ألا أُخْبِرُكَ بِأَحبِّ الكَلامِ إلى الله؟ إنَّ أحبَّ الكَلامِ إلى الله: سُبْحانَ الله وبحَمْدِهِ»(٤).

وعن سمرة بن جندب ﵁،قال ﷺ: «أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت»(٥).

وعن أبي مالك الأشعري ﵁، قال ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمان، والحمدُ للهِ تَمْلأُ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تَمْلآنِ أو تَمْلأُ ما بين السَّمَواتَ والأَرْضِ»(٦).

وعن سعد بن أبي وقاص ﵁، قال ﷺ: «أَيعجِزُ أَحدُكم أنْ يكْسِبَ كلَّ

(١) أخرجه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد، كما في المغني١: ٣٠١.
(٢) أخرجه البخاري رقم ٧١٢٤ ومسلم رقم ٢٦٩٤.
(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٦٩٥.
(٤) أخرجه مسلم رقم ٢٧٣١.
(٥) أخرجه مسلم رقم ٢١٣٧.
(٦) أخرجه مسلم رقم ٢٢٣.

يوْم أَلف حَسنَة» فَسَأَلَهُ سائِلٌ مِنْ جُلَسائِهِ: كيفَ يكسِبُ أحدنا أَلفَ حَسنَةٍ؟ قالَ: يُسَبِّحُ مِائةَ تَسْبيحة، فَيُكتَبُ له أَلفُ حسنةٍ، أو يُحَطُّ عنه ألفُ خَطِيئَةٍ»(١).

وعن جابر رضي الله عنه، قال ﷺ: «من قال: سُبحان اللهِ وبحَمدِهِ، غُرِستْ له نَخْلَةٌ في الجَنَّةِ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «من: قالَ سُبْحَانَ الله وَبحمْدِهِ، في يوْم مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خطَاياهُ، وإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْر»(٣).

وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «مُعقِّبَاتٌ لا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ أو فَاعِلُهُنَّ دُبُرَ كُلِّ صلاةٍ مكتُوبةٍ: ثلاثاً وثَلاثِينَ تسبِيحةً، وثلاثاً وثلاثِينَ تَحمِيدَةً، وأَرْبَعاً وثَلاثِينَ تكبِيرةً»(٤).

وعن جُوَيْرِيَةَ رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ خَرجَ من عندها بُكرَةً حين صَلَّىٰ الصُّبْحَ، وهي في مسجدها، ثُمَّ رَجع بعد أَنْ أَضْحىٰ وهي جَالِسةٌ فقال: مازلْتِ علىٰ الحال التي فارَقْتُكَ عليها؟ قالت: نعم: فقال النبي ﷺ: لقد قُلْتُ بعدك أَرْبَعَ كَلماتٍ ثَلاثَ مرَّاتٍ، لو وُزِنَتْ بما قلت منذ اليوم لَوَزَنْتهُنَّ:

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٦٩٨.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٤٦٥، وقال: حديث حسنٌ غريب.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٦٠٤٢ ومسلم رقم ٢٦٩١.

(٤) أخرجه مسلم ٥٩٦.

سُبْحَانَ اللهِ وبحمْدِهِ، عَدَدَ خلقه، وَرِضَاءَ نفسه، وزنة عرشه، ومداد كَلِمَاتِه»[١].

وعن جابر رضي الله عنه، قال ﷺ: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ في يوم مائة مرة كانت له عِدْل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك»[٣].

فإن القلب وإن ألزم ذكر الله عز وجل فهو متقلب لا يخلو عن الالتفات إلى شهوات الدنيا، ولا ينفك عن فترة تعتريه، فإذا تمثل في آخر الحال في قلبه أمر من الدنيا، واستولى عليه، وارتحل عن الدنيا والحالة هذه، فيوشك أن يبقى استيلاؤه عليه، فيحن بعد الموت إليه، ويتمنى الرجوع إلى الدنيا، وذلك لقلة حظه في الآخرة؛ إذ يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه، فاسلم الأحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة؛ إذ لم يكن قصد

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٧٢٦.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٣٣٨٣ وابن حبان رقم ٨٤٦، والحاكم رقم ١٨٣٤ وصحح إسناده.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٣١١٩ ومسلم رقم ٢٦٩١.

الشهيد نيل مال أو أن يقال: شجاع أو غير ذلك، قال تعالىٰ: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ}[التوبة:١١١].

ومثل هذا الشخص هو البائع للدنيا بالآخرة، وحالة الشهيد توافق معنىٰ قولك: «لا إله إلا الله»، فإنه لا مقصود له سوىٰ الله تعالىٰ، وكلّ مقصود معبود، وكلُّ معبود إله، فهذا الشهيد قائل بلسان حاله: «لا إله إلا الله»؛ إذ لا مقصود له سواه.

ومَن يقول ذلك بلسانه ولم يساعده حاله فأمره في مشيئة الله تعالىٰ، ولا يؤمن في حقه الخطر(١).

عاشراً: فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ:

قال تعالىٰ: {إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[الأحزاب:٥٦].

فعن أبي طلحة رضي الله عنه: «أنه ﷺ جاء ذات يوم والبشرىٰ ترىٰ في وجهه، فقال: إنه جاءني جبريل عليه السلام، فقال: أما ترضى يا محمد أن لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً»(٢).

---

(١) ينظرك الإحياء١: ٢٩٨ـ٣٠٣.

(٢) أخرجه النسائي وابن حبان بإسناد جيد، كما في المغني١: ٣٠٩.

وعن عامر بن ربيعة ﵁، قال ﷺ: «مَن صلىٰ علي صلت عليه الملائكة ما صلىٰ، فليقلل عبد من ذلك أو ليكثر»[(١)].

وعن ابن مسعود ﵁، قال ﷺ: «إن أولىٰ الناس بي أكثرهم علي صلاة»[(٢)].

وعن علي ﵁، قال ﷺ: «بحسب امرئ من البخل أن أذكر عنده، فلا يصلي علي»[(٣)].

وعن أوس بن أوس ﵁، قال ﷺ: «أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة»[(٤)].

وعن عمرو بن دينار ﵁، قال ﷺ: «مَن صلىٰ علي من أمتي كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات»[(٥)].

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «ليس أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتىٰ أرد عليه السلام»[(٦)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه والطبراني في الأوسط بإسناد حسن، كما في المغني١: ٣٠٩.

(٢) أخرجه الترمذي وقال، حسن غريب، وابن حبان أخرجه الترمذي وقال، حسن غريب، وابن حبان، كما في المغني١: ٣٠٩.

(٣) أخرجه النسائي وابن حبان والترمذي، وقال: حسن صحيح، كما في المغني١: ٣٠٩.

(٤) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال: صحيح علىٰ شرط البخاري، كما في المغني١: ٣٠٩.

(٥) أخرجه النسائي في اليوم والليلة وابن حبان، كما في المغني١: ٣١٠.

(٦) أخرجه أبو داود بسند جيد، كما في المغني١: ٣١٠.

وعن أبي حميد السَّاعدي ﷺ: قيل له: يا رسول الله كيف نصلي عليك، قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً»(٢).

وعن ابن مسعود ﷺ، قال ﷺ: «أَوْلَى النَّاسِ بي يوْمَ الْقِيامةِ أَكْثَرُهُم عَلَيَّ صلاةً»(٣).

وعن أبي بن كعب: قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: ما شئت، قال: قلت: الربع؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: النصف؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير

---

(١) متفق عليه، كما في المغني ١: ٣١٠.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٤٠٨ عن أبي هريرة ﷺ بلفظ «واحدة» بدل «صلاة» وأخرجه مسلم رقم ٣٨٤ باللفظ المذكور عن عبد الله بن عمرو بن العاص وتمامه: «ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة».

(٣) أخرجه الترمذي رقم ٤٨٤، عن ابن مسعود ﷺ وقال: حديث حسنٌ غريب، وأخرجه البزار في مسنده ٤/ ٢٧٨ رقم ١٤٤٦ بلفظ: «إن أولاكم بي يوم القيامة أكثركم علي صلاة في الدنيا»، وأخرجه أبو يعلى رقم٥٠٨٠، قال الشافعي في الأم ج ١ ص ٢٠٨: «وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: أقربكم مني في الجنة أكثركم علي صلاة، فأكثروا الصلاة علي في الليلة الغراء واليوم الأزهر، قال الشافعي: يعني والله تعالى أعلم يوم الجمعة».

لك، قال: قلت: فالثلثين؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: أجعل لك صلاتي كلها، قال: إذاً تكفى همَّك، ويُغفر لك ذنبُك[1].

الحادي عشر: فضيلة الاستغفار:

قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ}[آل عمران:١٣٥].

وقال تعالى: {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ}[آل عمران:١٧].

فعن ابن مسعود رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال ﷺ: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل غم مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب»[3].

وعن الأغر رضي الله عنه، قال ﷺ «إنه ليغان على قلبي حتى إني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة»[4].

وعن أبي موسى رضي الله عنه: «كان ﷺ يقول: اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٤٥٧ وقال: حسن صحيح، أحمد نحوه رقم ٢١٢٨٠.

(٢) أخرجه الحاكم، وقال: صحيح، كما في المغني١: ٣١٠.

(٣) أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، كما في المغني١: ٣١١.

(٤) أخرجه مسلم، كما في المغني١: ٣١١.

وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي جدي وهزلي»(١).

وعن أبي بكر ﷺ، قال ﷺ: «ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له»(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه»(٣).

وعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إن الله ليرفع العبد الدرجة في الجنة فيقول: يا رب أنى لي هذه فيقول: باستغفار ولدك لك»(٤).

وعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إذا أذنب العبد فقال: اللهم اغفر لي يقول الله: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يأخذ بالذنب ويغفر الذنب»(٥).

وعن أبي بكر ﷺ، قال ﷺ: «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»(٦).

---

(١) متفق عليه، كما في المغني١: ٣١١.

(٢) أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذي، كما في المغني١: ٣١٢.

(٣) أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان والحاكم، كما في المغني١: ٣١٢.

(٤) رواه أحمد بإسناد حسن، كما في المغني١: ٣١٢.

(٥) متفق عليه، ، كما في المغني١: ٣١٢.

(٦) أخرجه أبو داود والترمذي، وقال: غريب وليس إسناده بالقوي، كما في المغني١: ٣١٢.

وعن أبي ذر ﷺ، قال ﷺ: يقول الله تعالى: يا عبادي كلكم مذنب إلا من عافيته فاستغفروني أغفر لكم، ومن علم أني ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له، ولا أبالي»[1].

وقال قتادة ﷺ: القرآن يدلكم عن دائكم ودوائكم، أما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار.

وقال علي ﷺ: العجب ممن يهلك ومعه النجاة، قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار، وكان يقول: ما ألهم الله سبحانه عبداً الاستغفار، وهو يريد أن يعذبه.

وقال الفضيل: قول العبد: أستغفر الله تفسيرها أقلني.

وقال بعض العلماء: العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحهما إلا الحمد والاستغفار.

وقال الربيع بن خيثم: لا يقولن أحدكم: أستغفر الله وأتوب إليه، فيكون ذنباً وكذباً إن لم يفعل، ولكن ليقل: اللهم اغفر لي وتب علي.

قال الفضيل: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين.

وقالت رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير.

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي حسن، وأصله عند مسلم بلفظ آخر، كما في المغني ١: ٣١٢.

قال بعض الحكماء: مَن قدم الاستغفار على الندم كان مستهزئاً بالله تعالى، وهو لا يعلم(١).

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال ﷺ: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(٣).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة»(٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»(٥).

الثاني عشر: فضيلة حسبي الله ونعم الوكيل:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «حسبنا الله ونعم الوكيل؛ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: { إِنَّ النَّاسَ قَدْ

(١) ينظر: الإحياء١: ٣١٣.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٧٥٩.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٩٤٨، وروى مسلم رقم ٢٧٠٢.

(٤) أخرجه مسلم رقم ٢٧٠٢.

(٥) أخرجه أبو داود رقم ١٥١٨ وابن ماجه و البيهقي.

جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[آل عمران:١٧٣]»[١].

فعن عوف بن مالك رضي الله عنه، قال ﷺ: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكَيْسِ، فإذا غلبك امرؤ فقل: حسبي الله ونعم الوكيل»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: ﷺ: «كَيْفَ أنعم وصاحِبُ القرنِ قد التَقَمَ القَرن ـ أي الصور ـ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ متى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ، فكأن ذلك ثَقُلَ على أصحاب رسول الله ﷺ فقالَ لهم: قولُوا: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوكِيلُ»[٣].

المطلب الثاني: أسماء الله الحسنى:

من أنواع الذكر المشهور التي اعتنى بها علماء التزكية هي أسماء الله تعالى الحسنى، ولذكرها أثر في تهذيب النفس وتربيتها وتزكيتها والترقي بها، فنقتصر فيها على ما ذكره ابنُ عطاء الله[٤]:

«إن ذكر أسماء الله الحسنى أدوية لأمراض القلوب وعلل السَّالكين إلى حضرة علام الغيوب، ولا يستعمل دواء إلا في الأمراض التي يكون ذلك

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٤٢٨٧.

(٢) أخرجه أبو داود رقم ٣٦٢٧ وأحمد رقم ٢٤٠٢٩.

(٣) أخرجه الترمذي رقم ٢٤٣١، وقال: حديث حسنٌ.

(٤) في مفتاح الفلاح ص٢٣ـ٢٧.

الاسم نافعاً لها، فحين يكون مثلاً الاسم المعطى نافعاً لمرض قلب مخصوص، فالاسم النافع ليس مطلوب فيه، وقس على هذا.

والقاعدة أن مَن ذكر ذكراً وكان لذلك الذكر معنى معقول تعلَّق أثر ذلك المعنى بقلبه، وتبعد لواحقه حتى يتصف الذاكر بتلك المعاني، إلا إذا كانت اسماً من أسماء الانتقام لم يكون كذلك، بل يعلق بقلب الذَّاكر الخوف، فإن حصل له تجل كان من عالم الجلال.

واسمه تعالى الصادق ذكرٌ يُعطي المحجوب صدق اللسان، والصوفي صدق القلب، والعارف التحقيق.

واسمه تعالى الهادي نافع في الخلوة ينفع من وجود التفرقة والسلوة ويرفعهما.

ومن استغاث بالله تعالى ولم ير ظاهر صورة الغوث، فليعلم أن استمراره في الاستغاثة هو المطلوب منه اسمه تعالى الباعث بذكره أهل الغفلة، ولا يذكره أهل طلب الفناء.

واسمه تعالى العفو يليق بأذكار العوام؛ لأنه يصلحم، وليس من شأن السالكين إلى الله تعالى ذكره؛ لأنّ فيه ذكر الذنب، وذكر القوم لا يكون فيه ذكر الذنب، بل ولا ذكر الحسنة، فإذا ذكرته العامّة حَسن حالهم.

واسمه تعالى المولى هو الناصر والسيد، ولا يذكره إلا العباد لاختصاصهم به، فإن ذكره مَن فوقهم فهو بمعنى آخر.

واسمه تعالى المحسن يَصلح للعوام إذا أُريد بهم تحميل مقام التوكل، وذكره يوجب الأنس ويُسرع بالفتح ويداوى به المريد من رعب عالم الجلال.

واسمه تعالى العلام ذكر ينبه من الغفلة ويحضر القلب مع الرب، ويعلم الأدب مع المراقبة قبالة الانس عند أهل الجمال، ويتجدد له الخوف والهيبة عند أهل عالم الجلال.

واسمه تعالى الغافر يلقن لعوام التلاميذ، وهم خائفون من عقوبة الذنب، وأما مَن يصلح للحضرة فذكر مغفرة الذنب عندهم يورث الوحشة، وكذلك ذكر الحسنة يوجب رعونة تجدد للنفس شبه المنة على الله تعالى بخدمته في الطاعة وضرره ذكر السيئة.

واسمه تعالى المتين، وهو الصلب، وهذا الاسم يضر أرباب الخلوة، وينفع أهل الاستهزاء بالدين، ويردهم بطول ذكرهم له إلى الخشوع والخضوع.

واسمه تعالى الغنيّ، ذكره نافعٌ لمن طلب التجريد فلم يقدر عليه.

واسمه تعالى الحسيب، ذاكره إن كان مشغوفاً بالأسباب خرج عنها إلى التجريد، اكتفاء بالحسيب: أي الكافي.

واسمه تعالى المقيت، ذكره يُفيد التجريد عن الأسباب، ويعطي التوكل.

واسمه تعالى ذو الجلال يصلح في الخلوة لأهل الغفلة.

واسمه تعالىٰ الخالق من أذكار أهل مقام العبادة بمقتضىٰ العلم النافع المطابق للعمل الصالح، ولا يصلح أن يُلقن لأهل الاستعداد الوحداني، فإنه يُبعدهم من العرفان ويقربهم إلىٰ العقد العلمي.

واسمه تعالىٰ المصور من أذكار العبَّاد.

واسمه تعالىٰ العالِم من أذكار العبَّاد، ويصلح للمبتدئين من أهل السلوك، ففيه تنبيه للمراقبة، ويحصل به الخوف والرجاء.

واسمه تعالىٰ المحصي من أذكار العبَّاد.

واسمه تعالىٰ الرقيب؛ إذ ذكره أهل الغفلة استيقظوا من سنتها، وإن ذكره أهل اليقظة داموا فيها، وإن ذكره أهل العبادة خلصوا من الرياء، وكذلك أهل التصرُّف والعارفون لا يحتاجون إلىٰ ذكر، وليس فيه نسبة للواقفين؛ لأنهم قطعوا الأسماء، وكان بعض المشايخ يلقن تلامذته.

ما صورته: الله معي، الله ناظر إليّ، الله يراني، ويأمرهم بتكرار ذلك بألسنتهم وقلوبهم دائما، ومراده في ذلك أن يداوي مرض قلوبهم من داء الغفلة، فينبههم بالذكر علىٰ معنىٰ الاسم الرقيب، فيحصل لهم الحضور مع الله تعالىٰ بالأدب، وهو حال أهل العبادة القلبية، وأكملهم في ذلك رجال الأنفاس، وهم الذين لا يحدثون نفساً إلا وقلوبهم حاضرةٌ مع الله، ولا يُطلقون نفساً إلا وهم حاضرون مع الله تعالىٰ، وهو مقام صعب علىٰ أهل الحجاب جداً، مشق عليهم؛ إذ لا يبقىٰ مع مراعاته حظاً من حظوظ العادات البشرية، إلا وتعطل.

واسمه تعالى الوفي، ذكر المتوسطين، وذكره في الخلوة يعطي نهاية ما في الاستعداد من القبول.

واسمه تعالى الشاكر: أي يشكر للعبد الصالح عمله: أي يثني به عليه، وهو يعطي أهل الذكر مقام المحبة...

واسمه تعالى المجيد لا يستعمله في الخلوة أهل البداية، وأهل التوسط يجب أن يذكروه في وقت تجلي الحقّ لهم بالتدلي إلى حضرات التقييد، فإن ذكر المجيد يرفع الاشكال.

واسمه تعالى الودود، وهو ودود بكل خلقه إذا ذكره أرباب الخلوة حصل لهم الأنس والمحبة.

واسمه تعالى المنان ذكره في الخلوة نافع جداً لمن فارق حظوظ النفس، ومضر لمن حاجات نفسه باقية.

واسمه تعالى الحنان ذكره في الخلوة يقوي الأنس إلى أن يبلغ بصاحبه إلى المحبة.

واسمه تعالى البر يُعطي الأُنس فيسرع بالفتح الجزئي لا التوحيد.

واسمه تعالى الظاهر ذكره ينفع في السفر الثاني جداً.

واسمه تعالى الفالق ذكره في الخلوة ينفع المتخلي نفعاً بالغاً، ويسرع بالفتح عليه إذا كان معه الاسم القيوم أو الحي، ويبطئ إذا ذكر معه لا إله إلا الله.

واسمه تعالى اللطيف هو الذي بمعاني الرحمة مطيف، دكره في الخلوة بنفع كثيف الطبع فيتلطف، وأهل المشاهدة يقوي به شهود من ضعف شهوده منهم.

واسمه تعالى النور يُسرع إلى أهل الخلوات النفع؛ لكونه يأتي بالتدريج ولا يُعطي الفتح الكلي إلا نادراً.

واسمه تعالى الوارث يصلح للعارفين يكون جاذباً لهم إلى الفناء المطلق، وهو مقام الوقفة.

واسمه تعالى المعطي أقرب الأسماء المذكورة في الخلوة إلى الفتح، لكن فتحه ضعيف.

واسمه تعالى الفاتق يذكره العارفون، ولا يذكره أهل البداية.

واسم تعالى الشكور ذكره مختصٌّ بالخاصّة من أهل الوصول.

واسمه تعالى ذو الطول من فضل الله علينا الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان، ثم السكينة، ثم الاستقامة، ثم التصرف، ثم العرفان، ثم الوقفة، ثم التحقيق بالمراتب، ثم الخلافة، وهذا الذكر فيه إسراع بالفتح.

وكذلك اسمه الفتاح يُسرع بالفتح.

واسمه الأول يسرع بالفتح.

واسمه تعالى الجبار يُلقن في الخلوة من غلب عليه الحال، وخيف عليه من البسط الذي يجره أهل الطريق من تجلي الاسم الباسط، فإن ذكره مَن خالط البسط عرض له القبض، فيعدل في سلوكه.

واسمه تعالى المتكبر ويذكر في الخلوة وغيرها لإعادة الهيبة إلى مَن غلب عليه البسط.

واسمه تعالى القادر ثمرة ذكره نفع أهل استبعادة خرق العوائد إذا ذكره في خلوته أنعم باطنه بصحة ذلك بوجه ما.

واسمه تعالى القاضي: أي الذي يرجع إلى حكمه بالطاعة مَن ذكر هذا الاسم، وكان يتردد في الأمور جهلاً قضي الله له في باطنه بشهود الحق.

واسمه تعالى القوي ينفع ذكره من مرض في الخلوة أو أُنسي وضعف عن الذكر أو تفزع، فانه يجمع، وخاصته ترجع إلى سلوك الملوك والجبابرة بأنهم إذا ذكروه جمعهم على الحقّ.

واسمه تعالى الحفيظ خاصته حفظ الحال، فيذكره مَن يخاف المكر.

واسمه تعالى الكرم يأمر به الشيخ المريد إذا حقّر نفسه وعدم بالاستغفار أنسه.

واسمه تعالى المدير لا يصلح للسالك ذكره إلا إذا خاف الشيخ عليه من غلبة التوحيد.

واسمه تعالىٰ الكبير يأمر الشيخ التلميذ أن يذكره إذا غلبه تجلىٰ القُرب وخاف عليه الوله منه.

واسمه تعالىٰ المتعال مثل الكبير ينفع من غلبة القرب وكان يتوله فإذا ذكره عاد إلىٰ الحسي.

واسمه تعالىٰ المقتدر ومعناه القادر يذكره مَن يريد الشيخ منه إظهار الكرامات دون التوحيد.

واسمه تعالىٰ الفعال ينفع ذكره مَن يريد التأثيرات والكرامات.

واسمه تعالىٰ الراتق يأمر الشيخ بذكره مَن يخاف منه نكوص الاستعداد، فيجب عنه التجلي.

واسمه تعالىٰ المعيد يُلقيه الشيخ مَن أراد أن يُعجبه إدا خاف عليه من الكشف أن يتوله.

واسم تعالىٰ المقتدر يُلقنه الشيخ لمن هو من أهل الإعراض عن حكمة الحكيم فيجمعهم إليه.

واسمه تعالىٰ الباطن يذكره مَن غلب عليه التجلي الظاهر وخيف عليه الوله يُلقنه الشيخ أن غلب عليه القرب، حتىٰ كاد أن يتوله.

واسمه تعالىٰ الفردوس يأمر الشيخ بذكره من اعترضته في الخلوة شبه أهل التجسيم والتشبيه، ولمن كانت عقيدته تناسب ذلك، فينتفع بذكر هذا الاسم انتفاعاً كثيراً، ولا يأمر الشيخ بذكره غير هؤلاء، ولا سيما من كانت

عقيدته أشعرية، وأنه يبعد عليهم الفتح، ويعوضهم الشيخ عن هذا الاسم القريب والرقيب والودود، وشبه هذه الأسماء.

واسمه تعالى المتحن يُستعمل معناه المشايخ أهل التربية تلاميذهم بما يختبرون به استعداداتهم ليعرفوا أي طريق يسلكون بهم فيه إلى الله تعالى، ولا يلقونه في الخلوة إلا لمن حصلت له بلوى، فهو يذكر ربه».

المطلب الثالث: الدعاء:

الدعاءُ بابُ صلة بين العبد وربه، وخطابٌ منه إلى مولاه سبحانه، فإن وافق دعاؤه ساعة استجابة أُجيبت دعوته، وإن كان صادقاً في توجهه إلى ربه سبحانه تحقق طلبه ومراده.

وفي هذا المطلب نعرض لفضل الدعاء وأدابه في النقاط الآتية:

أولاً: فضله الدعاء:

قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي}[البقرة:١٨٦]، بيان رباني بقرب الله تعالى من عباده بسماع دعائهم وإجابته، فعليهم أن يستجيبوا لله تعالى في التزام شرعه.

وقال تعالى: {ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[الأعراف:٥٥]: **أي تدعونه متضرعين جهاراً ومسرين أو تدعونه دعاء إعلان وإخفاء**[1].

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم٣: ١٤٥.

وقال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِين}[غافر:٦٠]، **فالدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن**[1]**؛ لأنه الدعاء هو العبادة.**

وقال تعالى: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}[الإسراء:١١٠]، لما سمعه أبو جهل يقول: يا الله يا رحمن قال: إنه نهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إلهاً آخر فنزلت[2]، فيجوز الدعاء بأي اسم من أسماء الله تعالى.

فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «إن الدعاء هو العبادة»[3]؛ لما فيه من التذلل والخضوع والتوجه والمناجاة لله تعالى، وهذا هو المقصود في العبادة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «ليس شيء أكرم عند الله من الدعاء»[4]؛ لما اشتمل عليه من المعاني الإيمانية المرغوبة والمحبوبة عند الله تعالى كالتذلل.

---

(١) ينظر: تفسير النسفي٣: ٢١٨.

(٢) ينظر: تفسير النسفي٢: ٢٨٣.

(٣) أخرجه أصحاب السنن والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وقال الترمذي: حسن صحيح، كما في المغني١: ٣٠٤.

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد، كما في المغني١: ٣٠٤.

ثانياً: آداب الدعاء:

١. أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة: كيوم عرفة من السنة ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأسبوع ووقت السحر من ساعات الليل، قال تعالى: {وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}[الذاريات:١٨].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول تعالى: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له»(١).

٢. أن يغتنم الأحوال الشريفة، فعن أنس رضي الله عنه، قال ﷺ: «الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «الصائم لا ترد دعوته»(٣).

وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً؛ إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات، ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل، فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها.

---

(١) متفق عليه، كما في المغني١: ٣٠٤.

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة والترمذي وحسنه وابن حبان والحاكم وصححه، كما في المغني١: ٣٠٤.

(٣) أخرجه الترمذي، وقال: حسن وابن ماجه، كما في المغني١: ٣٠٤.

٣.أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه، فعن أسامة بن زيد ﵁، قال ﷺ: «كنت ردفه بعرفات فرفع يديه يدعو»[(١)].

وعن سلمان ﵁، قال ﷺ: «إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً»[(٢)].

وعن أنس ﵁: «كان ﷺ يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء»[(٣)].

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «مرّ على إنسان يدعو بأصبعيه السبابتين فقال ﷺ: أحد أحد»[(٤)].

وقال أبو الدرداء ﵁: ارفعوا هذه الأيدي قبل أن تغل بالأغلال ثم ينبغي أن يمسح بهما وجهه في آخر الدعاء.

وعن عمر ﵁: «كان رسول الله ﷺ إذا مدّ يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه»[(٥)].

---

(١) رواه النسائي، ورجاله ثقات، كما في المغني١: ٣٠٥.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وقال: إسناده صحيح على شرطهما، كما في المغني١: ٣٠٥.

(٣) أخرجه مسلم، كما في المغني١: ٣٠٥.

(٤) أخرجه النسائي وقال حسن وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد، كما في المغني١: ٣٠٥.

(٥) أخرجه الترمذي وقال: غريب والحاكم في المستدرك وسكت عليه، وهو ضعيف، كما في المغني١: ٣٠٥.

٤. **خفض الصوت بين المخافتة والجهر**، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال ﷺ: «يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب»(١).

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها في قوله تعالى: {وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا}[الإسراء:١١٠]: أي بدعائك(٢).

وقد أثنى الله تعالى على نبيه زكرياء عليه السلام حيث قال: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا}[مريم:٣]، وقال تعالى: {ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}[الأعراف:٥٥].

٥. **أن لا يتكلف السَّجع في الدعاء**، فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع والتكلف لا يناسبه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «وانظر السجع من الدعاء، فاجتنبه فإني عهدت أصحاب رسول الله ﷺ لا يفعلون إلا ذلك»(٣).

وقال بعضهم: ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق.

والمراد بالسجع هو المتكلف من الكلام، فإن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة، وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة.

---

(١) متفق عليه مع اختلاف واللفظ الذي ذكره المصنف لأبي داود، كما في المغني١: ٣٠٥.

(٢) متفق عليه، كما في المغني١: ٣٠٦.

(٣) رواه البخاري وابن ماجه والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد، كما في المغني١: ٣٠٦.

٦.**التضرع والخشوع والرغبة والرهبة**، قال تعالى: { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا}[الأنبياء:٩٠]، وقال تعالى: {ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}[الأعراف:٥٥].

٧.**أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه**، فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، فإنه لا مكره له»(١).

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء»(٢).

وقال سفيان بن عيينة: لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه، فإن الله تعالى أجاب دعاء شرّ الخلق إبليس لعنه الله تعالى إذ قال: {قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُون. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِين}[ص:٨٠].

٨.**أن يلح في الدعاء، ويكرره ثلاثاً**، فعن ابن مسعود ﵁: «كان ﷺ إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سال سأل ثلاثاً»(٣).

وينبغي أن لا يستبطىء الإجابة، فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي»(٤).

---

(١) متفق عليه، كما في المغني١: ٣٠٦.

(٢) أخرجه ابن حبان، كما في المغني١: ٣٠٧.

(٣) رواه مسلم، كما في المغني١: ٣٠٧.

(٤) متفق عليه، كما في المغني١: ٣٠٧.

٩.أن يفتتح الدعاء بذكر الله تعالى، فلا يبدأ بالسؤال، فعن سلمة بن الأكوع ﵁: «ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا استفتحه، وقال: سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب»(١).

قال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ ثم يسأله حاجته ثم يختم بالصَّلاة على النبي ﷺ، فإن الله تعالى يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما.

وقال أبو الدرداء: إذا سألتم الله حاجة فابدءوا بالصلاة علي النبي ﷺ، فإن الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيعطي إحداهما ويرد الأخرى.

١٠. **الأدب الباطن**، وهو الأصل في الإجابة التوبة ورد المظالم والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة، فذلك هو السبب القريب في الإجابة(٢).

١١. أن لا يَستعجل الإجابة من الله تعالى لما طَلَبَ، حتى لا يُحرم إجابة الدعاء، فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يجب لي»(٣).

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل، قيل: يا رسول الله؛ ما الاستعجال ؟ قال: يقول:

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد، كما في المغني ١: ٣٠٧.

(٢) ينظر: الإحياء ١: ٣٠٣ـ٣٠٧.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٩٨١، ومسلم رقم ٢٧٣٥.

قد دعوت، وقد دعوت؛ فلم أَرَ يَستجيب لي، فيستحسر عند ذلك، ويَدَعُ الدعاء»(١).

١٢. أن لا يدعوا على نفسه أو ماله أو أهله أو أولاده، فيوافق ساعة إجابة، فيتحقق ما دعاء به، فيندم ندماً كبيراً، فعن جابر ﵁، قال ﷺ: «لا تَدْعُوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم؛ لا توافقوا من الله ساعةً يُسأَلُ فيها عطاءً فيستجيب لكم»(٢).

المطلب الثالث: ترتيب الأوراد وإحياء الليل:

إنّ الله تعالى جعل الأرض ذلولاً لعباده إلا ليستقروا في مناكبها، بل ليتخذوها منزلاً، فيتزودوا منها زاداً يحملهم في سفرهم إلى أوطانهم، ويكتنزون منها تحفاً لنفوسهم عملاً وفضلاً محترزين من مصايدها ومعاطبها، ويتحققون أن العمر يسير بهم سير السفينة براكبها.

فالناس في هذا العالم سفرٌ، وأول منازلهم المهد، وآخرها اللحد، والوطن هو الجنة أو النار، والعمر مسافة السفر، فسنوه مراحله وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله وأنفاسه خطواته، وطاعته بضاعته وأوقاته رءوس أمواله، وشهواته وأغراضه قطاع طريقه، وربحه الفوز بلقاء الله تعالى في دار السلام مع الملك الكبير والنعيم المقيم وخسرانه البعد من الله تعالى مع الأنكال والأغلال والعذاب الأليم في دركات الجحيم.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٧٣٥.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٣٠٠٦.

فالغافل في نفس من أنفاسه حتى ينقضي في غير طاعة تقربه إلى الله تعالى زلفى متعرض في يوم التغابن لغبينة وحسرة ما لها منتهى، ولهذا الخطر العظيم والخطب الهائل شَمَّرَ الموفقون عن ساق الجد، وودعوا بالكلية ملاذ النفس واغتنموا بقايا العمر، ورتبوا بحسب تكرر الأوقات وظائف الأوراد حرصاً على إحياء الليل والنهار في طلب القرب من الملك الجبار، والسعي إلى دار القرار[1].

أولاً: فضيلة الأوراد:

إن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لا نجاة إلا في لقاء الله تعالى، وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محباً لله تعالى، وعارفاً بالله سبحانه، وأنّ المحبّةَ والأنسَ لا تحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه، وأن المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه وفي صفاته وأفعاله، وليس في الوجود سوى الله تعالى وأفعاله، ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا وشهواتها والاجتزاء منها بقدر البلغة والضرورة، وكل ذلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار في وظائف الأذكار والأفكار.

والنفس لما جبلت عليه من السآمة والملال لا تصبر على فنٍّ واحد من الأسباب المعينة على الذكر والفكر، بل إذا ردت إلى نمط واحدٍ أظهرت الملال والاستثقال، وأن الله تعالى لا يملُّ حتى تملوا فمن ضرورة اللطف بها

---

(١) ينظر: الإحياء١: ٣٣٠.

أن تروح بالتنقل من فن إلى فن، ومن نوع إلى نوع، بحسب كل وقت لتغزر بالانتقال لذتها وتعظم باللذة رغبتها وتدوم بدوام الرغبة مواظبتها.

فلذلك تقسم الأوراد قسمة مختلفة، فالذكر والفكر ينبغي أن يستغرقاً جميع الأوقات أو أكثرها، فإن النفس بطبعها مائلة إلى ملاذ الدنيا، فإن صرف العبد شطر أوقاته إلى تدبيرات الدنيا وشهواتها المباحة مثلاً، والشطر الآخر إلى العبادات رجح جانب الميل إلى الدنيا لموافقتها الطبع؛ إذ يكون الوقت متساوياً، فأنى يتقاومان والطبع لأحدهما مرجِّحٌ؛ إذ الظاهر والباطن يتساعدان على أمور الدنيا، ويصفو في طلبها القلب ويتجرد.

وأمَّا الردُّ إلى العبادات فمتكلف، ولا يسلم إخلاص القلب فيه وحضوره إلا في بعض الأوقات، فمن أراد أن يدخل الجنة بغير حساب، فليستغرق أوقاته في الطاعة، ومن أراد أن تترجَّح كفة حسناته وتثقل موازين خيراته، فليستوعب في الطاعة أكثر أوقاته فإن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فأمره مخطر، ولكن الرجاء غير منقطع والعفو من كرم الله منتظر، فعسى الله تعالى أن يغفر له بجوده وكرمه.

فهذا ما انكشف للناظرين بنور البصيرة، فإن لم تكن من أهله فانظر إلى خطاب الله تعالى لرسوله واقتبسه بنور الإيمان فقد قال تعالى لأقرب عباده إليه وأرفعهم درجة لديه: {إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً. وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً}[المزمل:٨]، وقال تعالى: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً}[الإنسان:٢٦] ، وقال تعالى: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوب. وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ

وَأَدْبَارَ السُّجُود}[ق:٤٠]، وقال سبحانه: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُوم. وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُوم}[الطور:٤٩]، وقال تعالى: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً}[المزمل:٦]، وقال تعالى: {وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى}[طه:١٣٠]، وقال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ}[هود:١١٤].

ثم انظر كيف وصف الفائزين من عباده وبماذا وصفهم فقال تعالى: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ}[الزمر:٩]، وقال تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا}[السجدة:١٦]، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا}[الفرقان:٦٤]، وقال تعالى: {كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُون. وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُون}[الذاريات:١٨]، وقال تعالى: {فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُون}[الروم:١٧]، وقال تعالى: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}[الأنعام:٥٢]، فهذا كله يبين لك أن الطريق إلى تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على سبيل الدوام.

فعن ابن أبي أوفى ﵁، قال ﷺ: «خيار عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأهلة لذكر الله تعالى»(١).

---

(١) أخرجه الطبراني والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، كما في المغني ١: ٣٣١.

وقال تعالىٰ: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ}[الرحمن:٥]، وقال تعالىٰ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً. ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا}[الفرقان:٤٦] ، وقال تعالىٰ: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ}[يس:٣٩]، وقال تعالىٰ: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}[الأنعام:٩٧]، فلا تظنن أن المقصود من سير الشمس والقمر بحسبان منظوم مرتب ومن خلق الظل والنور والنجوم أن يستعان بها علىٰ أمور الدنيا، بل لتعرف بها مقادير الأوقات، فتشتغل فيها بالطاعات والتجارة للدار الآخرة يدلك عليه قوله تعالىٰ: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}[الفرقان:٦٢]: أي يخلف أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات في الآخر وبين أن ذلك للذكر والشكر لا غير.

وقال تعالىٰ: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ}[الإسراء:١٢]، وإنما الفضل المبتغىٰ هو الثواب والمغفرة ونسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه(١).

ثانياً: اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال:

إن أوراد النهار سبعة، فما بين طلوع الصبح إلىٰ طلوع قرص الشمس ورد، وما بين طلوع الشمس إلىٰ الزوال وردان، وما بين الزوال إلىٰ وقت

---

(١) ينظرك الإحياء١: ٣٣٠ـ ٣٣١.

العصر وردان، وما بين العصر إلى المغرب وردان، والليل ينقسم إلى أربعة أوراد، وردان من المغرب إلى وقت نوم الناس، ووردان من النصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر(١).

وإن المريد لحرث الآخرة السالك لطريقها لا يخلو عن ستة أحوال، فإنه إما عابد وإما عالم وإما متعلم وإما وال وإما محترف وإما موحد مستغرق بالواحد الصمد عن غيره.

١. **العابد**، وهو المتجرد للعبادة الذي لا شغل له غيرها أصلاً، ولو ترك العبادة لجلس بطالاً، فلا يبعد أن تختلف وظائفه بأن يستغرق أكثر أوقاته إما في الصلاة أو القراءة أو في التسبيحات فقد كان في الصحابة رضي الله عنهم من ورده في اليوم اثنا عشر ألف تسبيحة، وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفاً، وكان فيهم من ورده ثلثمائة ركعة إلى ستمائة وإلى ألف ركعة، وأقل ما نقل في أورادهم من الصلاة مائة ركعة في اليوم والليلة، وكان بعضهم أكثر ورده القرآن، وكان يختم الواحد منهم في اليوم مرة، وروى مرتين عن بعضهم، وكان بعضهم يقضي اليوم أو الليل في التفكر في آية واحدة يرددها، وكان كرز بن وبرة مقيماً بمكة فكان يطوف في كل يوم سبعين أسبوعاً، وفي كلِّ ليلة سبعين أسبوعاً، وكان مع ذلك يختم القرآن في اليوم والليلة مرتين، فحسب ذلك فكان عشرة فراسخ، ويكون مع كل أسبوع ركعتان، فهو مائتان وثمانون ركعة، وختمتان وعشرة فراسخ.

(١) ينظر: الإحياء١: ٣٣١.

فإن قلت: فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد، فاعلم أن قراءة القرآن في الصلاة قائماً مع التدبر يجمع الجميع، ولكن ربما تعسر المواظبة عليه، فالأفضل يختلف باختلاف حال الشخص ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره وتحليته بذكر الله تعالى وإيناسه به، فلينظر المريد إلى قلبه فما يراه أشدُّ تأثيراً فيه فليواظب عليه، فإذا أحسَّ بملالة منه فلينتقل إلى غيره.

ولذلك نرى الأصوب لأكثر الخلق توزيع هذه الخيرات المختلفة على الأوقات، والانتقال فيها من نوع إلى نوع؛ لأن الملال هو الغالب على الطبع وأحوال الشخص الواحد في ذلك أيضاً تختلف، ولكن إذا فهم فقه الأوراد وسرها، فليتبع المعنى، فإن سمع تسبيحة مثلاً وأحس لها بوقع قلبه، فليواظب على تكرارها ما دام يجد لها وقعاً.

٢. **العالم الذي ينفع الناس بعلمه في فتوى أو تدريس أو تصنيف**، فترتيبه الأوراد يخالف ترتيب العابد، فإنه يحتاج إلى المطالعة للكتب وإلى التصنيف والإفادة ويحتاج إلى مدة لها لا محالة، فإن أمكنه استغراق الأوقات فيه، فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات ورواتبها.

وكيف لا يكون كذلك، وفي العلم المواظبة على ذكر الله تعالى، وتأمل ما قال الله تعالى وقال رسوله، وفيه منفعة الخلق وهدايتهم إلى طريق الآخرة، ورب مسألة واحدة يتعلمها المتعلم، فيصلح بها عبادة عمره، ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعاً، وإنما نعني بالعلم المقدم على العبادة العلم الذي يرغب الناس في الآخرة ويزهدهم في الدنيا، أو العلم الذي يعينهم على سلوك

طريق الآخرة إذا تعلموه على قصد الاستعانة به على السلوك دون العلوم التي تزيد بها الرغبة في المال والجاه وقبول الخلق.

والأولى بالعالم أن يقسم أوقاته أيضاً، فإن استغراق الأوقات في ترتيب العلم لا يحتمله الطبع، فينبغي أن يخصص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد.

وبعد الطلوع إلى ضحوة النهار في الإفادة والتعليم إن كان عنده من يستفيد علماً لأجل الآخرة، وإن لم يكن فيصرفه إلى الفكر ويتفكر فيما يُشكل عليه من علوم الدين، فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات.

ومن ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة لا يتركها إلا في وقت أكل وطهارة ومكتوبة وقيلولة خفيفة إن طال النهار.

ومن العصر إلى الاصفرار يشتغل بسماع ما يقرأ بين يديه من تفسير أو حديث أو علم نافع.

ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالذكر والاستغفار والتسبيح، فيكون ورده الأول قبل طلوع الشمس في عمل اللسان، وورده الثاني في عمل القلب بالفكر إلى الضحوة، وورده الثالث إلى العصر في عمل العين واليد بالمطالعة والكتابة، وورده الرابع بعد العصر في عمل السمع؛ ليروح فيه العين واليد، فإن المطالعة والكتابة بعد العصر ربما أضرا بالعين، وعند

الاصفرار يعود إلى ذكر اللسان، فلا يخلو جزء من النهار عن عمل له بالجوارح مع حضور القلب في الجميع.

وأما الليل فأحسن قسم فيه قسمة الشافعي ﷺ؛ إذ كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء، ثلثا للمطالعة وترتيب العلم وهو الأول، وثلثا للصلاة، وهو الوسط وثلثا للنوم وهو الأخير، وهذا يتيسر في ليالي الشتاء، والصيف ربما لا يحتمل ذلك إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار، فهذا ما نستحبُّه من ترتيب أوراد العالم.

٣. **المتعلم**، والاشتغال بالتعلم أفضل من الاشتغال بالأذكار والنوافل، فحكمه حكم العالم في ترتيب الأوراد، ولكن يشتغل بالاستفادة حيث يشتغل العالم بالإفادة، وبالتعليق والنسخ حيث يشتغل العالم بالتصنيف.

وإن لم يكن متعلماً على معنى أنه يعلق ويحصل؛ ليصير عالماً، بل كان من العوام، فحضوره مجالس الذكر والوعظ والعلم أفضل من اشتغاله بالأوراد بعد الصبح وبعد الطلوع وفي سائر الأوقات.

قال عمر ﷺ: إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة، فإذا سمع العالم خاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب، فلا تفارقوا مجالس العلماء، فإن الله تعالى لم يخلق على وجه الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء.

٤. **المحترف الذي يحتاج إلى الكسب لعياله**، فليس له أن يضيع العيال ويستغرق الأوقات في العبادات، بل ورده في وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب، ولكن ينبغي أن لا ينسى ذكر الله تعالى في صناعته، بل

يواظب على التسبيحات الأذكار وقراءة القرآن، فإن ذلك يمكن أن يجمع إلى العمل، وإنما لا يتيسر مع العمل الصلاة إلا أن يكون ناظوراً، فإنه لا يعجز عن إقامة أوراد الصلاة معه.

ثم مهما فرغ من كفايته ينبغي أن يعود إلى ترتيب الأوراد، وإن داوم على الكسب وتصدق بما فضل عن حاجته فهو أفضل من سائر الأوراد؛ لأن العبادات المتعدية فائدتها أنفع من اللازمة، والصدقة والكسب على هذه النية عبادة له في نفسه تقربه إلى الله تعالى، ثم يحصل به فائدة للغير وتتجذب إليه بركات دعوات المسلمين ويتضاعف به الأجر.

٥. **الوالي مثل الإمام والقاضي والمتولي في أمور المسلمين**، فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة، فحقه أن يشتغل بحقوق الناس نهاراً، ويقتصر على المكتوبة ويقيم الأوراد المذكورة بالليل، كما كان عمر ﷺ يفعله إذ قال: مالي وللنوم، فلو نمت بالنهار ضيعت المسلمين، ولو نمت بالليل ضيعت نفسي.

ويقدم على العبادات البدنية أمران: أحدهما: العلم، والآخر: الرفق بالمسلمين؛ لأن كل واحد من العلم وفعل المعروف عمل في نفسه، وعبادة تفضل سائر العبادات يتعدى فائدته وانتشار جدواه، فكانا مقدمين عليه.

٦. **الموحد المستغرق بالواحد الصمد الذي أصبح وهمومه هم واحد**، فلا يحب إلا الله تعالى، ولا يخاف إلا منه، ولا يتوقع الرزق من غيره، ولا ينظر في شيء إلا ويرى الله تعالى فيه، فمن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة لم يفتقر إلى

تنويع الأوراد واختلافها، بل كان ورده بعد المكتوبات واحد، وهو حضور القلب مع الله تعالى في كل حال، فلا يخطر بقلوبهم أمر، ولا يقرع سمعهم قارع، ولا يلوح لأبصارهم لائح، إلا كان لهم فيه عبرة وفكر ومزيد، فلا محرك لهم، ولا مسكن إلا الله تعالى.

فهؤلاء جميع أحوالهم تصلح أن تكون سبباً لازديادهم، فلا تتميز عندهم عبادة عن عبادة، وهم الذين فروا إلى الله تعالى كما قال تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون. فَفِرُّوا إِلَى اللهَّ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِين}[الذاريات:٥٠]، وتحقق فيهم قوله تعالى: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَّ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته}[الكهف:١٦].

وإليه الإشارة بقوله تعالى: { إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين}[الصافات:٩٩]، وهذه منتهى درجات الصديقين، ولا وصول إليها إلا بعد ترتيب الأوراد والمواظبة عليها دهراً طويلاً، فلا ينبغي أن يغتر المريد بما سمعه من ذلك، فيدعيه لنفسه ويفتر عن وظائف عبادته، فذلك علامته أن لا يهجس في قلبه وسواس ولا يخطر في قلبه معصية ولا ترعجه هواجم الأهوال، ولا تستفزه عظائم الأشغال.

وأنى ترزق هذه الرتبة لكل أحد، فيتعين على الكافة ترتيب الأوراد كما ذكرناه، وجميع الطرق إلى الله تعالى، قال تعالى: {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلا}[الإسراء:٨٤][1].

---

(١) ينظر: الإحياء١: ٣٣١ـ ٣٥٠.

ثالثاً: أسباب تيسر قيام الليل:

إن قيام الليل عسير على الخلق إلا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهراً وباطناً فأما الظاهرة فأربعة أمور:

١. **أن لا يكثر الأكل**، فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول معاشر المريدين لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتتحسروا عند الموت كثيراً، وهذا هو الأصل الكبير، وهو تخفيف المعدة عن ثقل الطعام.

٢. **أن لا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تعيا بها الجوارح وتضعف بها الأعصاب**، فإن ذلك أيضا مجلبة للنوم.

٣. **أن لا يترك القيلولة بالنهار**، فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل.

٤. **أن لا يحتقب الأوزار بالنهار**، فإن ذلك مما يقسي القلب، ويحول بينه وبين أسباب الرحمة، قال رجل للحسن يا أبا سعيد إني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعد طهوري، فما بالي لا أقوم، فقال: ذنوبك قيدتك.

وقال الثوري: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته، قيل: وما ذاك الذنب، قال: رأيت رجلاً يبكي، فقلت في نفسي: هذا مراء.

وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير، والشر يدعو إلى الشر، والقليل من كل واحد منهما يجر إلى الكثير، ولذلك قال أبو سليمان الداراني: لا تفوت أحداً صلاة الجماعة إلا بذنب.

فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل وأخصها بالتأثير تناول الحرام، وتؤثر اللقمة الحلال في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير ما لا يؤثر غيرها، ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له.

وأما الميسرات الباطنة فأربعة أمور:

١ .**سلامة القلب عن الحقد على المسلمين**، وعن البدع، وعن فضول هموم الدنيا، فالمستغرق الهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام وإن قام فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته، ولا يجول إلا في وساوسه.

٢.**خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل**، فإنه إذا تفكر في أهوال الآخرة ودركات جهنم طار نومه، وعظم حذره.

٣.**أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار** حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه، فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة في درجات الجنان.

٤ . **الحب لله وقوة الإيمان**، وهو أشرف البواعث، بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج ربه، وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه، وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه، فإذا أحب الله تعالى أحب لا محالة الخلوة به وتلذذ بالمناجاة، فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام، ولا ينبغي أن يستبعد هذه اللذة؛ إذ يشهد لها العقل والنقل.

فأما العقل فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله أو لملك بسبب إنعامه وأمواله أنه كيف يتلذذ به في الخلوة ومناجاته، حتى لا يأتيه النوم طول ليله.

وقال الفضيل بن عياض: إذا غربت الشَّمس فرحت بالظلام لخلوتي بربي، وإذا طلعت حزنت لدخول الناس عليّ.

وقال أبو سليمان: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا(١).

رابعاً: طرق القسمة لأجزاء الليل:

إن إحياء الليل من حيث المقدار له سبع مراتب:

١. **إحياء كل الليل**، وهذا شأنُ الأقوياء الذين تجردوا لعبادة الليل وتلذذوا بمناجاته وصار ذلك غذاءً لهم وحياة لقلوبهم، فلم يتعبوا بطول القيام وردوا المنام إلى النهار، وقد كان ذلك طريق جماعة من السلف كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء.

حكى أبو طالب المكي أن ذلك حكي على سبيل التواتر والاشتهار عن أربعين من التابعين، وكان فيهم مَن واظب عليه أربعين سنة، قال منهم سعيد بن المسيب وصفوان بن سليم المدنيان وفضيل بن عياض ووهيب بن الورد المكيان وطاوس ووهب بن منبه اليمانيان والربيع بن خيثم والحكم الكوفيان

(١) ينظر: الإحياء١: ٣٥٦ـ٣٥٨.

وأبو سليمان الداراني وعلي بن بكار الشاميان وأبو عبد الله الخواص وأبو عاصم العباديان وحبيب أبو محمد وأبو جابر السلماني الفارسيان ومالك بن دينار سليمان التيمي ويزيد الرقاشي وحبيب بن أبي ثابت ويحيى البكاء البصريون وكهمس بن المنهال.

٢.**أن يقوم نصف الليل**، وهذا لا ينحصر عدد المواظبين عليه من السلف، وأحسن فيه أن ينام الثلث الأول من الليل والسدس الأخير منه، حتى يقع قيامه في جوف الليل ووسطه، فهو الأفضل.

٣.**أن يقوم ثلث الليل**، فينبغي أن يَنام النصف الأول والسدس الأخير وبالجملة نوم آخر الليل محبوب؛ لأنه يذهب النعاس بالغداة، وكانوا يكرهون ذلك، ويقلل صفرة الوجه والشهرة به، فلو قام أكثر الليل ونام سحراً قلت صفرة وجهه وقل نعاسه.

فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان ﷺ ينام أول الليل، ويحيي آخره ثمّ إن كان له حاجة إلى أهله قضى حاجته، ثم ينام»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: «ما ألفى رسول الله ﷺ السحر الأعلى في بيتي أو عندي إلا نائماً»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم، كما في المغني١: ٣٥٩.

(٢) متفق عليه، كما في المغني١: ٣٥٩.

حتى قال بعض السلف هذه الضجعة قبل الصبح سنة، منهم أبو هريرة ﷺ، وكان نوم هذا الوقت سبباً للمكاشفة والمشاهدة من وراء حجب الغيب، وذلك لأرباب القلوب.

٤. **أن يقوم سدس الليل أو خمسه**، وأفضله أن يكون في النصف الأخير وقبل السدس الأخير منه.

٥. **أن لا يراعي التقدير**، ولكنه يقوم من أول الليل إلى أن يغلبه النوم، فإذا انتبه قام، فإذا غلبه النوم عاد إلى النوم، فيكون له في الليل نومتان وقومتان، وهو من مكابدة الليل وأشد الأعمال وأفضلها.

فعن أم سلمة رضي الله عنها: «كان ﷺ يُصلي وينام قدر ما صلى ثم يصلي قدر ما نام ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح»(١).

٦. **أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين أو تتعذر عليه الطهارة**، فيجلس مستقبل القبلة ساعة مشتغلاً بالذكر والدعاء، فيكتب في جملة قوام الليل برحمة الله وفضله.

٧. **إحياء ما بين العشاءين**، والورد الذي بعد العشاء، ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر، فلا يدركه الصبح نائماً ويقوم بطرفي الليل(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه، كما في المغني ١: ٣٦٠.

(٢) ينظر: الإحياء ١: ٢٥٩ـ ٢٦١.

وإن الليالي المخصوصة بمزيد الفضل التي يتأكد فيها استحباب الإحياء في السنة خمس عشرة ليلة لا ينبغي أن يغفل المريد عنها، فإنها مواسم الخيرات ومظان التجارات، ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يربح، ومتى غفل المريد عن فضائل الأوقات لم ينجح.

فستة من هذه الليالي في شهر رمضان خمس في أوتار العشر الأخير؛ إذ فيها يطلب ليلة القدر وليلة سبع عشرة من رمضان، فهي ليلة صبيحتها يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان فيه كانت وقعة بدر، وقال ابن الزبير رضي الله عنه: هي ليلة القدر، وأمّا التسع الأخر، فأول ليلة من المحرم وليلة عاشوراء وأول ليلة من رجب وليلة النصف منه وليلة سبع وعشرين منه، وهي ليلة المعراج[1].

---

(١) ينظر: الإحياء١: ٢٦١.

الفصل الثاني
التفكر وتوابعه

إن الواجب على الإنسان التفكر ابتداءً ليصل إلى خالقه وبارئه سبحانه، فالمقصد الأساسي من وجود كلِّ شيءٍ فيك أو حولك هو الوصول له تعالى، حتى تهتدي إليه، فإن وصلت إليه كان لتفكرك نفعاً بزيادة يقينك به تعالى وتقوية إيمانك.

قال الغَزالي[1]: «الفكر ... وهو أعلى المقامات، وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين؛ إذ المحب إذا رأي صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسى الصنعة واشتغل قلبه بالصانع».

ومجالات التفكر واسعة لا تنتهي، وأثر التفكر في تزكية النفس وتطهيرها والترقي في المقامات القلبية ظاهر لكل صاحب بصيرة.

قال الغَزالي[2]: «الفكر أما بذكر مجامعه، فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال، وفيه شفاء للعالمين،

---

(١) في الإحياء٤: ٤٠٣.

(٢) في الإحياء٤: ٤٣١.

وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال، وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة، فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلىٰ التَّفكر فيها مرة بعد أخرىٰ».

ونعرض فيه للتفكر وآداب العزلة وذكر الموت وقصر الأمل المباحث الآتية:

المبحث الأول
التفكر والعزلة

نذكر في هذا المبحث ما يتعلق بالتفكر وآداب العزلة في مطلبين على النحو الآتي:

المطلب الأول: التفكر:

إن التفكر من أعظم العبادات، وفيه اتصالٌ مع خالق السموات، وتعليقُ القلب بصانعه وموجده، فيتحقق به ما لا يتحقق بكثرة الصلوات، ولذلك عدل بعبادة سنين، فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة»[1].

قال الغزالي[2]: «وكثر الحثُّ في كتاب الله تعالى على التَّدبر والاعتبار

---

(١) أخرجه ابن حبان في كتاب العظمة بإسناد ضعيف، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس ﵁ بلفظ: «ثمانين سنة»، وإسناده ضعيف جداً، ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس ﵄ بلفظ: «خير من قيام ليلة»، كما في المغني ٤: ٤٢٣.

(٢) في الإحياء ٤: ٤٢٣.

والنظر والافتكار، ولا يخفىٰ أن الفكرَ هو مفتاح الأنوار، ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته، لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ولم يعلم أنه كيف يتفكّر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر ».

ونعرض في هذا المبحث لفضيلة التفكر وحقيقة الفكر وثمرته ومجاري الفكر وكيفية التفكر في المطالب الآتية:

أولاً: فضيلة التفكر:

قد أمر الله تعالىٰ بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصىٰ وأثنىٰ علىٰ المتفكرين، فقال تعالىٰ: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَّ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً}[آل عمران:١٩١].

قال الحسن: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال الفضيل: الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

قال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل.

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله تعالىٰ من أفضل العبادة.

وقال بشر: لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله تعالىٰ.

وقال ابن عباس ﷺ: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب.

وقال أبو سليمان: عودوا أعينكم البكاء، وقلوبكم التفكر.

وقال أبو سليمان: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة، وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة يورث الحكمة، ويحيي القلوب.

وقال حاتم: من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف.

وقال ابن عبَّاس ﷺ: التَّفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشرِّ يدعو إلى تركه.

وقال الحسن: إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم، فنطقت بالحكمة.

وقال الجنيد: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد، والنظر بحسن الظن لله تعالى، ثم قال: يا لها من مجالس ما أجلها، ومن شراب ما ألذه، طوبى لمن رزقه.

وقال الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر.

وقال: صحّة النظر في الأمور نجاة من الغرور، والعزم في الرَّأي سلامة من التفريط، والندم والروية والفكر يكشفان عن الحزم، والفطنة ومشاورة

الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة، ففكر قبل أن تعزم، وتدبر قبل أن تهجم، وشاور قبل أن تقدم.

وقال: الفضائل أربع: إحداها: الحكمة، وقوامها الفكرة، والثانية: العفة، وقوامها في الشهوة، والثالثة: القوة، وقوامها في الغضب، والرابعة: العدل، وقوامه في اعتدال قوى النفس[1].

ثانياً: حقيقة الفكر وثمرته:

إن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة، ومثاله: أن من مال إلى العاجلة، وآثر الحياة الدنيا، وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة، فله طريقان:

أ.أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا، فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر، فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجرد قوله، وهذا يُسمّى تقليداً، ولا يسمى معرفة.

ب.أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار، ثم يعرف أنّ الآخرة أبقى، فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة، وهو أن الآخرة أولى بالإيثار، ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين، فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكراً واعتباراً وتذكراً ونظراً وتأملا وتدبراً.

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٤٢٤_ ٤٢٥.

أما التدبر والتأمل والتفكر فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة.

وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر، فهي مختلفةُ المعانى وإن كان أصل المُسمّى واحد، فالاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة، وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار، وأما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يُسمّى ناظراً، فكل متفكر فهو متذكر، وليس كل متذكر متفكراً.

وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ، ولا تنمحي عن القلب.

وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة.

والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت في القلب على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى، فالمعرفة نتاج المعرفة، فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر، وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم، ويتمادى الفكر إلى غير نهاية، وإنما تنسدُّ طريق زيادة المعارف بالموت أو بالعوائق، وهذا لمن يقدر على استثمار العلوم، ويهتدى إلى طريق التفكير.

وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال، وهو المعارف التى بها تستثمر العلوم.

وكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم، ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلىٰ النتاج فيها، ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارةً تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وذلك عزيز جداً، وقد تكون بالتعلم والممارسة، وهو الأكثر.

ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة، وهو لا يشعر بكيفية حصولها، ولا يقدر علىٰ التعبير عنها لقلّة ممارسته لصناعة التعبير في الإيراد، فكم من إنسان يعلم أن الآخرة أولىٰ بالإيثار علماً حقيقياً، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر علىٰ إيراده والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين، وهو أن الأبقىٰ أولىٰ بالإيثار، وأن الآخرة أبقىٰ من الدنيا، فتحصل له معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولىٰ بالإيثار، فرجع حاصل حقيقة التفكر إلىٰ إحضار معرفتين للتوصل بهما إلىٰ معرفة ثالثة.

وأما ثمرة الفكر، فهىٰ العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير، نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح، فالعمل تابع الحال، والحال تابع العلم، والعلم تابع الفكر.

فالفكر إذن هو المبدأ، والمفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذىٰ يكشف لك فضيلة التفكر، وأنه خير من الذكر والتذكر؛ لأنّ الفكر ذكر وزيادة، وذكر القلب خيرٌ من عمل الجوارح، بل شرف العمل لما فيه من الذكر.

فإذن التفكر أفضل من جملة الأعمال، فقيل: هو الذئ ينقل من المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، وقيل: هو الذئ يحدث مشاهدة وتقوى، ولذلك قال تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا}[طه:١١٣].

وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر، فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة، فإن الفكر يعرفنا أنّ الآخرة أولى بالإيثار، فإذا رسخت هذه المعرفة يقيناً في قلوبنا تغيَّرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، وهذا ما عنيناه بالحال إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حبُّ العاجلة، والميل إليها، والنفرة عن الآخرة، وقلَّة الرغبة فيها.

وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في طراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة، فههنا خمس درجات:

أ.التذكر، وهو إحضار المعرفتين في القلب.

ب.التفكر، وهو طلب المعرفة المقصودة منهما.

ج.حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها.

د. تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة.

هـ.خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال، فتصير العين مبصرةٌ بعد أن لم تكن مبصرة، وتنتهض الأعضاء للعمل، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر، فيجمع بين المعرفتين.

ويتغيَّر القلبُ بسبب هذا النور حتىٰ يميل إلىٰ ما لم يكن يميل إليه، كما يتغيَّر البصر بنور النَّار، فيرىٰ ما لم يكن يراه، ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضىٰ حال القلب، كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره.

فإذن ثمرة الفكر العلوم والأحوال والعلوم لا نهاية لها، والأحوال التىٰ تتصور أن تتقلب علىٰ القلب لا يمكن حصرها، ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه فيماذا يتفكر لم يقدر عليه؛ لأن مجارىٰ الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية، نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة إلىٰ مهمات العلوم الدينية، وبالإضافة إلىٰ الأحوال التىٰ هىٰ مقامات السالكين، ويكون ذلك ضبطا جملياً، فإن تفصيل ذلك يستدعىٰ شرح العلوم كلها(١).

ثالثاً: مجارى الفكر:

إن حال السائرين إلىٰ الله تعالىٰ والمشتاقين إلىٰ لقائه يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه، فإن تفكر في معشوقه، فإما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته، وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة علىٰ أخلاقه وصفاته؛ ليكون ذلك مضعفاً للذة ومقوياً لمحبته، وإن تفكر في نفسه، فيكون فكره في صفاته التىٰ تسقطه من عين محبوبه حتىٰ يتنزه عنها أو في الصفات التىٰ تقربه منه وتحببه إليه حتىٰ يتصف بها، فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام، فذلك خارج عن حدِّ العشق،

---

(١) ينظر: الإحياء ٤: ٤٢٦ ـ ٤٢٧

وهو نقصان فيه؛ لأن العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق، ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه متسعاً لغيره.

الأول: فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة:

نذكر في كلِّ نوع مثالاً ليقيس به المريد سائرها، وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه.

١. **المعاصي**؛ ينبغي أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلاً ثم بدنه على الجملة، هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها أو لابسها بالأمس، فيتداركها بالترك والندم أو هو متعرض لها في نهاره، فيستعد للاحتراز والتباعد عنها، فينظر في اللسان، ويقول: إنه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعني إلى غير ذلك من المكاره، فيقرِّر أولاً في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى، ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها، ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه، ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد أو بأن لا يجالس إلا صالحاً تقياً يُنكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله تعالى، وإلا فيضع حجراً في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكراً له، فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز.

ويتفكر في سمعه يصغي به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة، وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو، وأنه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال، أو بالنهي عن المنكر.

ويتفكر في بطنه أنه إنما يعصي الله تعالى فيه بالأكل والشرب، إما بكثرة الأكل من الحلال، فإن ذلك مكروه عند الله ومقوي للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله، وإما بأكل الحرام أو الشبهة، فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه وما مكسبه، ويتفكر في طريق الحلال ومداخله، ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها، وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام.

٢. **الطاعات**؛ فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها، وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل، ثم يرجع إلى عضو عضو، فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً: إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة، ولتستعمل في طاعة الله تعالى، وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله، وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم، فأدخل السرور على قلبه، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء، فأزجره بذلك عن معصيته، فلم لا أفعله.

وكذلك يقول في سمعه إني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة، وعلماً لسرور على قلبه، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء،

فأزجره بذلك عن معصيته، فلم لا أفعله، وكذلك يقول في سمعه إلى قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر، فمالي أعطله، وقد أنعم الله علي به وأودعنيه لأشكره، فمالي أكفر نعمة الله تعالى فيه بتضييعه أو تعطيله.

وكذلك يتفكر في اللسان ويقول: إني قادرٌ على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح، وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح، وعمرو العالم بكلمة طيبة، وكلُّ كلمة طيبة فإنها صدقة.

وكذلك يتفكّر في ماله فيقول: أنا قادرٌ على أن أتصدَّق بالمال الفلاني، فإنا مستغن عنه، ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى ثواب الإيثار أحوج مني إلى ذلك المال.

فإن كلَّ ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكر فيما يرغبه في البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر في إخلاص النية فيها، ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله، وقس على هذا سائر الطاعات.

٣.**الصفات المهلكة التي محلها القلب**، وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك، ويتفقد من قلبه هذه الصفات، فإن ظنّ أن قلبه منزه عنها، فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه، فإن النفس أبداً تعد

بالخير من نفسها وتخلف، فإذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر، فينبغي أن تجرب بحمل حزمة حطب في السوق، كما كان الأولون يجربون به أنفسهم، وإذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ، وكذلك في سائر الصفات.

وهذا تفكر في أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا، ولذلك علامات، فإذا دلت العلامة على وجودها، فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده، وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة.

كما لو رأى من نفسه عجبا بالعمل، فيتفكر ويقول: إنما عمل ببدني وجارحتي وبقدرتي وإرادتي، وكلُّ ذلك ليس مني ولا إلي، وإنما هو من خلق الله وفضله علي، فهو الذي خلقني وخلق جارحتي وخلق قدرتي وإرادتي، وهو الذي حرَّك أعضائي بقدرته، وكذلك قدرتي وإرادتي فكيف أعجب بعملي أو بنفسي، ولا أقوم لنفسي بنفسي.

فإذا أحس في نفسه بالكبر قرَّر على نفسه ما فيه من الحماقة، ويقول لها: لم ترين نفسك أكبر، والكبير من هو عند الله كبير، وذلك ينكشف بعد الموت، وكم من كافر في الحال يموت مقرباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر، وكم من مسلم يموت شقياً بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة، فإذا عرف أن الكبر مهلك، وأن أصله الحماقة، فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين.

وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه، تفكر في أن هذه صفة البهائم، ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله تعالى وصفات الملائكة كالعلم والقدرة، ولما اتصف به البهائم، ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقربين أبعد.

٤. **المنجيات؛** فهو التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد في الدنيا والإخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له.

فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى، فإذا افتقر إلى شيء منها، فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم، وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار، فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم، فليفتش ذنوبه أولاً، وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها، وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم.

وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشك، فلينظر في إحسان الله تعالى إليه وأياديه عليه، وفي إرساله جميل ستره عليه.

وإذا أراد حال المحبة والشوق، فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه، وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه.

وإذا أراد حال الخوف فلينظر أولا في ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر في الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه، ثم في هول النداء عند نفخة الصور ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد، ثم في المناقشة في الحساب في النقير والقطمير، ثم في الصراط ودقته وحدته، ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال، فيكون من أصحاب النار أو يصرف إلى اليمين، فينزل دار القرار، ثم ليحضر بعد أهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها، وأنهم كلَّما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً، وهلم جرا إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها.

وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء، فلينظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم.

فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة.

ولا يوجد في التفكر أنفع من قراءة القرآن، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال، وفيه شفاء للعالمين، وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال، وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة، فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكر فيها

مرة بعد أخرى ولو مائة مرة، فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم، فليتوقف في التأمل فيها، ولو ليلة واحدة، فإن تحت كل كلمة منها أسراراً لا تنحصر، ولا يوقف عليها، إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة.

وكذلك مطالعة أخبار رسول الله ﷺ، فإنه قد أوتي جوامع الكلم، وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره، وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول، فانظر حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: «جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ثم قال: يا محمد شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس»[1].

فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين، وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر؛ إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم، ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية.

فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة، وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة، والمبتدئ ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات،

---

(١) في المستدرك ٤: ٣٦٠، وصححه.

فليس هو له غاية المطلب، بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين، وهوالتنعم بالفكر في جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه: أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته، فيكون مستغرق الهم بالمحبوب كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب، فإنه لا يتفرغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها، بل كالمبهوت الغافل عن نفسه، وهو منتهى لذة العشاق.

فأما ما ذكرناه فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال، فإذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه، فمتى يتنعم بالقرب، ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فلقيه الحسين بن منصور، وقال: فيم أنت؟ قال أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل، فقال الحسين: أفنيت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟ فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين.

وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التى بين العبد وبين ربه، فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحاً ومساءً، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى، وأحوالك المقربة إليه سبحانه وتعالى، بل كل مريد، فينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات، وجملة الصفات المنجيات، وجملة المعاصي والطاعات، ويعرض نفسه عليها كلّ يوم، ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها، وهي البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب وشره الطعام وشره الوقاع وحبّ المال وحب الجاه.

ومن المنجيات عشرة الندم على الذنوب والصبر على البلاء والرضا بالقضاء والشكر على النعماء واعتدال الخوف والرجاء والزهد في الدنيا والإخلاص في الأعمال وحسن الخلق مع الخلق وحب الله تعالى والخشوع له.

فهذه عشرون خصلة عشرة مذمومة وعشرة محمودة، فمهما كفى من المذمومات واحدة، فيخط عليها في جريدته ويدع الفكر فيها، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها، ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه، ولو وكلَّه إلى نفسه لم يقدر على محو أقلِّ الرذائل عن نفسه، فيقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع.

وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات، فإذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلاً خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر.

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين، فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره.

بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية، فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا في معاص هم بمعزل عنها، مثاله: العالم الورع، فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ، ومن فعل ذلك تصدىٰ لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون، فإنه إن كان كلامه مقبولاً حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع، وذلك من المهلكات.

وإن ردّ كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقدٍ علىٰ مَن يرده، وهو أكثر من غيظه علىٰ مَن يرد كلام غيره، وقد يلبس الشيطان عليه، ويقول: إن غيظك من حيث إنه رد الحقّ وأنكره، فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد علىٰ عالم آخر، فهو مغرور وضحكة للشيطان.

ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الإعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد حرصاً علىٰ استجلاب الثناء، والله تعالىٰ لا يحب المتكلفين، والشيطان قد يلبس عليه ويقول: إنما حرصك علىٰ تحسين الألفاظ والتكلف فيها؛ لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله تعالىٰ.

فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس علىٰ واحد من أقرانه، فهو مخدوع، وإنما يدور حول طلب الجاه، وهو يظن أن مطلبَه الدين.

ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك، حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراماً، ويكون بلقائه أشدُّ فرحاً واستبشاراً ممن يغلو في موالاة غيره، وإن كان ذلك الغير مستحقاً للموالاة ورُبَّما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء، فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره، وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه، وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة في سرِّ القلب التي قد يظن العالم النجاة منها، وهو مغرور فيها، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات.

ففتنة العالم عظيمة، وهو إما مالك وإما هالك، ولا مطمع له في سلامة العوام، فمن أحس في نفسه بهذه الصفات، فالواجب عليه العزلة والانفراد، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوي مهما سئل، فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة ﭬ، وكلهم مفتون، وكانوا يتدافعون الفتوى، وكل من كان يفتي كان يود أن يكفيه غيره.

وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس، إذا قالوا: لا تفعل هذا، فإن هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق، وليقل لهم: إن دين الإسلام مستغن عني، فإنه قد كان معموراً قبلي، وكذلك يكون بعدي، ولو مت لا تنهدم أركان الإسلام، فإن الدين مستغن عني، وأما أنا فلست مستغنياً عن إصلاح قلبي.

وأمّا أداء ذلك إلى اندارس العلم، فخيال يدل على غاية الجهل، فإن الناس لو حبسوا في السجن، وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم

لكان حب الرياسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم.

فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبب إلى الخلق الرياسة والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة، بل ينتهض لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم في الآخرة، فعن أنس رضي الله عنه، قال ﷺ: «إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم»(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»(٢).

فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التلبيسات، فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربي في قلبه حبُّ الجاه والثناء والتعظيم، فإن ذلك بذر النفاق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «ما ذئبان ضاريان جائعان، باتا في زريبة غنم أغفلها أهلها، يفترسان ويأكلان بأسرع فيها فسادا من حب المال والشرف في دين المرء المسلم»(٣).

ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس، والهرب من مخالطتهم، وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم، فليكن فكر العالم في التفطن

(١) في السنن الكبرى٨: ١٤٧، ومسند أحمد٣٤: ١٠٤.

(٢) في صحيح البخاري٤: ٧٢، وصحيح مسلم١: ١٠٥.

(٣) في المعجم الأوسط: ٢٣٦، والمعجم الصغير٢: ١٤٩، ومسند الشهاب٣: ٢٦، وشعب الإيمان١٢: ٤٨٨.

لخفايا هذه الصفات من قلبه، وفي استنباط طريق الخلاص منها، وهذه وظيفة العالم المتقي.

فهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكر في جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب، ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات، وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولاً معلولاً مكدراً مقطوعاً، وكان ضعيفاً كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه، ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرةً بعد أُخرى، فتتنغص عليه لذة المشاهدة، ولا طريق له في كمال التنعم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه.

وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات، وهي مؤذيات ومشوشات وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات.

الثاني: الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه:

وفيه مقامان:

١. **المقام الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه**، وهذا مما منع منه حيث، قيل: تفكروا في خلق الله تعالى، ولا تفكروا في ذات الله؛ وذلك لأن العقول تتحير فيه، فلا يطيق مدّ البصر إليه إلا الصديقون، ثم لا يطيقون دوام النظر.

وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل، فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته، فإن أكثر العقول لا تحتمله بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء، وهو أن الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول أقوام حتى أنكروه؛ إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته، بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا.

إذ قيل لهم: إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو وأن يكون جسماً مشخصاً له مقدار وحجم، فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله، حتى قال بعض الحمقى من العوام: إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله لظنِّ المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء.

وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه، فكل ما لا يساويه في صفاته، فلا يفهم العظمة فيه، نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالساً على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره، فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى، وتقدس حتى يفهم العظمة، بل لو كان للذباب عقل، وقيل له: ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك، وقال: كيف يكون خالقي أنقص مني أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمناً لا يقدر على الطيران أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها،

وهو خالقي ومصوري، وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل، وإن الإنسان لجهول ظلوم كفار.

٢.مقام النظر في أفعاله ومجاري قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه؛ فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه، وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته، فينظر إلى صفاته من آثار صفاته، فإنا لا نطيق النظر إلى صفاته، كما أنا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس.

ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب؛ لأن الأرض من آثار نور الشمس والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما، وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر، وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى، ونور من أنوار ذاته، بل لا ظلمة أشدّ من العدم ولا نور أظهر من الوجود، ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس؛ إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها[1].

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٤٢٧ـ ٤٣٥.

رابعاً: كيفية التفكر في الخلق:

إن كل ما في الوجود مما سوىٰ الله تعالىٰ، فهو فعل الله وخلقه، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف، ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته، وإحصاء ذلك غير ممكن؛ لأنه لو كان البحر مداداً لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره.

ولكنا نشير إلىٰ جمل منه؛ ليكون ذلك كالمثال لما عداه، فنقول: الموجودات المخلوقة منقسمةٌ:

إلىٰ ما لا يعرف أصلها، فلا يمكننا التفكر فيها، وكم من الموجودات التي لا نعلمها، كما قال تعالىٰ: { وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[النحل:٨]، {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ}[يس:٣٦]، وقال: {وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[الواقعة:٦١].

وإلىٰ ما يعرف أصلها، وجملتُها، ولا يعرف تفصيلُها، فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها، وهي منقسمة إلىٰ ما أدركناه بحسِّ البصر، وإلىٰ ما لا ندركه بالبصر.

أما الذي لا ندركه بالبصر فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك، ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغمض، فلنعدل إلىٰ الأقرب إلىٰ الأفهام، وهي المدركات بحسِّ البصر، وذلك هو السموات السبع والأرض، وما بينهما، فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها، والأرض

مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها وما بين السماء والأرض، وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها.

فهذه هي الأجناسُ المشاهدةُ من السموات والأرض وما بينهما، وكلُّ جنس منها ينقسمُ إلى أنواع، وكلُّ نوع ينقسم إلى أقسام، ويتشعَّبُ كل قسم إلى أصناف، ولا نهاية لإنشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهيآته ومعانيه الظاهرة والباطنة، وجميع ذلك مجال الفكر، فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها، وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة، كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية، ودال على جلاله وكبريائه، وهي الآيات الدالة عليه.

وقد ورد القرآن بالحثِّ على التَّفكر في هذه الآيات كما قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَاب}[آل عمران:١٩٠]، وكما قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ}[الروم:٢٠] من أول القرآن إلى آخره، فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات.

فمن آياته: الإنسان المخلوق من النطفة، وأقرب شيء إليك نفسك، وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره، وأنت غافل عنه.

فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك، وقد أمرك الله تعالى بالتَّدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال: {وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُون}[الذاريات:٢١]، وذكر أنك مخلوقٌ من نطفةٍ قذرةٍ فقال: {قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَه. مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَه. مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَه. ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَه. ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَه ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَه}[عبس:٢٢]، وقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُون}[الروم:٢٠]، وقال تعالى: {أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى}[القيامة:٣٨] ، وقال تعالى: {أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِين . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِين إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُوم}[المرسلات:٢٢]، وقال: {أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِين}[يس:٧٧]، وقال: {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاج}[الإنسان:٢]، ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما، فقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِين. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِين. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِين}[المؤمنون:١٤].

فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه، ويترك التفكر في معناه، فأنظر الآن إلى النطفة، وهي قطرةٌ من الماء قذرةٌ لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب، وكيف جمع بين الذكر والأنثى، وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع، وكيف استخرج النطفة

من الرجل بحركة الوقاع، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم.

ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه، حتى نما وربا وكبر، وكيف جعل النطفة، وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء، ثم كيف جعلها مضغة ثم كيف قسم أجزاء النطفة، وهي متساوية متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة فدور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثم مدّ اليد والرّجل، وقسم رءوسها بالأصابع، وقسم الأصابع بالأنامل.

ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كلٌّ واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص.

ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار، فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضي فيه الأعمار، فانظر الآن إلى العظام، وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة، ثم جعلها قواما للبدن وعماداً له، ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق.

ولما كان الإنسان محتاجاً إلىٰ الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه مفتقراً للتردد في حاجاته لم يجعل عظمه عظماً واحداً، بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتىٰ تتيسر بها الحركة وقدر شكل كل واحدة منها علىٰ وفق الحركة المطلوبة بها، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعطم الآخر كالرباط له، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك.

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقد ركبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور، فألف بعضها إلىٰ بعض بحيث استوىٰ به كرة الرأس كما تراه فمنها ستة تخص القحف وأربعة عشر للحي الأعلىٰ واثنان للحي الأسفل، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن، وبعضها حادة تصلح للقطع، وهي الأنياب والأضراس والثنايا.

ثم جعل الرقبة مركباً للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها علىٰ بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها.

ثم ركب الرقبة علىٰ الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة إلىٰ منتهىٰ عظم العجز من أربع وعشرين خرزة، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة، فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء.

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين فلا نطول بذكر عدد ذلك ومجموع عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل المفاصل.

فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة، وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها، فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون إنما الغرض أن ينظر منها في مُدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها وخصصها بهذا العدد المخصوص؛ لأنه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعه ولو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها فشتان بين النظرين.

ثمّ انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام، وهو العضلات فخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية، وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها، فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين، وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص وأمر الاعصاب.

والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كلُّه وشرحه يطول فللفكر مجال فى آحاد هذه الأجزاء، ثم فى جملة البدن، فكلُّ ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضى به العجب، وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قذرة فترى من هذا صنعه في قطرة ماء.

فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته فى أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هي أحكم حلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات، ولذلك قال تعالى: {أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا}[النازعات:٢٩].

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون على ذلك، بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه.

العجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصور على حائط تأنق النقاش فى تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان، وقال الناظر إليها: كأنه

إنسان عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك محله مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالقدرة وبالعلم وبالإرادة وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه، بل هو من خلق غيره، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه.

وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة، فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة، فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها؛ ليكون ذلك سبب بقائها وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة وخلق لها الظهر أساساً لبدنها والبطن حاوياً لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها، ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها، ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها.

ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مراً ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدقة الأذن لتجمع الصوت، فترده إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه، فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم.

ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله، وفتح منخريه وأودع فيه حاسه الشم ليستدل باستنشاق الروايح على مطاعمه وأغذيته وليستنشقة بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه.

وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجماً ومعرباً عما في القلب وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد رءوسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرءوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم، وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه، وليتم بها حروف الكلام وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها.

ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات، فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقا حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة.

ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ وزين الوجه باللحية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالأهداب، ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذاء والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد، فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها، والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها، والكلية تخدمها بجذب المائية عنها، والمثانة تخدم الكلية بقبول

الماء عنها ثم تخرجه في طريق الإحليل، والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن.

ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد وعرض الكف وقسم الأصابع الخمس، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع.

ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء، فإن بسطها كانت له طبقاً يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب، وإن ضمها ضماً غير تام كانت مغرفة له، وإن بسطها وضمّ أصابعها كانت مجرفة له.

ثم خلق الأظفار على رءوسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تنقطع، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل وليحك بها بدنه عند الحاجة، فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم ولم يقم أحد مقامه في حك بدنه، ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل.

ثم خلق هذا كله من النطفة، وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتدّ إليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير

يظهر عليها شيئاً فشيئاً، ولا يرىٰ المصور ولا آلته، فهل رأيت مصوراً أو فاعلاً لا يمسُّ آلته ومصنوعه ولا يلاقيه، وهو يتصوف فيه، فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه.

ثمّ انظر مع كمال قدرته إلىٰ تمام رحمته، فإنه لما ضاق الرحم عن الصَّبيِّ لما كبر كيف هداه السبيل حتىٰ تنكس وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ: كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه.

ثم لما خرج واحتاج إلىٰ الغذاء كيف هداه إلىٰ التقام الثدي، ثم لما كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين علىٰ قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي، ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتىٰ لا يخرج اللبن منه إلا بعد المصِّ تدريجاً، فإن الطفل لايطيق منه إلا القليل، ثم كيف هداه للامتصاص حتىٰ يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع.

ثم انظر إلىٰ عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلىٰ تمام الحولين؛ لأنه في الحولين لا يتغذىٰ إلا باللبن، فيستغني عن السن وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف، ويحتاج إلىٰ طعام غليظ، ويحتاج الطعام إلىٰ المضغ والطحن، فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة فىٰ تلك اللثات اللينة.

ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه فلو لم يسلط الله تعالى الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه.

ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل فصار مراهقاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً إما كفوراً أو شكوراً مطيعاً أو عاصياً مؤمناً أو كافراً تصديقاً؛ لقوله تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا. إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان:٣].

فانظر إلى اللطف والكرم، ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية، والعجب كل العجب ممن يرى خطاً حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه، فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط، وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه، ولا يزال يستعظمه في نفسه، ويقول: ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته.

ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره، ثم يغفل عن صانعه ومصوره، فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته.

فهذه نبذةٌ من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها، فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك، وأنت غافل عن ذلك مشغول

ببطنك وفرجك، ولا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فينام، وتشتهي فتجامع وتغضب فتقاتل، والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك.

وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس؛ إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين، ويحشر في زمرة النبيين والصديقين مقرباً من حضرة رب العالمين، وليست هذه المنزلة للبهائم، ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم، فإنه شرّ من البهائم بكثير؛ إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك.

وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها، وكفر نعمة الله تعالى فيها: {إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}[الفرقان:٤٤].

وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك، فتفكر في الأرض التي هي مقرك، ثم في أنهارها وجبالها ومعادنها، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات، أما الأرض، فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها وجعلها قارة لا تتحرك، وأرسى فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تميدَ، ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت إعمارهم وكثر تطوافهم.

فقال تعالى: {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُون. وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُون}[الذاريات:٤٨]، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا}[الملك:١٥]، وقال تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً}[البقرة:٢٢]، وقد أكثر في كتابه العزيز ممن ذكر الأرض؛ ليتفكر في

عجائبها فظهرها مقرٌ للأحياء وبطنها مرقد للأموات قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا. أَحْيَاء وَأَمْوَاتًا}[المرسلات:٢٦].

فانظر إلى الأرض وهي ميتة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات.

ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب، وكيف أودع المياه تحتها، ففجر العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها، وأخرج من الحجارة اليابسة، ومن التراب الكدر ماء رقيقاً عذباً صافياً زلالاً، وجعل به كلّ شيء حي فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرابيح يفضل بعضها على بعض في الأكل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة.

ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الأرض، ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد، وبعضها لا ينطبع كالفيروزوج.

ومن آياته أصناف الحيوانات وانقسمها إلى ما يطير، وإلى ما يمشي، وانقسام ما يمشي إلى ما يمشي على رجلين، وإلى ما يمشى على أربع، وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد في بعض الحشرات.

ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع فانظر إلى طيور الجو وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ولا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصورها، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك، بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النخلة أو العنكبوت.

وهى من صغار الحيوانات بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلفها لزوجها وفى ادخارها لنفسا وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك فترى العنكبوت يبنى بيته على طرف نهر فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ثم يبتدئ ويلقى اللعاب الذى هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا ويجعل بعد ما بينهما متناسبا تناسبا هندسيا حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ويراعى فى جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ويقعد فى زاوية مترصدا لوقوع الصيد فى الشبكة فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفى الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقى منكسا فى الهواء ينتظر ذبابة تطير، فإذا طارت رمى بنفسه إليه فإخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه، ثم أكله وما من حيوان صغير ولا كبير إلا

وفيه من العجائب ما لا يحصىٰ أفترىٰ أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمىٰ أو علمه أو لا هادىٰ له ولا معلم أفيشك ذو بصيرة فىٰ أنه مسكين ضعيف عاجز، بل الفيل العظيم شخصه الظاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه، فكيف هذا الحيوان الضعيف أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم فالبصير يرىٰ في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات.

وهذا الباب أيضا لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة نعم إذا رأىٰ حيوانا غريبا ولو دودا تجدد تعجبه وقال سبحان الله ما أعجبه والإنسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلىٰ الأنعام التىٰ ألفها تعجبه وقال سبحان الله ما أعجبه والإنسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلىٰ الأنعام التي ألفها ونظر إلىٰ أشكالها وصورها ثم إلىٰ منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباسا لخلقه وأكانا لهم في ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصوانا لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادي والمفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها سابق علىٰ خلقه إياها.

فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير القدير فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته.

فمن ذا الذي يحصي ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض التى هى قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى إن جميع المكشوف من البوادى والجبال والأرض بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء.

ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخر له ولو استقصينا أعماراً طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته، وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا ﷺ وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقربون كإسرافيل وجبريل وغيرهما، ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علماً بل هو إلى أن يسمى دهشاً وحيرة وقصوراً وعجزاً

أقرب، فسبحان من عرف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.

فهذا بيان معاقد الجمل التى تجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى، ولكن يستفاد من الفكر فى الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم، وهذا كما أنك تعظم عالماً بسبب معرفتك بعلمه فلا تزال تطلع على غريبه من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيراً وتعظيماً واحتراماً حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيده محلا من قلبك يستدعى التعظيم له فى نفسك، فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبداً[١].

خامساً: استيعاب التفكر للحياة:

يلاحظ أن التفكر شامل لعامة مناحي الحياة للوصول للخالق ولتصحيح المسار ولإصلاح النفس والمجتمع، وفي يقول الدكتور معاذ حوى:

«التفكر له أثره في صلاح الإنسان فيدله على الوجهة الصحيحة، التي تعرِّفه بمعبوده، وتعرفه بالقِيَم الحقيقية في الحياة، وما الذي ينبغي أن يفعله في حياته، وما مآله ونتيجته، فيبني حياته على ما يحقق مصلحته في الآخرة.

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٤٢٧ـ ٤٤٦.

ـ يتفكر الإنسان من خلال النظر في الكون في نعم الله وآلائه ومخلوقاته من جبال ورياح وأشجار وزروع وأنهار وليل ونهار وشمس وقمر وغيرها، قال تعالىٰ: {وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ} [الذاريات:٢١]، وقال تعالىٰ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}[العلق:١]، وقال تعالىٰ: {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا}[إبراهيم:٣٤].

ـ ويتفكر في كتاب الله وآياته، فهي التي تدلنا علىٰ الآيات التي في أنفسنا وفي الكون، فتقرب علينا الأمر وتختصر علينا طريق التفكر، قال تعالىٰ{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُون}[العنكبوت:٤٩]، وهذه الآيات الكونية تدلنا علىٰ قدرة الله وتزيد إيماننا بإمكانية مجيء اليوم الآخر: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير} [العنكبوت:٢٠].

ـ والقصص القرآني والنبوي وغيره والتاريخ موضع عبرة وتفكر للمسلم، قال تعالىٰ: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ} [يوسف: ١١١]، وقال تعالىٰ: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِين}[آل عمران:١٣٧].

ـ ويتفكر الإنسان في آخرته وما أعد لها، يتفكر ماذا أمامه، ويتخيل ماذا سيكون من موت وما بعده، فيتذكر القبر والسؤال والنفخ في الصور والحشر ونشر الصحف والحساب والجنة والنار وغير ذلك، يتفكر أن لو أصلح كيف يكون إكرامه، ويتفكر أن لو أساء كيف تكون إهانته.

وهذا التفكر في الآخرة من أعظم ما يعطي الإخلاص قال تعالى في حق بعض أنبيائه: {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ}[ص:٤٦]، وتذكر الدار الآخرة يعطي الإخلاص لأن الإنسان حينما يتذكر الآخرة يعلم أنه لا ثواب ولا عقاب إلا بيد الله، فإليه المرجع والمآل، فإن عمل لله فبيده الثواب وإن عصاه فبيده العقاب، وإن عمل لغيره لم يملك هذا الغير أن يثيبه، وإن عصى غيره لم يملك هذا الغير أن يعاقبه، فلا فائدة إلا بأن يكون عمل الإنسان ونظره لله، وهذا هو الإخلاص لله، وما دام إرضاء الله هو الذي ينفعنا حقيقة فهذا يدفع المسلم إلى الاستقامة، يدفعه إلى أن يحرص على أن يرضي الله، لا أن يرضي سواه، ويحجزه عن شهواته لأنها تجعله في خطر عند ربه، ومن هاهنا نجد النبي ﷺ أيضاً حثنا على ذكر الموت بقوله: «أكثروا ذكر هاذم اللذات؛ الموت»(١)، فذكر الموت وتوقع وقوعه في كل وقت يجعل الإنسان على أهبة الاستعداد دائماً.

ـ ومما يتفكر فيه المؤمن: أعماله، فيحاسب نفسه وينظر إلى أين تؤديه أعماله.

إن **محاسبة النفس** ومراجعة الإنسان أحواله وأعماله وأقواله ومدى تحقيقه لأهدافه؛ من أعظم ما يحرك الإنسان إلى إصلاح حاله وتزكية نفسه، يقول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٧٩١٢ والترمذي رقم ٢٣٠٧ وابن حبان رقم ٢٩٩٢ والحاكم رقم ٧٩٠٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَاتَّقُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون}[الحشر:١٨].

فقوله تعالىٰ: {وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}[الحشر:١٨] أمر من الله للإنسان أن يفكر في أعماله وما الذي يصلح منها للقاء الله، ويُقَدِّرَها هل هي صالحة أم طالحة، وقوله {لِغَدٍ} أي للآخرة وسماه كذلك تنبيهاً إلىٰ قربه فكأنما هو كالغد في قربه وسرعة مجيئه، وتكرار الأمر بالتقوىٰ قبل هذه العبارة وبعدها دليل علىٰ أن محاسبة النفس والنظر فيما أعد الإنسان يزيد تقواه، فإذا كان اتقىٰ الله في رتبة ما من التقوىٰ قبل محاسبته لنفسه، فإن رتبة التقوىٰ تزيد بعد المحاسبة، فعليه أن يتقي الله في رتبته الجديدة التي حصلت بالمحاسبة.

إن الإنسان إذا نظر إلىٰ ما قدَّمه من أعمال من الخير والشر؛ يزداد لديه الخوف من الله والهمة والرغبة في اتقاء العذاب والجحيم، فكانت المحاسبة سبباً في تزكية الإنسان نفسه وتطهيرها مما يوردها العذاب، وسبباً في إصلاحها لتنال رضوان الله وسبباً في تذكيرها بالحال الأرقىٰ الذي يجب أن يكون عليه.

وتكرار المحاسبة يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة؛ قد يكون أكثر أثراً في تزكية النفس من الصيام والقيام، بل يكون هو الدافعَ إلىٰ القيام والصيام وعمل الخير، وهو الحاملَ علىٰ الثبات عليها.

ـ وقد شرع الله تعالىٰ لنا زيارة القبور وعيادة المرضى لتكون سبباً في التفكر والاعتبار:

ـ **زيارة المقابر وأهلها**: جعل الله تعالىٰ الموت والمقابر تذكرة للناس،

تذكرهم بالموت والرحيل، قال تعالى: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ. حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ}[التكاثر:٢]، فزيارة المقابر تُخرِج الإنسان من اللهو والاستكثار من الدنيا، والدنيا هي أعظم أسباب الغفلة عن الله وعن تزكية النفس.

وقد بين النبي ﷺ هذا المعنى أيضاً بقوله: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»(١)، «فإنها تذكركم بالآخرة»(٢)، وقد كان النبي ﷺ يزور القبور والمقابر، ويحدث أهلها كأنهم يسمعون(٣)، ويعظ أصحابه، وكان يزور البقيع وشهداء أُحد أحياناً في آخر الليل، وذلك أبلغ في العظة.

وقد حث النبي ﷺ على اتباع الجنائز، وبين أن فيها من الأجر قيراطان، والقيراط مِثْل جَبلِ أُحِد.

ويجوز زيارة النساء للمقابر على رأي جمهور الفقهاء، لكن عليهن وعلى كل مسلم أن يتجنبوا النياحة ولطم الوجوه وشق الجيوب ونحو ذلك مما فيه اعتراضٌ على الله ومخالفةٌ لرسول الله ﷺ.

- **زيارة المريض:** سنَّ لنا النبي ﷺ زيارة المريض، وجعلها من حق

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٩٧٧ عن بريدة رضي الله عنه.

(٢) زيادة صحيحة، أخرجها أحمد رقم ١٢٣٥ عن علي رضي الله عنه، والحاكم في المستدرك رقم ١٣٨٦ و ١٣٨٧ و ١٣٨٨ عن أنس بن مالك رضي الله عنه وابن مسعود وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم، بلفظ الآخرة، وبلفظ: الموت بدل الآخرة، وبلفظ «فإن فيها عبرة».

(٣) كما يدل عليه صيغة سلامه لهم، وكما روي في حديثه ووداعه لشهداء أُحد والبقيع قبل موته وغير ذلك.

المسلم على المسلم، وهي من وسائل تزكية النفس لما فيها من تذكير، فإن المريض يكون أقرب إلى الله وحاله يذكر بالله، إذ يستشعر معنى الموت والبلاء والضعف الذي يعيده إلى ربه، ويذكره بهوان الدنيا، فيتجدد عنده الإيمان بإذن الله، وهذا معنى ما ورد في حديث النبي ﷺ «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم: مرضت فلم تعدني، قال: يا رب: كيف أعودك وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض، فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده»(١).

فزيارة المريض تذكِّر بالله، فيحس العبد وكأنه مع الله، وذلك من أسباب تزكية النفس المهمة، كما تذكر بالموت والآخرة، قال ﷺ: «عودوا المريض، واتبعوا الجنائز؛ تذكركم الآخرة»(٢).(٣)

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٥١٨ وابن حبان رقم ٢٩٥٥ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) ينظر: التزكية على منهاج النبوة

المطلب الثاني: آداب العزلة:

إن للناس اختلافاً كثيراً في العزلة والمخالطة، وتفضيل إحداهما على الأخرى، ومع أنّ كلِّ واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها وفوائد تدعو الى إليها وميل أكثر العباد والزهاد الى اختيار العزلة، وتفضيلها على المخالطة.

ونعرض في هذا المبحث لفوائد العزلة وغوائلها وفوائد المخالطة في المطلبين التاليين:

أولاً: فوائد العزلة وغوائلها:

١ .التفرغ للعبادة والفكر والإستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق والإشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض، فإن ذلك يستدعي فراغاً، ولا فراغ مع المخالطة فالعزلة وسيلة اليه.

ولهذا قال بعض الحكماء: لا يتمكن أحدٌ من الخلوة إلا بالتمسك بكتاب الله تعالى، والمتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله، الذاكرون الله بالله عاشوا بذكر الله وماتوا بذكر الله، ولقوا الله بذكر الله، ولا شك في أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر، فالعزلة أولى بهم ولذلك كان ﷺ في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء، وينعزل إليه حتى قوي فيه نور النبوة.

فكان الخلق لا يحجبونه عن الله تعالىٰ، فكان ببدنه مع الخلق وبقلبه مقبلاً علىٰ الله تعالىٰ حتىٰ كان الناس يظنون أن أبا بكر خليله، فأخبر النبي صلىٰ الله عليه وسلم عن استغراق همه بالله، فعن ابن مسعود ﵁، قال ﷺ: «لو كنت متخذا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صاحبكم خليل الله»(١).

ولن يسع الجمع بين مخالطة الناس ظاهراً، والإقبال علىٰ الله سرّاً إلا قوة النبوة، فلا ينبغي أن يغترّ كل ضعيف بنفسه، فيطمع في ذلك، ولا يبعد أن تنتهي درجة بعض الأولياء إليه.

فقد نقل عن الجنيد أنه قال: أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة، والناس يظنون أني أكلمهم.

وهذا إنما يتيسر للمستغرق بحبِّ الله استغراقاً لا يبقي لغيره فيه متسع وذلك غير منكر، ففي المشتهرين بحب الخلق من يخالط الناس ببدنه، وهو لا يدري ما يقول، ولا ما يقال له لفرط عشقه لمحبوبه، بل الذي دهاه ملم يشوش عليه أمراً من أمور دنياه، فقد يستغرقه الهم بحيث يخالط الناس ولا يحس بهم، ولا يسمع أصواتهم لشدة استغراقه وأمر الآخرة أعظم عند العقلاء فلا تستحيل ذلك فيه.

ولكن الأولىٰ بالأكثرين الاستعانة بالعزلة، ولذلك قيل لبعض الحكماء: ما الذي أرادوا بالخلوة واختيار العزلة، فقال: يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبت العلوم في قلوبهم؛ ليحيوا حياة طيبة ويذوقوا حلاوة المعرفة.

---

(١) أخرجه مسلم، كما في المغني ٢: ٢٢٧.

وقال ذو النون المصري: سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه.

وقال مالك بن دينار: مَن لم يأنس بمحادثة الله تعالى عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمى قلبه وضيع عمره.

ومَن يتيسر له بدوام الذكر الأنس بالله أو بدوام الفكر التحقق في معرفة الله، فالتجرد له أفضل من كلِّ ما يتعلق بالمخالطة، فإن غاية العبادات وثمرة المعاملات أن يموت الإنسان محباً لله عارفاً بالله، ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر، ولا معرفة إلا بدوام الفكر، وفراغ القلب شرط في كل واحد منهما، ولا فراغ مع المخالطة.

٢.التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة، ويسلم منها في الخلوة وهي أربعة: الغيبة والنميمة والرياء والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا.

أما الغيبة فالتحرز عنها مع المخالطة عظيم لا ينجو منها إلا الصديقون، فإن عادة الناس كافة التمضمض بأعراض الناس والتفكه بها والتنفل بحلاوتها، وهي طعمتهم ولذتهم وإليها يستروحون من وحشتهم في الخلوة، فإن خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى، وإن سكت كنت شريكاً، والمستمع أحد المغتابين، وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المغتاب واغتابوك، فازدادوا غيبة إلى غيبة، وربما زادوا على الغيبة وانتهوا إلى الإستخفاف والشتم.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من أصول الدين، وهو واجب، ومن خالط الناس فلا يخلو عن مشاهدة المنكرات، فإن سكت عصىٰ الله به، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر؛ إذ رُبَّما يجرُّه طلب الخلاص عنها إلىٰ معاص هي أكبر مما نهىٰ عنه ابتداء.

وأما الرياء، فهو الداء العضال الذي يعسر علىٰ الأبدال والأوتاد الاحتراز عنه، وكل من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه، وهلك كما هلكوا، وأقل ما يلزم فيه النفاق، فإنك إن خالطت متعاديين ولم تلق كلَّ واحد منهما بوجه يوافقه صرت بغيضاً إليهما جميعاً، وإن جاملتهما كنت من شرار الناس.

فعن أبي هريرة ﵁ قال ﷺ: «تجدون من شرار الناس ذا الوجهين، يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[١].

وعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «إن من شرِّ الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[٢].

وأقل ما يجب في مخالطة الناس إظهار الشوق والمبالغة فيه، ولا يخلو ذلك عن كذب إما في الأصل وإما في الزيادة وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال، بقولك: كيف أنت وكيف أهلك وأنت في الباطن فارغ القلب من همومه وهذا نفاق محض.

---

(١) متفق عليه، كما في المغني ٢: ٢٢٩.

(٢) أخرجه مسلم، كما في المغني ٢: ٢٢٩.

وأما مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم، فهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، فلا يجالس الإنسان فاسقاً مدة مع كونه منكراً عليه في باطنه إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهما تفرقة في النفرة عن الفساد واستثقاله؛ إذ يصير للفساد بكثرة المشاهدة هينا على الطبع، فيسقط وقعه واستعظامه له.

وإنّما الوازع عنه شدة وقعه في القلب فإذا صار مستصغراً بطول المشاهدة أوشك أن تنحل القوة الوازعة، ويذعن الطبع للميل إليه أو لما دونه، ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره استحقر الصغائر من نفسه، ولذلك يزدري الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه، فتؤثر مجالستهم في أن يستصغر ما عنده، وتؤثر مجالسة الفقراء في استعظام ما أتيح له من النعم.

ومن نظر الى الأحوال الغالبة على أهل الزمان وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا واعتيادهم المعاصي استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه، وذلك هو الهلاك ويكفي في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلاً عن مشاهدته.

ومبدأ الرحمة فعل الخير، ومبدأ فعل الخير الرغبة، ومبدأ الرغبة ذكر أحوال الصالحين، فهذا معنى نزول الرحمة، والمفهوم من فحوى هذا الكلام عند الفطن كالمفهوم من عكسه، وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة؛ لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر المعاصي واللعنة هي البعد.

ومبدأ البعد من الله تعالى، هو المعاصي والإعراض عن الله تعالى بالإقبال على الحظوظ العاجلة والشهوات الحاضرة، لا على الوجه المشروع.

ومبدأ المعاصي سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب.

ومبدأ سقوط الثقل وقوع الأنس بها بكثرة السماع إذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين، فما ظنك بمشاهدتهم، فعن أبي موسى رضي الله عنه، قال ﷺ: مثل الجليس السوء كمثل الكير إن لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه»[1].

فكما أن الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به، فكذلك يسهل الفساد على القلب، وهو لا يشعر به.

٣.الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها، وقلَّما تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات، فالمعتزل عنهم في سلامة منها.

٤ . الخلاص من شر الناس، فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ومرة بسوء الظن والتهمة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها وتارة بالنميمة أو الكذب، فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه، فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فرصة للشر، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك.

(١) متفق عليه، كما في المغني٢: ٢٣١.

قال أبو الدرداء ﵁: كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فالناس اليوم شوكاً لا ورق فيه.

٥. **أن ينقطع طمع الناس عنك**، وينقطع طمعك عن الناس، فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد، فإن رضا الناس غاية لا تدرك، فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى، ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنازة وعيادة المريض وحضور الولائم والإملاكات، وفيها تضييع الأوقات وتعرض للآفات.

قال الشافعي: أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام.

وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضاً فائدة جزيلة، فإن من نظر الى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه ولا يرى إلا الخيبة في أكثر الأحوال فيتأذى بذلك، ومهما اعتزل لم يشاهد وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع، ولذلك قال تعالى: {وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ}[طه:١٣١].

فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «انظروا الى من هو دونكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

وقال عون بن عبد الله: كنت أجالس الأغنياء، فلم أزل مغموماً، كنت أرى ثوباً أحسن من ثوبي، ودابةً أفره من دابتي، فجالست الفقراء فاسترحت.

٦.الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ومقاساة حمقهم وأخلاقهم، فإن رؤية الثقيل، هي العمى الأصغر.

فإن الإنسان مهما تأذى برؤية ثقيل لم يأمن أن يغتابه، وأن يستنكر ما هو صنع الله، فإذا تأذى من غيره بغيبة أو سوء ظن أو محاسدة أو نميمة أو غير ذلك لم يصبر عن مكافأته، وكل ذلك يجرُّ الى فساد الدين، وفي العزلة سلامة عن جميع ذلك[1].

ثانياً: فوائد المخالطة:

للمخالطة سبع فوائد وهي:

١.التعليم والتعلم.

وهما أعظم العبادات في الدنيا، ولا يُتَصوَّر ذلك إلا بالمخالطة إلا أن العلوم كثيرة، وعن بعضها مندوحة، وبعضها ضروري في الدنيا، فالمحتاج إلى التعلم؛ لما هو فرض عليه عاص بالعزلة، وإن تعلم الفرض وكان لا يتأتى منه الخوض في العلوم ورأى الإشتغال بالعبادة فليعتزل، وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع والعقل، فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران.

فالعلم هو أصل الدين فلا خير في عزلة العوام والجهال، أعني من لا يحسن العبادة في الخلوة، ولا يعرف جميع ما يلزم فيها.

(١) ينظر: الإحياء٢: ٢٢٦ـ ٢٦٣.

٢.النفع والإنتفاع:

أما الإنتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة، وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة، والمحتاج إليه مضطر الى ترك العزلة، فيقع في جهاد من المخالطة أن طلب موافقة الشرع فيه، فإن كان معه مال لو اكتفى به قانعاً لأقنعه، فالعزلة أفضل له إذا انسدت طرق المكاسب في الأكثر إلى من المعاصي إلا أن يكون غرضه الكسب للصدقة، فإذا اكتسب من وجهه وتصدق به فهو أفضل من العزلة للاشتغال بالنافلة، وليس بأفضل من العزلة للاشتغال بالتحقق في معرفة الله ومعرفة علوم الشرع ولا من الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى والتجرد بها لذكر الله أعني من حصل له أنس بمناجاة الله عن كشف وبصيرة لا عن أوهام وخيالات فاسدة.

وأمّا النفع، فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه، فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة، ففي النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب، وذلك لا ينال إلا بالمخالطة، ومن قدر عليها مع القيام بحدود الشرع، فهي أفضل له من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر، فذلك لا يعدل به غيره ألبتة.

٣.التأديب والتأدب:

ونعني به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم كسراً للنفس وقهرا للشهوات، وهي من الفوائد التي تُستفاد بالمخالطة، وهي

أفضل من العزلة في حقِّ مَن لم تتهذب أخلاقه ولم تذعن لحدود الشرع شهواته، ولهذا انتدب خدام الصوفية في الرباطات، فيخالطون النَّاس بخدمتهم وأهل السوق للسؤال منهم كبراً؛ لرعونة النفس.

٤. الاستئناس والإيناس:

وهو غرض مَن يحضر الولائم والدعوات ومواضع المعاشرة والأنس، وهذا يرجع الىٰ حظ النفس في الحال، وقد يكون ذلك علىٰ وجه حرام بمؤانسة من لا تجوز مؤانسته أو علىٰ وجه مباح، وقد يستحب ذلك الأمر الدين، وذلك فيمن تستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوىٰ، وقد يتعلق بحظ النفس.

ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهييج دواعي النشاط في العبادة، فإن القلوب إذا أكرهت عميت، ومهما كان في الوحدة وحشة، وفي المجالسة أنس يروح القلب، فهي أولىٰ؛ إذ الوفق في العبادة من حزم العبادة.

وهذا أمر لا يستغنىٰ عنه، فإن النفس لا تألف الحق علىٰ الدوام ما لم تروح، وفي تكليفها الملازمة داعية للفترة.

وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين، وحكاية أحوال القلب وشكواه وقصوره عن الثبات علىٰ الحق والاهتداء الىٰ الرشد، ففي ذلك متنفس ومتروح للنفس فيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه، فإنه لا تنقطع شكواه ولو عمر أعماراً طويلة، والراضي عن نفسه مغرور قطعاً.

٥.نيل الثواب وإنالته:

أما النيل فبحضور الجنائز وعيادة المريض وحضور العيدين.

وأما حضور الجمعة، فلا بد منه، وحضور الجماعة في سائر الصلوات أيضاً لا رخصة في تركه إلا لخوف ضرر ظاهر يقاوم ما يفوت من فضيلة الجماعة، ويزيد عليه وذلك لا يتفق إلا نادراً.

وأما إنالته فهو أن يفتح الباب لتعوده الناس أو ليعزوه في المصائب أو يهنوه على النعم، فإنهم ينالون بذلك ثواباً، وكذلك إذا كان من العلماء وإذن لهم في الزيارة نالوا ثواب الزيارة، وكان هو بالتمكين سبباً فيه.

٧.التواضع:

فإنه من أفضل المقامات، ولا يقدر عليه في الوحدة، وقد يكون الكبر سبباً في اختيار العزلة.

٧.التجارب:

فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجاري أحوالهم والعقل الغريزي ليس كافياً في تفهم مصالح الدين والدنيا، وإنما تفيدها التجربة والممارسة ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب.

ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه، وذلك لا يقدر عليه في الخلوة، فإن كل مجرب في الخلاء يسر، وكل غضوب أو حقود

أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه، وهذه الصفات مهلكات في أنفسها يجب إماطتها وقهرها، ولا يكفي تسكينها بالتباعد عما يحركها[١].

ثالثاً: الخلوة:

يكثر ذكر الخلوة عند المدارس التربوية في الإسلامة لما لها من الأثر الكبير في إصلاح النفوس واستقامتها، ونقفُ في أَسطر عن كلام عنها مع ابن عطاء الله[٢]:

«الخلوة: هي على الحقيقة محادثة السر مع الحق بحيث لا يرى غيره.

وأمّا صورتها فهو ما يتوصل به إلى هذا المعنى من التبتل الى الله تعالى، والانقطاع عن غيره.

وأمّا خلوة الظاهر فإنها تجلو مرآة القلب من أشكال انقشعت فيها من غفل وعاشر الدنيا وما فيها، وهـذه الأشكال ظلات منطو بعضها على بعض وتتركب، فحصل منها صدأ القلب، وهو الغفلة، فبواسطة الخلوة والذكر والصوم والطهارة والسكوت ونفي الخواطر والربط وتوحيد المطلب تنجلي مرآة القلب عن الصـدأ.

واعلم أنك إذا أردت الدخول إلى حضرة الحقّ والأخذ منه بترك الوسائط والأنس به أنه لا يصح لـك ذلـك، وفي قلبك ربانية الغير، فإنك لمن

(١) ينظر: الإحياء٢: ٢٣٦ـ ٢٤١.

(٢) في مفتاح الفلاح ص٣٥ـ ٣٨.

حكم عليك سلطانه فلا بد لك من العزلة عن الناس، وإيثار الخلوة عن الملأ، فإنه على قدر بعدك من الخلق يكون قربك من الحق ظاهراً وباطناً، ويجب عليك تصحيح عقيدتك على مذهب أهل الحق، وتعلم ما يقيم العبادات، وعليك قبل الخلوة بالرياضة، وهي تهذيب الأخلاق وترك الرعونة، وتحمل الأذى، فمن تقدم فتحه على رياضته لا يجيء منه رجل إلا في النادر.

ولا بُدّ من انسحاب التوبة على الذنوب ورد المظالم المقدور على ردها من عرض ومال وتطهير باطنك من كل مذموم، وتقييد باطنك من الجولان في مراتب الكون، والفكر أضر شيء في جميع الخلوات لا يظهر لصاحبها ثمرة صحيحة ولا يساعد النفس على حديثها وتصرفاتها في مراتب الكون.

ولا بُدّ من العزلة عن الخلق والصمت وتقليل الطعام، واجتهد في ترك شرب الماء، فإذا ألفت النفس الوحدة، فعند ذلك ادخل الخلوة، وإذا اعتزلت عن الناس فاحذر من قصدهم إليك وإقبالهم عليك.

فالمراد من عزلة الناس ترك معاشرتهم، وليس المراد ترك صورهم، بل المراد لا يكون قلبك ولا أذنك وعاء؛ لما يأتون به من فضول الكلام، فلا يصفو القلب من هذيان العالم، فاغلق بابك عن الناس، وباب بيتك عن أهلك، واشتغل بذكر رب الناس.

ومَن اعتزل وفتح باب قصد الناس إليه فذلك طالب رئاسة وجاه مطرود عن باب الله تعالىٰ، والهلاك إلىٰ هـذا أقرب من شراك نعله، واحذر من تلبيس النفس في هذا المقام، فإن أكثر الخلق هلكوا فيه.

وينبغي أن يكون صاحب الخلوة شجاعاً مقداماً ثابتاً عند سماع زعقة عظيمة أو وقع جدار أو مفاجأة أمر هائل غير جبان ولا طائش، كثير السكون دائم الفكرة لا يفرح لمدح ولا يألم لذم، قائماً بما يحتاج إليه من أسباب خلوته لا يتكلف له أحد ذلك، فإن كان كذلك فينبغي أن يدخل الخلوة وإلا فلا، بل يستعمل العزلة، ويروض نفسه إلىٰ أن يعتاد فلا تبقىٰ النفس تحس به كما لا تحس بالعادات، فيدخل الخلوة عقب ذلك مستريحاً منتشطاً فارغاً من المجاهدة، خالي المحل من المكايدة مهتماً، متضرعاً للذكر والتخلي من المطلوب.

فإن المجاهدة والمكابدة في الخلوة تذهب الجمعية التي هي روحها؛ لأنها تشغل في الوقت، فلا يرد عليك وارد، فاجعل مجاهدتك في العزلة قبل الخلوة، حتىٰ تأنس النفس بذلك، ومتىٰ تكلفت في خلوتك شيئاً من ذلك من سهر أو جوع أو عطش أو برد أوحر أو حـديث نفس أو وحشة فاخرج منها إلىٰ عزلتكن حتىٰ تستحكم.

وإذا أردت الدخول إليها فاغتسل غسل الجنابة، ونظف ثيابك، وانو التقرب إلىٰ الله تعالىٰ.

وأما هيئة بيت الخاوة ليكن ارتفاعه قدر قامتك وطوله قدر سجودك وعرضه قدر جلستك، ولا يكون فيه ثقب بنفذ فيه الضوء إلى الخلوة، ويكون بعيداً عن الأصوات وبابه وثيقاً قصيراً في دار معمورة بالناس، والأحسن أن يبيت أحد قريباً من باب الخلوة، ولا يكثر الحركة فيها، قيل: ولا يزيد على الفرائض والرواتب، وقيل: بل يقتصر على الفرائض والركعتين عند كل طهارة من الحدث واستقبال القبلة والاستمرار على الطهارة.

وليكن موضع خلائك قريباً من خلوتك، وتحفظ عند خروجك من الهواء الغريب، فإنه يؤثر فيك تفريقاً زماناً طويلاً ولا تغير ماءك عليك، وإذا خرجت لحاجة سر عينيك وأُذنيك، وليكن غذاؤك معك معداً أو خلف باب الخلوة محفوظاً.

ومن الشروط أن لا يعرف أحد أنك في خلوة، فإن كان ولا بد فأقرب الناس إليك، وليكن يجهل ما أنت عليه، ولا يعرف ما تقصده لأجل تشوف النفوس لخروجه بماذا يخرج، وهي علة كبيرة تبعد الفتح عليــه.

وأما الأكل في الرياضة والعزلة والخلوة، فهو أن تأخذ اللقمة وتسمي عليها خالقها بذلة وافتقار وحضور ومراقبة وتربص، حتى تعلم أنها قد استقرَّت في فم المعدة، فبعد ذلك تأخذ لقمةً أُخرى تفعل بها مثل الأولى، وهكذا إلى أن يتم غذاؤك، وليكن شربك الماء مصاً، واقطع نفسك مراراً، ولا تجمع الجوع المفرط، ولا تشبع الشبع المثقل.

وعند أول خلاء المعدة اشرع في تحصيل الغذاء، وليكن من وجـه لا يتضرر منه مخلوق بكلفة، ولا يكون من حيوان أصلاً، ولا يصنع لـك غذاؤك سواك، وإن جهلت مزاجك فاعرض نفسك على الأطباء يعطوك من الغذاء ما يوافق طبعك، ويصلح مزاجك، وتقول لهم: ما تريد أن تفعله من التقليل وعدم الفضول والنقل المؤدي إلى النـوم والكسل، فهم يركبون لـك غذاء تبق عليه الأيام الكثيرة الذي لا تحتاج إبراز...».

المبحث الثاني
ذكر الموت وطول الأمل

نذكر في هذا المبحث ذكر الموت وطول الأمل في مطلبين:

المطلب الأول: ذكر الموت:

جدير بمن الموت مصرعه والتراب مضجعه والدود أنيسه ومنكر ونكير جليسه والقبر مقره وبطن الأرض مستقره والقيامة موعده والجنة أو النار مورده أن لا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا له ولا استعداد إلا لأجله ولا تدبير إلا فيه ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا حول إلا حوله ولا انتظار وتربص إلا له، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى، ويراها في أصحاب القبور، فإن كلَّ ما هو آت قريب، والبعيد ما ليس بآت، فعن شداد بن أوس رضي الله عنه، قال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»(١).

ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدد ذكره على القلب، ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له، والنظر في المنبهات عليه.

---

(١) في سنن الترمذي ٤: ٦٣٨، وحسنه، والمستدرك ١: ١٢٥، وصححه.

وإن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت، فلا يذكره وإذا ذكر به كرهه ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله فيهم: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[الجمعة:٨].

ثم الناس إما منهمك وإما تائب مبتدئ أو عارف منته، أما المنهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعداً.

وأما التائب فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت، ولا يدخل هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَن كَره لقاء الله كَره الله لقاءه»[1]، فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله، وإنما يخاف فوت لقاء الله تعالى لقصوره وتقصيره، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه، فلا يعد كارهاً للقائه.

وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه، وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا.

وأما العارف فإنه يذكر الموت دائماً؛ لأنه موعد لقائه لحبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وهذا في غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت

---

(١) متفق عليه، كما في الإحياء٤: ٤٤٩.

ويحب مجيئه؛ ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين، كما روي عن حذيفة رضي الله عنه أنه لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحبُّ إليَّ من الغنى والسقم أحبُّ إلى من الصحة والموت أحب إلى من العيش فسهِّل على الموت حتى ألقاك.

فإذن التائب معذورٌ في كراهة الموت، وهذا معذور في حبِّ الموت وتمنيه، وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياةً، بل يكون أحبُّ الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، فهذا قد انتهى بفرط الحبُّ والولاء إلى مقام التَّسليم والرِّضا، وهو الغاية والمنتهى، وعلى كلِّ حال، ففي ذكر الموت ثواب وفضل.

فإن المنهمك أيضاً يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا؛ إذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته، وكل ما يكدر على الإنسان اللذات والشهوات، فهو من أسباب النجاة(١).

ونعرض في هذا المبحث لفضل ذكر الموت وطريق تحقيق ذكر الموت في المطلبين الآتيين:

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٤٤٨ـ ٤٥٠.

أولاً: فضل ذكر الموت:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات»(١)؛ لأنه يخرج الإنسان من غروره، ويبصره بحقيتها، فيقبل على خالقه سبحانه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال ﷺ: «تحفة المؤمن الموت»(٢)؛ لأنه يلقى ربه سبحانه، ويتنعم بنعيم عمله الصالح في الدنيا.

وعن أنس رضي الله عنه، قال ﷺ: «الموت كفارة لكل مسلم»(٣)؛ لأنه به يتخلص من عناء الدنيا وابتلائها إلى رياض الجنان وطيبها.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة، فقال رجل من الأنصار: «مَن أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله، فقال: أكثرهم ذكراً للموت وأشدُّهم استعداداً له، أولئك هم الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة»(٤)، لأن الأذكاء هم مَن يستعدون ويحضرون أنفسهم للحياة الأبدية، ولا يغتروا بالدنيا وزخرفها، فينالوا مكانة رفيعة في الدنيا، وجنة الرضوان الآخرة.

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: حسن، والنسائي وابن ماجه، كما في المغني٤: ٤٥١.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم مرسلاً بسند حسن، كما في المغني٤: ٤٥١.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ، قال ابن العربي في سراج المريدين: أنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقه في جزء، كما في المغني٤: ٤٥١.

(٤) أخرجه ابن ماجه مختصراً وابن أبي الدنيا بكماله بإسناد جيد، كما في المغني٤: ٤٥١.

قال الحسن: فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لب فرحا.

وقال الربيع بن خثيم: ما غائب ينتظره المؤمن خيراً له من الموت.

وقال إبراهيم التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل.

وقال كعب: مَن عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها.

وقال مطرف: إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيماً لا موت فيه.

وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة: أكثر ذكر الموت، فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك[1].

ثانياً: طريق تحقيق ذكر الموت:

إن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلّة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه، فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه.

فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه، وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٤٥١.

في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيَّعوا أموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم.

فمهما تذكر رجل رجلاً وفصل في قلبه حاله وكيفية موته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الأسباب وركونه إلى القوة والشباب وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله، وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه، وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر، وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه، فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار، فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم، وستكون عاقبته كعاقبتهم.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره.

وقال عمر بن عبد العزيز: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو رائحاً إلى الله تعالى تضعونه في صدع من الأرض، قد توسد التراب، وخلف الأحباب وقطع الأسباب.

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب، حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه، فعند ذلك يوشك أن يسند له ويتجافى عن دار الغرور، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه[1].

المطلب الثاني: طول الأمل:

إن التخلص من طول الأمل مفتاح التفكر بالدنيا وحقيقتها، والإقبال على الله تعالى، ورؤية آلائه في كلِّ مكان، فيكون صاحبها ذاكراً لربه متفكراً في كلِّ ما حوله استعداداً للقاء الله تعالى.

ونعرض في هذا المبحث إلى فضيلة قصر الأمل والسبب في طول الأمل وعلاجه، ومراتب الناس في طول الأمل وقصره، والمبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير في المطالب الآتية:

أولاً: فضيلة قصر الأمل:

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك في أهل القبور، فقال لي ابن عمر: إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك

---

(١) ينظر: الإحياء ٤: ٤٥٢.

غداً»[١]، إرشاد نبويّ إلى عدم إطالة الأمل، وإنما العيش مع الله تعالى، والتوكيل عليه.

وعن أنس رضي الله عنه، قال ﷺ: «يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر»[٢]، فيه تحذير لحال الإنسان من اللهث وارء الدنيا والتمسك بها، ولو تقدم به العمر.

وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه، قال ﷺ: «مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن اخطأته المنايا وقع في الهرم»[٣]، بيان لحال الإنسان، وأنه عرضة للموت في كل لحظة، فعليه أن يعي ذلك، ويعمل للآخرة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مربعاً وخط وسطه خطاً وخط خطوطاً إلى جنب الخط وخط خطاً خارجاً، وقال: أتدرون ما هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: هذا الإنسان للخط الذي في الوسط، وهذا الأجل محيط به، وهذه الأعراض للخطوط التي حوله تنهشه إن اخطأه هذا نهشه هذا، وذاك الأمل» يعني الخط الخارج[٤]، تذكير للمسلمين بقرب أجلهم ليعلموا لآخرتهم ويتفكروا بالدنيا وحالها.

---

(١) في سنن الترمذي ٤: ٥٦٨.

(٢) في صحيح مسلم ٢: ٢٧٤.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه، كما في المغني ٤: ٤٥٣.

(٤) رواه البخاري، كما في المغني ٤: ٤٥٣.

قال مطرف بن عبد الله: لو علمت متى أجلي لخشيت على ذهاب عقلي، ولكن الله تعالى مَنَّ على عباده بالغفلة عن الموت، ولولا الغفلة ما تهنأوا بعيش، ولا قامت بينهم الأسواق.

وقال الحسن: السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم، ولولاهما ما مشى المسلمون في الطرق.

وقال الثوري: بلغني أن الإنسان خلق أحمق، ولولا ذلك لم يهنأه العيش.

وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن: إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها.

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني، مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس يغفل عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض، وثلاث أحزنتني حتى أبكتني فراق الأحبة محمد وحزبه، وهول المطلع، والوقوف بين يدي الله، ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار.

وقال بعضهم: رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقلت: أي الأعمال أبلغ عندكم، قال: التوكل وقصر الأمل.

وقال الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة.

وقال الحسن: الموت معقودٌ بنواصيكم، والدنيا تطوى من ورائكم.

وقال بعضهم: أنا كرجل ماد عنقه، والسيف عليه ينتظر متى تضرب عنقه.

وقال داود الطائي: لو أملت أن أعيش شهراً لرأيتني قد أتيت عظيماً، وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار.

وقال القعقاع بن حكيم: قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة، فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء.

ثانياً: سبب طول الأمل وعلاجه:

إن طول الأمل له سببان: أحدهما: الجهل، والآخر: حبُّ الدنيا، أما حبُّ الدنيا فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكلُّ مَن كره شيئاً دفعه عن نفسه، والإنسان مشغوفٌ بالأماني الباطلة، فيمني نفسه أبداً بما يوافق مرادَه، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا، فلا يَزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه، فيلهو عن ذكر الموت، فلا يقدر قربه، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الإستعداد له سوف ووعد نفسه.

وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر، ثم تتوب وإذا كبر، فيقول: إلى أن تصير شيخاً، فإذا صار شيخاً، قال: إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة

هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة أو تفرغ من تدبير، هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك.

فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم، ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزناه من سوف.

والمسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخاً، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط، وهيهات فما يفرغ منها إلا من طرحها فما قضى أحد منها لبانته، وأصل هذه الأماني كلها حب الدنيا والأنس بها.

وأما الجهل؛ فهو أن الإنسان قد يعول على شبابه، فيستبعد قرب الموت مع الشباب، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقلّ من عشر رجال البلد، وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب.

وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة، ولا يدري أن ذلك غير بعيد، وإن كان ذلك بعيداً، فالمرض فجأة غير بعيد، وكل مرض فإنما يقع فجأة وإذا مرض لم يكن الموت بعيد، ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت

ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له، ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب، فهو أبداً يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه، وهو أبداً يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته؛ لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره.

فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه، فإنه لم يقع وإذا وقع في دفعه أخرى بعد هذه، فهو الأول وهو الآخر، وسبيله أن يقيس نفسه بغيره، ويعلم أنه لا بد وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره ولعل اللبن الذي يغطي به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري، فتسويفه جهل محض، وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا.

وعلاجه بدفع سببه:

أما الجهل؛ فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة.

وأما حب الدنيا؛ فالعلاج في إخراجه من القلب شديد، وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين علاجه، ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير، فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى

الدنيا كلها وإن أعطى ملك الأرض من المشرق إلى المغرب، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منغص فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة، فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده.

ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال، وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا، أما من كان مستعداً فقد فاز فوزاً عظيماً، وأما من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسراناً مبيناً، فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة، وكيف تتفتت عظامها، وليتفكر أن الدود يبدأ بحدقته اليمنى أولا أو اليسرى، فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وما له من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى(1).

ثالثاً: مراتب الناس في طول الأمل وقصره:

إنّ الناس في ذلك يتفاوتون:

فمنهم مَن يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً، قال تعالى: {يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ}[البقرة:٩٦].

ومنهم مَن يأمل البقاء إلى الهرم، وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه، وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً.

---

(١) ينظر: الإحياء٤: ٥٥٧ـ٤٥٨.

ومنهم مَن يأمل إلىٰ سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها، فلا يقدر لنفسه وجوداً في عام قابل، ولكن هذا يستعدُّ في الصيف للشتاء، وفي الشتاء للصيف، فإذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة.

ومنهم مَن يأمل مدة الصيف أو الشتاء، فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء، ولا في الشتاء ثياب الصيف.

ومنهم مَن يرجع أمله إلىٰ يوم وليلة، فلا يستعدُّ إلا لنهاره، وأما للغد فلا.

ومنهم مَن لا يجاوز أمله ساعة.

ومنهم مَن لا يقدر البقاء أيضا ساعة.

ومنهم مَن يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به، فهو ينتظره، وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع.

فهذه مراتبُ النّاس، ولكلٍّ درجات عند الله تعالىٰ، وليس من أمله مقصور علىٰ شهر كمَن أَملُه شهر ويوم، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلىٰ العمل، وكل إنسان يدعي أنه قصير الأمل، وهو كاذب إنما يظهر ذلك بأعماله، فإنه يعتنىٰ بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة، فيدل ذلك علىٰ طول أمله.

وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة، فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت، فإن عاش إلىٰ المساء شكر الله

تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره، بل استوفى منه حظَّه وادخره لنفسه، ثم يستأنف مثله إلى الصباح، وهكذا إذا أصبح، ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد، وما يكون فيه.

فمثل هذا إذا مات سعد وغنم، وإن عاش سر بحسن الاستعداد، ولذّة المناجاة، فالموت له سعادة، والحياة له مزيد، فليكن الموت على بالك يا مسكين، فإن السير حاث بك، وأنت غافل عن نفسك، ولعلك قد قاربت المنزل، وقطعت المسافة، ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناماً لكل نفس أمهلت فيه(١).

رابعاً: المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير:

إن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة، وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غد، فالاستعداد نتيجة قرب الإنتظار، فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة، ونسي ما وراء المدة.

ثمّ يصبح كلّ يوم، وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذي مضى، وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبداً يرى لنفسه متسعاً في تلك السنة، فيؤخر العمل.

---

(١) ينظر: الإحياء: ٤٥٨.

فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «ما ينتظر أحدكم إلا غنىً مطغياً، أو فقراً منسياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال والدجال شر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر»(١)، تنبيه على عدم تعلق المسلم بشوغل الدنيا وملهياتها، وإنما عليه الإقبال على الله تعالى.

وعن ابن عباس ﷺ قال ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»(٢)، حثّ نبوي على العمل الدؤوب قبل أن يأتي الموت.

وعن ابن عباس ﷺ، قال ﷺ: «مَن خاف أدلج، ومَن أدلج بلغ المنزل»(٣)، فمن خاف الله تعالى عمل لرضاه، فترضى وبلغ المنزلة الرفيعة عند الله تعالى.

وعن جابر ﷺ: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول: صبحتكم ومسيتكم بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين أصبعيه»(٤)، إرشاد نبوي في عدم التعلق بطول الأمل؛ لقرب الموت والساعة، فعلينا العمل للآخرة.

قال عمر ﷺ: التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للآخرة.

---

(١) في المستدرك ٤: ٣٥٦، وصححه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن

(٣) أخرجه الترمذي، وحسنه، كما في المغني ٤: ٤٥٩.

(٤) أخرجه مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له، كما في المغني ٤: ٤٥٩.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف، وما له عارية، والضيف مرتحلٌ والعاريةُ مؤداة.

والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو، فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه، وهو في كلِّ نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل، فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور.

وعن عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ: «موت الفجأه راحة للمؤمن وأسف على الفاجر»(١)؛ لأنه يكون يعمل لآخرته فلا يضره، وفيه راحة من عناء الدنيا للمسلم بخلاف الفجر.

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح، كما في المغني ٤: ٤٦٣.

فهرس الموضوعات:

الفصل الأول..١٣
الذكر وتوابعه..١٣
المبحث الأول..١٣
معنى الذكر وفضله وثمرته..١٣
المطلب الأول: معنى الذكر:..١٤
أولاً: المعنى اللغوي:..١٤
ثانياً: الاستعمال القرآني:..١٤
ثالثاً: المعنى الاصطلاحي:..١٥
المطلب الثاني: الذكر والإخلاص:..٢٠
المطلب الثالث: فضل الذكر وثمرته في القرآن والسنة:..٢٣
المبحث الثاني..٣١
أسرار الصَّلاة..٣١
المطلب الأول: طهارة الظاهر والباطن:..٣٢
المطلب الثاني: الخشوع وحضور القلب:..٣٨
أولاً: معنى الخشوع:..٣٨
ثانياً: استحباب الخشوع في الصلاة:..٤٠
المطلب الثالث: المعاني الباطنة للصلاة:..٤٢
المطلب الرابع: الدواء النافع في حضور القلب:..٤٦

المطلب الخامس: كيفية حضور القلب:.......................................٤٩
المطلب السادس: أثر الصلاة على حياة المسلم:.......................................٥٩
المطلب السابع: النوافل من الصلوات: ٩٤
المبحث الثالث.......................................١٠٤
أسرار الزكاة والصيام والحج.......................................١٠٤
المطلب الأول: أسرار الزكاة: ١٠٤
أولاً: وظائف مريد طريق الآخرة بزكاته:.......................................١٠٦
ثانياً: فضل الصدقة:.......................................١١٨
المطلب الثاني:أسرار الصوم: ١٢١
أولاً: درجات الصوم ثلاث:.......................................١٢٢
ثانياً: نفل الصيام: ١٢٦
المطلب الثالث: أسرار الحج:.......................................١٣٢
أولاً: آداب الدقيقة للحج:.......................................١٣٤
ثانياً: الأعمال الباطنة للحج: ١٣٦
المبحث الرابع ١٤٠
تلاوة القرآن.......................................١٤٠
أولاً: حق القرآن علينا: ١٤١
ثانياً: فضيلة تلاوة القرآن: ١٤٨
ثالثاً: آداب قراءة القرآن:.......................................١٥٢
رابعاً: الآيات المستحبة في أوقات وأحوال مخصوصة: ١٧٣
خامساً: أعمال الباطن في التلاوة: ١٧٦
المبحث الرابع ١٨٣

الأذكار والدعوات ١٨٣
المطلب الأول: الأذكار:.................................. ١٨٣
أولاً: فضل مجالس الذكر والاجتماع عليه:.................. ١٨٤
ثانياً: فضل الجهر بالذكر:.................................. ١٨٦
ثالثاً: التحذير من ترك الذكر:.............................. ١٨٩
رابعاً: الحركة في الذكر:.................................. ١٩٢
خامساً: آداب الذكر:.................................. ١٩٧
سادساً: فوائد الذكر:.................................. ٢٠١
سابعاً: التدرج بالأذكار:.................................. ٢٠٢
ثامناً: الأنوار بالمجاهدة:.................................. ٢١٣
ثامناً: فضيلة التهليل والتسبيح والتحميد وغيرها:.............. ٢١٦
عاشراً: فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ:.................. ٢٢٢
الحادي عشر: فضيلة الاستغفار:.............................. ٢٢٥
الثاني عشر: فضيلة حسبي الله ونعم الوكيل:.................. ٢٢٨
المطلب الثاني: أسماء الله الحسنى:.......................... ٢٢٩
المطلب الثالث: الدعاء:.................................. ٢٣٧
أولاً: فضله الدعاء:.................................. ٢٣٧
ثانياً: آداب الدعاء:.................................. ٢٣٩
المطلب الثالث: ترتيب الأوراد وإحياء الليل:.................. ٢٤٤
أولاً: فضيلة الأوراد:.................................. ٢٤٥
ثانياً: اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال:...................... ٢٤٨
ثالثاً: أسباب تيسر قيام الليل:.............................. ٢٥٥

رابعاً: طرق القسمة لأجزاء الليل: ٢٥٧
الفصل الثاني ٢٦١
التفكر وتوابعه ٢٦١
المبحث الأول ٢٦٣
التفكر والعزلة........................ ٢٦٣
المطلب الأول: التفكر:........................ ٢٦٣
أولاً: فضيلة التفكر:........................ ٢٦٤
ثانياً: حقيقة الفكر وثمرته:........................ ٢٦٦
ثالثاً: مجارى الفكر:........................ ٢٧٠
رابعاً: كيفية التفكر في الخلق: ٢٨٦
خامساً: استيعاب التفكر للحياة:........................ ٣٠٣
أولاً: فوائد العزلة وغوائلها:........................ ٣٠٩
ثانياً: فوائد المخالطة:........................ ٣١٦
ثالثاً: الخلوة: ٣٢٠
المبحث الثاني........................ ٣٢٥
ذكر الموت وطول الأمل ٣٢٥
المطلب الأول: ذكر الموت: ٣٢٥
أولاً: فضل ذكر الموت:........................ ٣٢٨
ثانياً: طريق تحقيق ذكر الموت:........................ ٣٢٩
المطلب الثاني: طول الأمل: ٣٣١
أولاً: فضيلة قصر الأمل: ٣٣١
ثانياً: سبب طول الأمل وعلاجه: ٣٣٤

ثالثاً: مراتب الناس في طول الأمل وقصره: ٣٣٧
رابعاً: المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير:...................................... ٣٣٩
فهرس الموضوعات:.. ٣٤٢